الأمانة العامة
العتبة الحسينية المقدسة
قسم الشؤون الدينية
شعبة البحوث والدراسات

أخلاقيَّات الاعتقاد

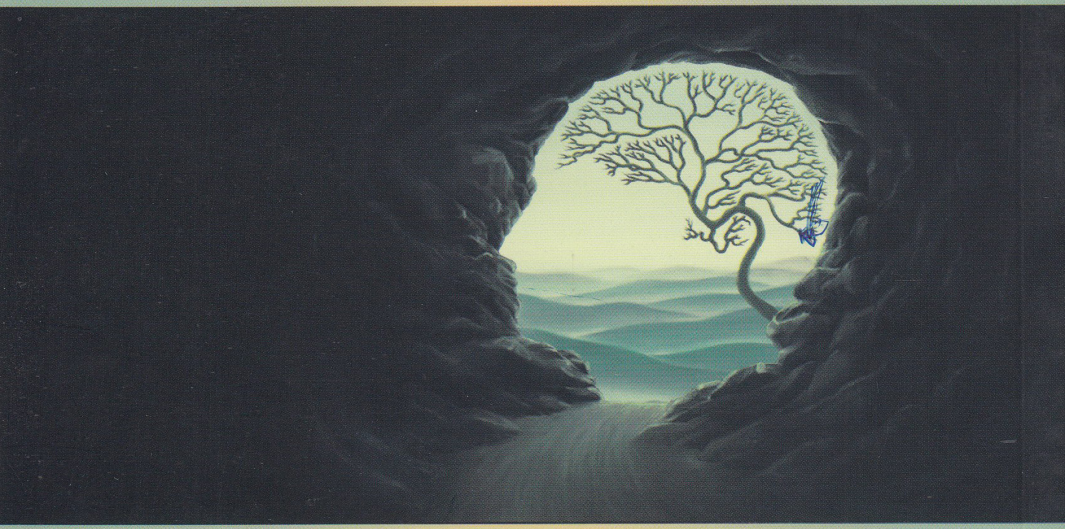

شرح ونقد
مرتضى فرج

أخلاقيَّات الاعتقاد

ترجمة مقالة: وِلْيَم كليفورد

وفي الملْحق موقف نقْدي لـ: وِلْيَم جيمس

شرْح ونقْد:
مرتضى فرج

1311 .57 2022

فرج، مرتضى - مؤلف.

أخلاقيات الاعتقاد: ترجمة مقالة وليم كليفورد، وفي الملحق موقف نقدي لـ وليم جيمس / شرح ونقد مرتضى فرج - الطبعة الاولى. - كربلاء، العراق: العتبة الحسينية المقدسة، قسم الشؤون الدينية، شعبة البحوث والدراسات، 2022 / 1444 للهجرة.

200 صفحة ؛ 24 سم. - (العتبة الحسينية المقدسة ؛ 1123)، (قسم الشؤون الدينية؛)، (شعبة البحوث والدراسات؛).

يتضمن ارجاعات ببليوجرافية.

1. كليفورد، وليام، 1845-1879 – اخلاقيات الاعتقاد. 2. الاخلاق، تطوير. 3. الاعتقاد والشك. 4. الأخلاق – فلسفة. 5. القيم الأخلاقية. أ. جيمس، ويليام، 1842-1910 -- ارادة الاعتقاد. ب. رد على (عمل) : كليفورد، وليام، 1845-1879 -- أخلاقيات الاعتقاد. ج. العنوان.

تمت الفهرسة قبل النشر في شعبة نظم المعلومات التابع لقسم الشؤون الفكرية العتبة الحسينية

تصميم واخراج: محمد صاحب المعمار

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

للاعتقادِ جانبان: منطقيٌّ ونفْسيٌّ.

فمن الناحيةِ المنطقيَّةِ، يُفترَضُ أنْ يستوفي الاعتقادُ الموضوعي شروطَ الصحَّة من حيثُ الصُّورةِ والمضمون، بحيث يكونُ الانتقالُ من المقدِّماتِ (أو المعطيات) الصَّحيحةِ إلى النَّتيجةِ انتقالاً مشروعاً من الناحيةِ المنطقيَّة.

ومن الناحيةِ النَّفْسيَّةِ، يتأثَّرُ الاعتقادُ عند تشكيلِهِ في الذِّهن بسلْسلةٍ معقَّدةٍ من العوامل، كالخبراتِ والاعتقاداتِ المُسْبقة والرَّغباتِ والمُيولِ والانفعالاتِ[1]. لذا من يرْغَبُ في اكتسابِ اعتقاداتٍ صلْبة، عليه أنْ يكونَ حريصاً على التثبُّتِ من سلامةِ

---

(١) لمعرفة التأثير الخطير للانفعالات على الاعتقادات، راجع مثلاً:
(Edit) Nico H. Frijda, Emotions and Beliefs: How Feelings Influence Thoughts, Cambridge University Press, 2000.

سيْرِهِ الفكري من النَّاحيةِ المنطقيَّة، وأنْ يجهَدَ قدْرَ طاقتِهِ بأنْ لا يتأثَّرَ أثناءَ ذلك بالعواملِ النَّفْسيَّة[١].

ومع الجانبِ المنطقي والنَّفْسي، للاعتقادِ أخلاقيَّاتٌ يتحمَّلُ المرْءُ مسئوليَّةَ مراعاتِها.

والمقالةُ التي سوف أدْرُسُها - بنحوٍ نقْدي - كتَبَها عالِمُ الرِّياضيَّات والفيلسوفُ الإنجليزي وليم كليفورد William Clifford (١٨٤٥- ١٨٧٩)، وموضوعُها الأساس أخلاقيَّات الاعتقاد The Ethics of Belief (١٨٧٧)، وهي تهيبُ بالقارئِ بأنْ يتحقَّقَ من اعتقاداتِهِ، وفكرَتُها المركزيَّة: "إنَّه من الخطأِ، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وبالنِّسبةِ لكلِّ فرْدٍ، أنْ يعتقدَ بأيِّ شيءٍ على أساسِ أدلَّةٍ غير كافية".

في المقابل، وجَّهَ عالِمُ النَّفْس والفيلسوفُ الأمريكي وليم جيمس (١٨٤٢- ١٩١٠) William James انتقادات لكلامِ كليفورد في إرادةِ الاعتقاد The Will to Belief (١٨٩٧)، حيثُ أكَّدَ على أنَّ آراء كليفورد لا يصُحُّ التمسُّك بها كما هي؛ لأنَّ للإرادةِ دوراً أساسيَّاً - لا

---

(١) لمزيد من التوسع في الموضوع، أنظر مثلاً:

Jared Reser, What Determines Belief? VDM, U.K, 2011.

يمكنُ تجاهلُهُ - في الاعتقاد. وما زال لهذا الجدَل بين كليفورد وجيمس حضورٌ في الفلْسفةِ، وخاصَّةً في مجالِ أخلاقِ الاعتقاد[١].

ولا شكَّ أنَّ الاعتقادَ - إنْ ابتغى حامِلُهُ الحقيقةَ - لا بدَّ أنْ يرْتكزَ على أساسٍ صلْب. كما لا شكَّ أنَّ الاعتقادَ مسئوليَّةٌ، يتحمَّلُها الإنسانُ، وتنعكسُ على حياتِهِ وسُلُوكِهِ، ويتأثَّرُ بها مجتمعُهُ ومن حولَهُ. لذا لا يمكنُ الاتِّكاءُ في الاعتقاداتِ الأساسيَّةِ والمهمَّةِ، وخصوصاً الدِّينيَّةَ منها، على مجرَّدِ التَّقليد وإتِّباعِ الآباءِ والأجداد والقيلِ والقال.

لقد تحدَّثَ علماؤُنا عن هذا الأمرِ في كُتُبِهِم الكلاميَّة والأصوليَّة؛ فمثلاً تعرَّضَ الشَّيخُ الأنصاري لذلك في كتابه فرائدُ الأصول[٢]. وقبلهُ تعرَّضَ العلَّامةُ الحِلِّي لذلك في مطلَعِ كتابِهِ الباب الحادي عشر فقال: "أجْمَعَ العُلماءُ كافَّةً على وجوبِ معرفةِ اللهِ تعالى وصفاتِهِ

---

(١) أنظر على سبيل المثال:

Jonathan e. Adler, Belief's Own Ethics, MIT Press, London, 2006.

(٢) أنظر: مرتضى الأنصاري، فرائدُ الأصول، تحتَ عنوان "الأمرُ الخامس" في بحثِ الظَّنّ.

الثُّبوتيَّةِ والسَّلْبيَّةِ، وما يصُحُّ عليه وما يمتنعُ عنه والنُّبوَّةِ والإمامةِ والمعاد، بالدَّليلِ لا بالتَّقليد".

وكتبَ السيِّد جمالُ الدِّين (الأفغاني) الأسد آبادي (١٨٣٨- ١٨٩٧) في رسالةِ الرَّدُّ على الدَّهريِّين: "إذا نظَرْنا فيما بين أيدينا من الأدْيان، وجَدْنا أنَّ دينَ الإسلامِ قد أُقيمَ على أساسٍ من الحكمةِ ركين. ذلك أنَّ عُروجَ الأُمَمِ على معارجِ الحقِّ الأعلى، وتدرُّجَ الشُّعوب في مدارجِ العِلْمِ الأجلّ، وصعودَ الأجيالِ على مراقي الفضائل، وإشرافَ طوائف على دقائقِ الحقائق، ونيلَهُم للسَّعادةِ الحقيقيَّةِ في الدَّارين، كُلُّ ذلك مشروطٌ بأُمورٍ لا يتمُّ إلا بها.

(الأمرُ) الأوَّلُ: صفاءُ العقولِ من كدَرِ الخُرافاتِ وصدأِ الأوهام. فإنَّ عقيدةً وهميَّةً لو تدنَّسَ بها العقْلُ، لقامَتْ حجاباً كثيفاً يحولُ بينه وبين حقيقةِ الواقع، ويمنعهُ من كشْفِ نفْسِ الأمر. بل إنَّ خُرافةً قد تقفُ بالعقْلِ عن الحركةِ الفكريَّةِ، وتدْعوهُ بعد ذلكَ أنْ يحمِلَ المِثْلُ على مثْلِهِ، فيسْهُلُ عليه قَبولُ كلّ وهمٍ، وتصديقُ كلّ ظنّ. وهذا ممَّا يوجِبُ بُعدَهُ عن الكمال، ويضْرِبُ له دونَ الحقائقِ سِتْراً لا يُخرَق. وفوقَ ذلكَ ما تجلِبُهُ الأوهامُ على النُّفُوسِ من الوحشةِ وقُرْبِ الدَّهشةِ، والخوفَ ممَّا لا يُخيف، والفزَعَ ممَّا لا يُفزِع.

ترى الواهمَ المسْكين، يقضي حياتَهُ بين رجفةٍ واضطراب، يتطيَّرُ من طيرانِ الطُّيور وحركاتِ البهائم، ويضْطربُ من هُبوبِ الرِّياح، وينْزعجُ لقصْفِ الرَّعدِ والتماعِ البرْق، ويسْلُكُ به الوهمُ طُرَقَ الخِيفةِ ممَّا لا أثرَ له في الإخافة. وبهذا يُسجَّلُ عليه الحرْمانُ من أغلَبِ أسبابِ السَّعادة، ثمَّ يكونُ أُلعوبةً في أيدي المُحتالين، وصيْداً من حبائلِ الماكرينَ والدَّجَّالين.

وأوَّلُ رُكنٍ بُنِيَ عليه الدِّينُ الإسلامي، صقْلُ العقولِ بصِقالِ التَّوحيد، وتطهيرُها من لوثِ الأوهام. فمن أهمِّ أُصولِ الاعتقاد بأنَّ اللهَ منفردٌ بتصريفِ الأكوان، متوحِّدٌ في خلْقِ الفواعلِ والأفعال، وأنَّ من الواجبِ طرْحُ كلّ ظنّ في إنسانٍ وجماد، عُلْوِيَّاً كان أو سُفْلِيَّاً، بأنَّ في الكونِ أثراً ينفعُ أو ضُرَّاً أو إعطاءَ أو منْعَ أو إعزازَ أو إذلال. ومن المفروضِ خلْعُ عقيدة أنَّ اللهَ جلَّ شأنُهُ ظهَرَ أو يظهَرُ بلباسِ البشَرِ أو حيوانٍ آخر، لصلاحٍ أو فساد. أو أنَّ تلك الذَّات المُقدَّسة نالتْ في بعضِ أطوارِها شديدَ الآلام، وأليمَ الأسقام، لمصْلحةِ أحدٍ من الخلْق، فضلاً عمَّا يحُفُّ بذلك من خُرافاتٍ، كلُّ واحدةٍ منها كافيةٌ في إعماءِ العقول وطمْسِ نورِها.

وأغلَبُ الأدْيانَ الموجودةَ لا يخلو من هذه الأوهام. وإنْ شئْتَ فاضْرِب بنظرِكَ إلى ديانةِ "برَهْما" في الهند، ودينِ "بوذه" في الصِّين، ودينِ "زرادشت" في بقايا الفارسيِّين، وكثيراً من أدْيانٍ أُخَر.

الأمرُ الثَّاني: أنْ تكونَ نُفُوسُ الأُمَمِ مستقبلةً وجْهةَ الشَّرَف (=الكرامة الإنسانيَّة)، طامحةً إلى بلوغِ الغاية منه، بأنْ يجِدَ كلُّ واحدٍ من نفسِهِ أنَّه لائقٌ بأيَّةِ مرْتبةٍ من مراتبِ الكمالِ الإنساني ما عدا رُتْبةِ النُّبوَّة، فإنَّها بمعْزَلٍ عن المطْمَع، وإنَّما يختصُّ اللهُ بها من شاءَ من عبادِهِ.

ولا يذْهَبُ وهْمُ أحدٍ من الأمَّةٍ إلى أنَّه ناقصُ الفطْرةِ، منحطُّ المنزلةِ، فاقدُ الاستعدادِ لشيءٍ من الكمال. فإذا أخذَتْ نفوسُ النَّاسِ حظَّها من هذه الصِّفةِ – أعني الإقبال على وجوهِ الشَّرَف – تسابقَ كلٌّ مع الآخرِ في مجالاتِ الفضائل، وتمادَتْ بهم المجاراةُ إلى محاسِنِ الأعمال، فبلَغَ كلُّ واحدٍ ما أتى عليه سعْيُهُ من عالياتِ الأمور وشرائفِ المراتب.

ولو أنَّ قوماً أساؤوا الظَّنَّ بأنفُسِهِم، واعتقدوا أنَّ نصيبَهُم من الفطْرةِ نقصُ الاستعداد وخسَّةُ المنزلة، وأنْ لا سبيلَ لهم إلى الوقوفِ في مصافِّ غيرِهِم من طبقاتِ النَّاس، فلا ريْبَ يسْقُطُ من هِمَمِهِم

على مقدارِ ما ظنُّوا في أنفُسِهِم، وبذلك يتولَّى النَّقصُ أعمالَهُم، ويملِكُ الخمودُ عقولَهُم، فيُحرَمونَ معظمَ الكمالاتِ البشريَّة، وينقطعونَ دونَ كثيرٍ من مقاماتِ الشَّرَف الدُّنيويَّة، وتكونُ جولَتُهُم في دائرةٍ ضنِكة، محيطُها دونَ ما ظنُّوا بأنفُسِهِم.

إنَّ دينَ الإسلامِ فتحَ أبوابَ الشَّرفِ في وجوهِ الأنفُس، وكشَفَ لها عن غايتِهِ، وأثبَتَ لكُلِّ نفْسٍ صريحَ الحقِّ في أيِّ فضيلةٍ، وأنبأَ كلَّ ذي نُطْقٍ بوفرةِ استعدادِهِ لأيِّ منزلٍ من منازِلِ الكرامة، ومحَقَ امتيازَ الأجناسِ وتفاضُلَ الأصنافِ، وقرَّرَ المزايا البشريَّة على قاعدةِ الكمالِ العقلي والتَّفْسي لا غير.

فالنَّاسُ إنَّما يتفاضلونَ بالعقْلِ والفضيلة. وقد لا تجدُ من الأدْيانِ ما يجمَعُ أطرافَ هذه القاعدة؛ فلديكَ دينُ "برَهْما"، قسَّمَ النَّاسَ إلى أرْبعةِ أقسام، أحدُها "برَهْمَنَ"، وثانيها "جَهَتْري"، وثالِثُها "شودْرَ"[١].

---

(١) "أرْبعُ طبقات: البراهمانا (المثقفون)، الكشترايا (العسكريون الإداريون)، الفيشايا (المنتجون)، والشُّودْرا (العمال)". (جون كولر، الفكر الشَّرْقي القديم، سلْسلة عالَم المعرفة، المجلس الوطني للثَّقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد ١٩٩، ١٩٩٥، ص٧٨).

وقرَّرَ لكلٍّ منزلٍ من كمالِ الفطْرةِ ما لا يُجاوِزُها، فأعلى منازلِ الكمال للبرَهْمَن، ويليها منزلةً الجَهَتْري، والصَّنفُ الرَّابعُ أخسُّها وأدْناها في جمْعِ المزايا الإنسانيَّة.

وكان هذا التَّقسيمُ سبباً في انحطاطِ المُتديِّنينَ بهذا الدِّين، وقُصورِ خُطاهُم عن الرُّقي في مدارِجِ المدنيَّة، وانحسارِ أفكارِهِم دونَ الوصول إلى ما يطلِبُهُ استعدادُهُم من المعارفِ الصَّحيحةِ والعلومِ الحَقَّة، مع أنَّهم أقدمُ الأممِ وأسبَقُها نظْرةً في الكونِ وشؤونِهِ.

ومن الأدْيانِ ما يُغلِّبُ على أُممٍ من البشر، وفي أصولٍ تفضيلُ شعْبٍ خاصٍّ على بقيَّةِ الشُّعوب، كشعْبِ بني إسرائيل مثلاً، وكتابُهُ المعروف يُخاطِبُ أبناءَ ذلك الشَّعب بالكرامةِ والإجلال، ويذْكُرُ غيرَهُم بالتَّحقيرِ والإهانة.....

الأمرُ الثَّالث: أنْ تكونَ عقائدُ الأمَّة، وهي أوَّلُ رقمٍ يُنقَشُ في ألواحِ نُفُوسِها، مبنيَّةً على البراهينِ القويمةِ والأدلَّةِ الصَّحيحةِ، وأنْ تتحامى عقولُهُم عن مطالعةِ الظُّنونِ في عقائِدِها، وتترفَّعُ عن الاكتفاءِ

أنظر أيضاً أبو ريحان البيروني، تحقيق ما للهند من مقولةٍ مقبولةٍ في العقْل أو مرْذولة، عالم الكتب، بيروت، ط١، ٢٠١١، ص٧٠ ٧٣)، والطَّبقات الأرْبع في هذا الكتاب هي: "برَهْمَن، كشَتْر، بَيْش، شودْر".

بتقليدِ الآباءِ فيها. فإنَّ مُعتقِداً لاحَتْ العقيدةُ في مُخيَّلَتِهِ بلا دليلٍ ولا حُجَّةٍ، قد لا يكونُ موقِناً، فلا يكونُ مؤمناً.

هذا، والآخذُ في عقائدِهِ بالظَّنِّ، يُنصِّبُ عقْلَهُ على متابعةِ الظُّنون. والقانِعُ بأنَّ آباءَهُ كانوا على مثلِ عقيدتِهِ فأولى به أنْ يكونَ عليها، يلْتقي مع سابقِهِ في مضارِبِ الوهْمِ ولجاجِ الظَّنّ. وأولئكَ المُتَّبعونَ للظَّنِّ القائمونَ بالتَّقليد، تقفُ بهم عقولُهُم عندما تعوَّدتْ إدراكُهُ، فلا يذْهبونَ مذاهبَ الفكرِ، ولا يسلُكونَ طرائقَ النَّظَرِ. وإذا استمرَّ بهم ذلك، تغشَاهُمُ الغباوةُ بالتَّدريج، ثمَّ تكاثفتْ عليهمُ البلادةُ، حتى تُعطِّلَ عقولَهُم عن أداءِ وظائِفِها العقليَّة بالمرَّة، فيُدرِكُها العجْزُ عن تمييزِ الخيرِ من الشَّرِّ، فيُحيطُ بهمُ الشَّقاءُ، ويتعثَّر بهمُ البحْثُ، وبئِسَ المآلُ مآلُهُم....

إنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ يكادُ يكونُ مُتفرِّداً من بين الأدْيانِ بتقريعِ المعتقدينَ بلا دليل، وتوبيخِ المُتَّبعينَ للظُّنون، وتبكيتِ الخابطينَ في عشْواءِ العماية، والقدْحِ في سيرَتِهِم. هذا الدِّينُ يُطالِبُ المتديِّنينَ أنْ يأخذوا بالبُرْهانِ في أصولِ دينِهِم. وكلَّما خاطَبَ، خاطَبَ العقْلَ. وكلَّما حاكَمَ، حاكَمَ إلى العقْلِ. تنطِقُ نصوصُهُ بأنَّ السَّعادةَ من نتائِجِ العقْلِ والبصيرةِ، وأنَّ الشَّقاءَ والضَّلالةَ من لواحقِ الغفْلةِ

وإهمالِ العقْلِ وانطفاءِ نورِ البصيرةِ. ويرْفَعُ أرْكانَ الحُجَّةِ لأُصولٍ من العقائد، كلٌّ منْها ينفعُ العامَّةَ ويُفيدُ الخاصَّة. وكلَّما جاءَ بحُكْمٍ شرْعيٍّ، أتْبَعَهُ ببيانِ الغايةِ منه في الأغلب.

وقلَّما يوجدُ من الأدْيانِ ما يُساويهِ أو يُقارِبُهُ في هذ المزيَّة. وأظنُّ غير المسلمين يعترفونَ لهذا الدِّينِ بهذه الخاصَّةِ الجليلة....

(الأمرُ) الرَّابع: أنْ يكونَ في كلِّ أُمَّةٍ طائفةٌ يختَصُّ عمَلُها بتعليمِ سائرِ الأمَّة، لا يَنُونَ في تنويرِ عقولِهِم بالمعارفِ الحقَّة، وتحلِيَتِها بالعلومِ الصَّافية، ولا يَأْلونَ جُهْداً في تبْيينِ طُرُقِ السَّعادةِ لهم والسُّلوكِ بهم في جوادِها. ثمَّ طائفةٌ أُخرى تقومُ على النُّفُوس، تتولَّى تهذيبَها وتثقيفَ أوَدِها، وتكشِفُ عن الأوصافِ الفاضلةِ وحدودِها، وتُمثِّلُ للمَدارِكِ فوائِدَها ومحاسِنِ غاياتِها، وتفضحُ مستورَ الرَّذائل، وتشُقُّ الحِجابَ عن مضارِّها وسوءِ منقلبِ المُتدنِّسينَ بها...."[1].

وكتَبَ السيِّد محمَّد باقر الصَّدْر حول هذه النُّقطة ما يلي: "أنْتَ في أيِّ مجالٍ من الحياةِ لاحظْتَهُ، تجِدُ أنَّ ممارَسَتَهُ تتطلَّبُ معرفةً معيَّنةً، وأنَّ جُزْءاً من هذه المعرفةِ قد يكونُ واضحاً ومتيسِّراً على العموم، ولكن

(١) جمال الدِّين الأسد آبادي، الرَّدُّ على الدَّهريِّين، ترجمة: محمد عبده، دار المعارف الحكمية، بيروت، ط١، ٢٠١٧، ص١٣٥- ١٤٢.

الجزءُ الأكبرُ منها غيرُ واضحٍ، ويتطلَّبُ جهداً علْمياً ومعاناةً في الدَّرسِ والبحث. ففي المجالِ الصحِّي مثلاً، يعلَمُ كلُّ إنسانٍ – بحُكْمِ التَّجرِبةِ السَّاذجةِ في حياتِهِ – أنَّه إذا تعرَّضَ إلى مناخٍ باردٍ فجأة، فقد يُصابُ بأعراضِ حُمَّى، ولكن كثيراً من أساليبِ الوقايةِ والعلاجِ لا يعرِفُها إلا عن طريقِ الطَّبيب، ولا يعرِفُها الطَّبيبُ إلا بالبحثِ والجهد. وهكذا الحالُ في مجالِ التَّعميرِ والبناء، ومجالاتِ الزِّراعةِ والصِّناعةِ على اختلافِ فُرُوعِها.

ومن هنا، وجَدَ كلُّ إنسانٍ أنَّه لا يمكنُ عمليّاً أنْ يتحمَّلَ بمُفْرَدِهِ مسئوليَّةَ البحثِ والجهْدِ العلْمي الكامل في كلِّ ناحيةٍ من نواحي الحياة، لأنَّ هذا عادةً أكبرُ من قدرةِ الفرْدِ وعمرِهِ من ناحية، ولا يُتيحُ له التعمُّق في كلِّ تلك النَّواحي بالدَّرجةِ الكبيرةِ من ناحيةٍ أخرى؛ فاستقرَّتْ المجتمعاتُ البشريَّةُ على أنْ يتخصَّصَ لكُلِّ مجالٍ من مجالاتِ المعرفةِ والبحثِ عددٌ من النَّاس، فيكتفي كلُّ فرْدٍ في غيرِ مجالِ اختصاصِهِ بما يعلَمُهُ على البديهة، ويعتمدُ في ما زادَ عن ذلك على ذوي الاختصاص؛ مُحمَّلاً لهم المسئوليَّةَ في تقديرِ الموقف، وكان ذلك لوناً من تقسيمِ العمَلِ بين النَّاسِ سارَ عليه الإنسانُ بفطْرَتِهِ منذُ أبعدِ العصور.

ولم يشُذّ الإسلامُ عن ذلك، بل جرى على نفسِ الأساسِ الذي أخَذَ به الإنسانُ في كلِّ مناحي حياتِهِ، فوضَعَ مبدأي الاجتهاد والتَّقليد. فالاجتهادُ: هو التَّخصُّصُ في علومِ الشَّريعةِ، والتَّقليدُ: هو الاعتمادُ على المختصِّين. فكلُّ مكلَّفٍ (بالغٍ عاقل) يريدُ التَّعرُّفَ على الأحكامِ الشَّرْعيَّةِ يعتمدُ أوَّلاً على بداهتِهِ الدِّينيَّةِ العامَّة، وما لا يَعرِفُ بالبداهةِ من أحكامِ الدِّينِ يعتمدُ في معرفتِهِ على المجتهدِ المُتخصِّص.

ولم يُكلِّفُ اللهُ الإنسانَ كلَّ إنسانٍ بالاجتهادِ ومعاناةِ البحثِ والجهْدِ العلْمي من أجلِ التعرُّف على الحُكْمِ الشَّرْعي، توفيراً للوقتِ وتوزيعاً للجهْدِ الإنساني على كلِّ حقولِ الحياة....

وفي الوقتِ الذي أوجبَتْ فيه الشَّريعةُ التَّقليدَ بالمعنى المُتقدِّم الذي ذكرناهُ في فُرُوعِ الدِّينِ من الحلالِ والحرام، حرَّمَتْهُ في أصولِ الدِّين، فلمْ تسْمَحُ للمُكلَّفِ بأنْ يُقلِّدَ في العقائدِ الدِّينيَّةِ الأساسيَّةِ، وذلك لأنَّ المطلوبَ شرْعاً في أصولِ الدِّين أنْ يُحصِّلَ العلْمَ واليقينَ للمُكلَّفِ بربِّهِ ونبيِّهِ ومعادِهِ ودينِهِ وإمامِهِ، ودعَتْ الشَّريعةُ كلَّ إنسانٍ إلى أنْ يتحمَّلَ بنفسِهِ مسئوليَّةَ عقائدِهِ الدِّينيَّةِ الأساسيَّة، بدلاً عن أنْ يُقلِّدَ فيها ويُحمِّلَ غيرَهُ مسئوليَّتَها.

وقد عنَّفَ القرآنُ الكريمُ بأشكالٍ مختلفةٍ أولئكَ الذي يبْنونَ عقائِدَهُمُ الدِّينيَّة ومواقِفَهُم الأساسيَّة من الدِّينِ – قبولاً ورفضاً – على التَّقليدِ

للآخرين بدافعِ الحرْصِ على طريقةِ الآباء – مثلاً – والتعصُّب لهم، أو بدافعِ الكسَلِ عن البحثِ والهُروبِ من تحمُّلِ المسئوليَّة.

ومن الواضحِ أنَّ العقائدَ الأساسيَّةَ في الدِّين – أصول الدِّين – لمَّا كانتْ محدودةً عدداً من ناحيةٍ، ومنْسجمةً مع فطْرةِ الناسِ عموماً من ناحيةٍ أخرى على نحوٍ تكونُ الرُّؤيةُ المباشرةُ الواضحةُ ميسورةً فيها غالباً، وذات أهميَّةٍ قصوى في حياةِ الإنسانِ من ناحيةٍ ثالثة، كان تكليفُ الشَّريعةِ لكلِّ إنسانٍ بأنْ يبذُلَ جُهْداً مباشراً في البحثِ عنها واكتشافِ حقائِقِها أمراً طبيعيَّاً، ولا يواجهُ غالباً صعوبةً كبيرة، ولا يؤثِّرُ على المجرى العملي لحياةِ الإنسان. ولئن واجَهَ أحياناً صعوباتٍ كذلك، فالإنسانُ جديرٌ ببذْلِ الجهْدِ لتذليلِ تلك الصُّعوبات؛ لأنَّ عقيدةَ الإنسانِ هي أهمُّ ما فيه.

ومع ذلك، فقد لاحظَتْ الشَّريعةُ أيضاً اختلاف مستوياتِ النَّاس الفكريَّةِ والثَّقافيَّةِ، فلمْ تُكلِّفْ كلَّ إنسانٍ بالنَّظَرِ والبحْثِ في أصولِ الدِّين إلا بالقدَرِ الذي يتناسبُ مع مستواهُ، ويصِلُ به إلى قناعةٍ كاملةٍ بالحقيقةِ، تطمئنُّ بها نفسُهُ، ويعمُرُ بها قلْبُهُ، ويتحمَّلُ مسئوليَّتَها المباشرة أمامَ ربِّهِ"[1].

---

(١) محمَّد باقر الصدر، الفتاوى الواضحة، المقدِّمة.

وقد تناولتُ مسْبقاً هذا الموضوع، وتحدَّثْتُ عن الآليَّات الصَّحيحةِ التي من خلالِها نتمكَّنُ من الظَّفَرِ باعتقاداتٍ موضوعيَّةٍ، وخاصَّةً في مجالِ الأخبارِ المنقولة[١].

وما طرَحَهُ كليفورد في مقالتِهِ يتلخَّصُ في محورينِ أساسيَّين:

المحورُ الأوَّل: خطورةُ الاعتقادِ بأيِّ قضيَّةٍ بنحوٍ لا يرْتكزُ على أدلَّةٍ كافية.

المحورُ الثَّاني: أنَّ من أمثلةِ الاعتقاد بقضيَّةٍ دون أدلَّة كافية، الاعتقادُ بنُبوَّةِ محمَّد ﷺ!

من الواضح أنَّ كليفورد عندما جاءَ بمثالِ الاعتقاد بنبوَّةِ محمَّد ﷺ، كان يستهدِفُ تفادي الحرَجَ في مجتمعِهِ المسيحي، وإلا فإنَّ هدَفَهُ الأساس كان - كما يبدو - هو التَّشكيكُ في سلامةِ الاعتقاداتِ المسيحيَّة (وربَّما الدِّينيَّة عموماً).

لكنِّي سأختلفُ معه في المحورينِ معاً.

في المحورِ الأوَّل: أتَّفقُ معه من حيثُ المبدأ (لأنَّهُ جاءَ بأفكارٍ رائعةٍ وبديعة)، لكن أختلفُ معه في التشدُّدِ والغُلُوِّ الذي انساقَ إليه، كما سأُبيِّنُ بالتَّفصيل، وكما سيوضِّحُ لنا وليم جيمس في موقفِهِ النَّقْدي من كليفورد (أنظُر الملْحق).

---

(١) في دورة النبوة ٣ - منطق الخبر.

وفي المحورِ الثَّاني: سأُبيِّنُ أنَّ الدَّعوى القائلةَ أنَّ الاعتقادَ بنُبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ لا يرْتكزُ على أدلَّةٍ كافيةٍ، هي بحدِّ ذاتِها لا ترْتكزُ على أدلَّةٍ كافية. فمعلوماتُهُ في هذا المجالِ كانت ناقصةً، وقد ابتعَدَ (بتقديري) عن الحقِّ بسُرْعةِ البرْقِ بعدما اقترَبَ منه اقتراباً شديداً وكادَ أنْ يصِلَ إليه.

لنْ أُفصِّلَ في هذه المقدِّمةِ أكثرَ من ذلك، وسأبدأُ مباشرةً باستعراضِ المقالة، التي التزمْتُ في متْنِها بالتَّرْجمةِ شِبْه الحرْفيَّة، ثمَّ قمْتُ بشرْحِ تلك الأفكار بعباراتٍ أوضح في الهامش، ثمَّ علَّقْتُ عليها بنحوٍ نقْدي، وكنْتُ أبدأُ تعليقي النَّقْدي بكلمةِ "أقول".

لذا آملُ من القارئِ أنْ لا يخلِطَ بين شرْحي في الهامش لكلماتِ كليفورد، وتعليقي النَّقْدي على أفكارِهِ.

مرتضى فرج

أخلاقيَّات الاعتقاد بقلم وِلْيَم كليفورد[1]

شرْح ونقْد: مرتضى فرج

نُشِرَت بالأصلِ في الاستعراض المعاصر، ١٨٧٧، أُعيدَ طبعُها في المحاضراتِ والمقالات (١٨٧٩) .

---

(١) (١٨٤٥- ١٨٧٩) وِلْيَم كليفورد عالِمٌ رياضيَّات وفيلسوفٌ إنجليزيٌّ.
في ضوءِ عمل هيرمان جراسمان، قدَّمَ ما باتَ يُسمَّى الآن بـ "الجبْر الهندسي". وقد سُمِّيَتْ حالةٌ خاصَّةٌ من جبْرِ كليفورد باسْمِهِ تكريماً له. إنَّ عمليَّات الجبْر الهندسي لها تأثيرُ الانعكاس، الدَّوران، ترجمة، ورسْم خرائط للأجسامِ الهندسيَّة التي يتمُّ تصميمُها على مواقِعَ جديدة.
جسورُ كليفورد بشكلٍ عامّ، والجبْر الهندسي بنحوٍ خاص، كانت ذات أهميَّة كبيرة للفيزياءِ الرياضيَّة، الهندسة، والحوسبة.
وقد كان كليفورد أوَّل من أشارَ إلى أنَّ الجاذبيَّةَ قد تكونُ مظهراً من مظاهرِ الهندسةِ الكامنة.
في كتاباتِهِ الفلْسفيَّة، صاغَ تعبير "قوى (أو أنشطة) الذِّهن"mind-stuff".
وفي مقالِهِ أخلاقيَّات الاعتقاد The Ethics of Belief (١٨٧٧) قال: "إنَّه من الخطأِ، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وبالنِّسبةِ لكلِّ فرْدٍ، أنْ يعتقدَ بأيِّ شيءٍ على أساس

أدلَّة غير كافية"، وقد اعتُبِرتْ هذه الجملة لاحقاً هي بيت القصيد في مقالتِهِ بأسْرِها.

ثمَّ جاء الفيلسوفُ الأمريكي وِلْيَم جيمس (١٨٤٢- ١٩١٠) ووجَّه انتقادات لكلام كليفورد في إرادةِ الاعتقاد. راجع كتاب: وليم جيمس، العقل والدِّين، ترجمة د. محمود حُبَّ الله، دار الحداثة للطِّباعة والنشر، بيروت، ص١٢-١٤.

أولا: واجبُ التَّحقُّق (مسئوليَّةُ التثبُّت)

مالِكُ سفينةٍ كان على وشكِ أنْ يُرْسِلَ إلى البحرِ سفينةً مُهاجرةً. كان يعرِفُ أنَّها قديمة، ولم يتمُّ بناؤها بشكلٍ جيِّدٍ من البداية؛ وأنَّها قد أبْحَرَتْ في ألوانٍ من البِحارِ والطُّقوس، وكانت في أحيانٍ كثيرةٍ تحتاجُ الى إصلاحاتٍ (صيانة). الشُّكوكُ التي راوَدَتْهُ كانت تشيرُ له بأنَّها من الممكن أنْ لا تكونَ صالحةً للإبحار. هذه الشُّكوكُ كانت تفترسُ ذهنَهُ، وتسْلُبُهُ السَّعادةَ؛ فكَّرَ بأنَّه ربَّما يتعيَّنُ عليه أنْ يُخضِعَها للتَّجديدِ والتَّرميم، حتى لو كان هذا الأمرُ سوف يُكلِّفهُ الكثير[1]. مع ذلك، قبْلَ أنْ تُبْحِرَ السَّفينةُ، استطاعَ أنْ يتغلَّبَ على هذه الافكارِ الكئيبة. قالَ لنفْسِهِ بأنَّها قد ذهبَتْ سالمةً خلالَ العديدِ من الرِّحلاتِ سابقاً، وتجاوزتْ الكثيرَ من العواصفِ، لذلك من المعيبِ أنْ أفترِضَ بأنَّها لنْ ترْجِعَ سالمةً من هذه الرِّحلةِ أيضاً. لقد كان يضَع ثقتَهُ في العنايةِ الإلهيَّةِ، التي من الصَّعْبِ أنْ تعجَزَ عن حمايةِ كلَّ هذه

---

(١) إذن ترميمُ السَّفينةِ لم يكنْ من مصلحتِه. لذا مصلحتُهُ أثَّرَتْ بنحوٍ خفيٍّ على قرارِهِ بعدمِ إجراءِ صيانة لها.

العائلات التَّعيسة التي تركَتْ أوطانَها بحثاً عن فُرَصٍ أفضَلَ في مكانٍ آخرَ[١]. كان يطرُدُ من ذهنِهِ كلَّ الشُّكوك غير المرْغوبة حول صِدْقِ البنَّائين والمقاولين. على هذا النَّحو، اكتسَبَ قناعةً صادقةً ومريحةً بأنَّ سفينتَهُ آمنةٌ تماماً وقادرةٌ على الابحار؛ شاهَدَ مغادرَتَها بقلْبٍ مُرْتاحٍ وتفاؤلاتٍ خيِّرةٍ بصدَدِ نجاحِ أولئكَ المغتربينَ في منزلِهِم الجديد الغريب؛ واستلَمَ مالَ التَّأمين الخاصّ به دون أيّ معضلات في اللَّحظةِ التي كانت هي تغوصُ إلى القاعِ في منتصفِ المحيط[٢].

ماذا يُمكِنُنا أنْ نقولَ عنه؟ إنَّهُ مُذْنِبٌ بالتَّأكيدِ في موتِ هؤلاءِ الرِّجال. من المُسلَّمِ بهِ أنَّه كان يعتقدُ بصدْقٍ بسلامةِ سفينتِهِ؛ ولكن صِدْقُ قناعتِهِ لا يمكنُ أنْ يُساعِدَهُ بطريقةٍ حكيمةٍ؛ لأنَّه لم يكن من حقِّهِ أنْ يعتقِدَ بمثْلِ هذا الدَّليلِ كأساس. لم يكتسب

---

(١) وهكذا تكاتفتْ أمانيهِ الغَيْبيَّة الحالمة مع مصلحتِهِ في عدمِ إجراءِ صيانة للسَّفينة.

(٢) وهكذا فإنَّ إهمالَهُ وعدمَ تحمُّلِهِ للمسئوليَّة، وركونَهُ إلى مصلحتِهِ والأماني الفارغة، وعدمَ اتِّخاذِهِ الاحتياطات اللازمة بصيانةِ السَّفينة، أدَّت إلى عواقبَ كارثيَّة.

اعتقادَهُ بطريقةٍ أمينةٍ من خلالِ تحقيقٍ مُطوَّلٍ، وإنَّما من خلالِ خنْقِ شكوكِهِ[١]. وعلى الرَّغمِ من أنَّه قد يشْعُرُ في النِّهايةِ بالوثوقِ بأنَّه لم يكن بمقدورِهِ التَّفكير بطريقةٍ مُغايرة، إلا أنَّه بنحوٍ عالِمٍ ومُريدٍ كان يبذُلُ قصارى جُهدَهُ لكي يبْقى على هذا النَّمطِ من التَّفكير، لذا يجبُ أنْ يتحمَّلَ مسؤوليَّةَ ذلك[٢].

دعونا نُغيِّرُ المشْهَدَ قليلاً، ونفترِضُ أنَّ السَّفينةَ لم تكن غير صالحة؛ وأنَّها تمكَّنَتْ من إنهاءِ رحلتَها بأمانٍ، وأنهَتْ بعدَها غيرَها

---

(١) بعبارةٍ أخرى، صِدْقُ اعتقادِهِ بأنَّ السَّفينةَ ستكونُ على ما يُرام، وأنَّها ستصِلُ إلى مقصدِها آمنةً، لا يُبرِّرُ هذا الاعتقاد. فالاعتقادُ لا بدَّ أنْ يرتكزَ على أُسسٍ موضوعيَّة، والقرارُ لا بدَّ أنْ يأخُذَ بعينِ الاعتبار خطورةَ المحتمل حتى لو كان احتمالُ غرَقِ السَّفينة ضعيفاً في نظرِهِ.

(٢) فبعدما يقع الحدَث، وتغرق السَّفينة، قد يوهِمُ مالِكُ السَّفينةِ نفْسَهُ - حتى يتفادى تأنيبَ الضَّمير - بأنَّه لم يكن بمقدورِهِ أنْ يُفكِّرَ بطريقةٍ أخرى. لكن الواقع أنَّه كان على عِلْمٍ بأنَّ السَّماحَ للسَّفينةِ بالإبحارِ على حالَتِها المُهَلْهلة هذه، مجازفةٌ بأرواحِ النَّاس، وهو أرادَ تجاهُلَ الشُّكوك والهواجِس، ليرْكُنَ إلى مصلحتِهِ وأمانيهِ الورْديَّة بأنَّ السَّفينةَ ستصِلُ إلى مقصدِها بأمان. لذا هو مسئولٌ عمَّا جرى.

من الرِّحلات. فهل سيُقلِّلُ ذلك من ذنْبِ مالكِها؟ البتَّة. حينما يتمُّ القيامُ بفعْلٍ معيَّنٍ، فهو إمَّا صوابٌ أو خطأٌ الى الابد؛ لا يمكنُ لفشَلٍ طارئٍ أنْ يُغيِّرَ ثمارَهُ الطيِّبة أو الخبيثة[١]. هذا الرَّجُلُ لم يكن بريئاً، وإنَّما غايةُ الأمرِ أنَّه لم يتمّ كشْفُهُ[٢]. مسألةُ الصَّوابِ أو الخطأِ

---

(١) بعبارةٍ أخرى، الحُكْمُ بأنَّ مالِكَ السَّفينةِ مُذْنِبٌ ثابتٌ حتى على تقديرِ أنَّ السَّفينةَ وصلَتْ إلى مقصدِها بأمان؛ فوصولُها بأمانٍ لا يُغيِّرُ من حقيقةِ أنَّه كان مُذْنِباً بالسَّماحِ لها بالإبحار. ما يُحدِّدُ صوابَ الاعتقاد أو القرار ليس نتيجةَ الفعْل، بل الآليَّة السَّليمة والمعطيات الموضوعيَّة كأساسٍ للاعتقاد، وأخذ خطورةَ المحتمل بعينِ الاعتبار كأساسٍ لاتِّخاذِ القرار. فمثلاً لو أجرى صيانةً كاملةً للسَّفينةِ، ومع ذلك غرقَتْ لسببٍ طارئٍ مجهول، فهو غيرُ مسئول؛ لأنَّه أخذَ خطورةَ المحتمل بعينِ الاعتبار ومع ذلك كانت النَّتيجةُ كارثيَّة، فقرارُهُ بصيانةِ السَّفينةِ يبْقى صائباً. ولو تجاهلَ صيانةَ السَّفينة، ومع ذلك وصلتْ إلى مقصدِها بأمان، فهو مسئولٌ، لأنَّه تجاهلَ أخذ خطورة المحتمل بعينِ الاعتبار مع أنَّ النَّتيجةَ كانت طيِّبة، فقرارُهُ بترْكِ صيانة السَّفينة يبْقى خاطئاً.

(٢) إذن وصولُ السَّفينةِ إلى مقصدِها بأمان لا يُخْلي مسئوليَّةَ المالِك عن السَّماحِ لها بالإبحار، فهو مُذْنِبٌ طالما لم تكنْ السَّفينةُ مؤهَّلةً حسب رأي المُتخصِّصين في الصِّيانة.

تتعلَّقُ بأصْلِ (جذور) اعتقادِهِ، وليس في موضوعِهِ؛ ليس كيفَ سارتْ الأمورُ، بل كيفَ ظفَرَ به؛ ليس ما اذا تبيَّنَ أنَّه صادقٌ أو كاذب، بل ما إذا كان من حقِّهِ أنْ يعتقِدَ بمثْلِ هذا الدَّليلِ كأساس[١].

---

(١) إذن سلامةُ الآليَّة - التي من خلالِها يظْفرُ المرْءُ باعتقادِهِ - هو الذي يُحدِّدُ أنَّ الاعتقادَ كان مُبرَّراً أو لا؛ فإنْ كان الاعتقادُ يرتكزُ على آليَّةٍ سليمةٍ وأُدلَّةٍ موضوعيَّة، فهو مُبرَّرٌ وإنْ لم يُطابِق الواقع. وإنْ كان الاعتقادُ لا يرتكزُ على آليَّةٍ سليمةٍ وأُدلَّةٍ موضوعيَّة، فهو غيرُ مُبرَّر وإنْ طابقَ الواقع. وإنْ كان القرارُ يوازِنُ بنحوٍ سليمٍ بين المصالحِ والمفاسدِ المحتملة بنحوٍ موضوعي، فهو مُبرَّرٌ وإنْ كانت العواقبُ كارثيَّة. وإنْ كان القرارُ لا يوازِنُ بنحوٍ سليمٍ بين المصالحِ والمفاسدِ المحتملة بنحوٍ موضوعي، فهو غيرُ مُبرَّر، وإنْ كانت العواقبُ طيِّبة.

أقول: لديَّ هنا نقطتانِ أساسيَّتان:

النقطة الأولى: نتَّفق مع كليفورد بهذا الشَّان، لكن لاحظ أنَّهُ يتحدَّث هنا عن حقِّ المرْءِ الأخلاقي في الاعتقادِ بأمرٍ لا أساسَ موضوعي له، ولا يتحدَّث عن حقِّهِ القانوني، بدليل أنَّ عنوانَ مقالتِهِ "أخلاقيَّاتُ الاعتقاد".

ولا بدَّ أنْ نُميِّزَ بين الحقِّ الأخلاقي والحقِّ القانوني في الاعتقاد.

لقد جرَتْ العادةُ على القولِ بأنَّ الإنسانَ حرٌّ في اعتقادِهِ، ولا يحِقُّ لأحدٍ إهانةَ عقائدِ الآخرين أو ملاحقتَهُم قانونيَّاً ومعاقبَتَهُم بسببِ عقائدِهِم.

لكن يجبُ أوَّلاً أنْ نسْأَلَ: هل الاعتقادُ من حيثُ كونِهِ اعتقاداً وأمراً داخليّاً قلْبيّاً، يرْتبطُ بـ "الحقوقِ" بالمعنى القانوني للكلمة؟ أم لا؟

فأحياناً نريدُ إظهارَ الاعتقاد أو نُرتِّبُ عليه أثراً عمليّاً؛ فلا يُعتبَرُ ذلك حرِّيةَ اعتقاد، بل هي حرِّيةُ تعبير أو حرِّيةُ عمل. فالاعتقادُ يعني الشَّيءَ المتعلِّقَ بقلْبِ وذهنِ الإنسان. وسؤالُنا في هذا: هل أنَّ مثلَ هذا الشَّيء يرْتبطُ أصلاً بالحقوقِ أم لا؟

الجوابُ بنظَرِنا بالسَّلْب، فموضوعُ الحقوق (بالمعنى القانوني) هو "السُّلُوكُ الاجتماعي"، والقوانينُ الحقوقيَّةُ توضَعُ لتنظيمِ العلاقاتِ الاجتماعيَّة. فالأمورُ التي لها صبْغةٌ فرْديَّةٌ وشخصيَّةٌ محْضةٌ وتقعُ ضمْنَ المجالِ الخاصِّ للأفرادِ، ليس لها ارْتباطٌ بالحقوق، وإنَّما تقعُ ضمْنَ مجالِ الأخلاق، ومن الممكنِ أنْ تتعلَّقُ بها الأوامرُ والنَّواهي الأخلاقيَّة القِيميَّة، لكن القانونُ الحقوقي لا يوضَعُ في مجالِها.

فمن الممكنِ أنْ يكونَ العملُ قبيحاً جدّاً من النَّاحيةِ الأخلاقيَّة، لكن نظراً لكونِهِ أمراً شخصيّاً فإنَّهُم لا يذْكرونَهُ في القانون. والاعتقادُ كذلكَ لا يقعُ ضمْنَ مجالِ الحقوق، لأنَّه أمرٌ شخصيٌّ وخاصّ.

فالاعتقادُ إمَّا أنْ يكونَ حسَناً أو سيِّئاً، وإمَّا صحيحاً أو خاطئاً، لكنَّه لا يرْتبطُ بالحقوق. فحُسْنُ وقُبْحُ أو صحَّةُ وخطأُ الاعتقاد، يجبُ أنْ يُبحَثَ ويُناقَشَ في العِلْمِ المُخصَّصِ لذلك. فإذا اعتقدَ إنسانٌ بأمرٍ خُرافيٍّ ومُخالفٍ للعقْل، فإنَّ اعتقادَهُ لا يرْتبطُ بالحقوقِ مع كونِهِ أمراً ليس عقلانيّاً.

إذن، فمن الأساس إنَّ طرْحَ بحث: هل الإنسانُ (من النَّاحيةِ القانونيَّة) حرٌّ في الاعتقاد هو أمرٌ خاطئٌ ومغالطة؛ لأنَّ مجالَ الحقوقِ والقوانين الحقوقيَّة هو السُّلُوك والعلاقات الاجتماعيَّة، في حين أنَّ الاعتقادَ أمرٌ ذهنيٌّ وقلْبيٌّ، وداخليٌّ وشخْصيّ، وعلى هذا فإنَّه لا يوجدُ للاعتقادِ قانونٌ ضمْنَ قوانين الحقوق في الإسلامِ لا نفياً ولا إثباتاً.

لذا جاءَ في القرآن: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ البقرة: ٢٥٦، فهذه الآيةُ تُبيِّنُ أنَّ الدِّينَ لا إجبارَ أو إكراهَ فيه لكونِهِ أمراً داخليّاً قلْبيّاً، فلا يمكنُ إزالةُ الاعتقادِ بالإكراه أو إيجادُ اعتقادٍ أو تغييرُهُ بالقوَّةِ. فالاعتقادُ لا يقبَلُ التَّقنين حتى يمكن إيجادُهُ أو إزالتُهُ بوضْعِ قانون.

وعلى هذا، فإنَّ السُّؤالَ: هل أنَّ حرِّيةَ الاعتقاد (بالمعنى القانوني لا الأخلاقي) أمرٌ مقبولٌ بنظَرِ الإسلام أم لا؟ هو سؤالٌ ليس في محلِّهِ؛ لأنَّه لا يمكنُ للإسلامِ – ولا لأيِّ نظامٍ حقوقيٍّ آخرَ – أنْ يضَعَ قانوناً للاعتقادِ سلْباً أم إيجاباً. نعم، إذا تمَّ إظهارُ الاعتقادِ والتَّبليغُ والتَّرويجُ له، والسَّعيُ لترْغيبِ وجذْبِ الآخرينَ إليه، فعندئذٍ يكونُ قد دخَلَ ضمْنَ مجالِ السُّلُوكِ الاجتماعي، ويمكنُ وضْعُ قانون حقوقي بشأنِهِ.

فلا أحدَ له علاقةٌ بالشَّخصِ الذي يؤمنُ باعتقادٍ ما في قلْبِهِ (كاعتقادِهِ بإخباراتِ المُنجِّمين والكُهَّان)، طالما لم يعمَل على ترويجِها والتَّبليغ لها. وبالطَّبْعِ من الممكنِ أنْ تكون لهذه الاعتقادات آثار أُخرويَّة سيِّئة بالنِّسبةِ إليه، لكن لا تقومُ الدَّولةُ والحكومةُ بملاحقتِهِ قانونيّاً، ولا تسأله: لماذا تعتقدُ

بهذا الاعتقادِ الباطل. (للتَّفصيل راجع: محمد تقي مصباح، النظريَّة الحقوقيَّة في الإسلام، ج١، ص٣٩٣-٣٩٦).

الخلاصة: لا بدَّ أنْ نُميِّزَ بين الحقِّ الأخلاقي، والحقِّ القانوني في الاعتقادِ بأمرٍ لا أساسَ موضوعي له. من النَّاحيةِ الأخلاقيَّةِ، القرآنُ ينْهى عن الاعتقادِ بأيِّ أمرٍ دون أساس موضوعي. لكن من النَّاحيةِ القانونيَّة، الإسلامُ لا يُرتِّبُ أثراً على هذا الاعتقادِ ما لم يتجسَّد بالخارجِ على هيئةِ سُلُوكٍ اجتماعيّ.

النُّقطة الثَّانية: هناك مشروعٌ حديثٌ ومهمٌّ في نظريَّةِ المعرفة، يبحثُ عن الشُّروطِ اللازمةِ والكافيةِ للمعرفة، مع استهدافِ تقديمِ تحليلٍ لمفهومِ المعرفة. الفكرةُ المهمَّةُ، ومن نواحٍ متعدِّدةٍ، هي أنَّ المعرفةَ نوعٌ من الاعتقادِ الصَّادقِ المُبرَّر justified true belief. التَّعريفُ الثُّلاثي للمعرفةِ (يُقالُ له في بعضِ الأحيان اختصاراً jtb) يقولُ أنَّ الموضوعَ المعرفي S يعْرِفَ p إذا وفقط إذا:

١. كانت p صادقة.

٢. كان S يعتقدُ بـ p.

٣. كان لدى S ما يُبرِّرُ اعتقادَهُ بـ p.

في بحثٍ مهمٍّ نُشِرَ منذُ أكثر من ٥٠ عاماً (١٩٦٣)، مكوَّنٌ من ثلاثِ صفحاتٍ فقط، بعنوان "الاعتقادُ الصَّادقُ المُبرَّر هل هو معرفة؟"، بيَّنَ الفيلسوف الأمريكي إدْموند جيتْيَرْ Edmund L. Gettier (١٩٢٧ - ٢٠٢١) فيه أنَّ الشُّروطَ الثَّلاثةَ هذه مجتمعةً ليست كافية للمعرفة: فالمرْءُ قد يُلبِّي الشُّروطَ الثَّلاثةَ جميعَها، ومع ذلك لا يُقالُ أنَّه يعْرِفُ p.

على سبيلِ المثال، قد أنظُرُ إلى ساعتي في الصَّباح، ويتشكَّل لديَّ اعتقادٌ صادقٌ مطابقٌ للواقعِ بأنَّ الوقتَ هو ٩:٣٠، لأنَّ هذا هو ما يبدو أنَّ السَّاعةَ تُشيرُ إليه. ومع افتراضِ أنَّني قد اعتمدْتُ بنجاحٍ على ساعتي في العديدِ من المناسباتِ السَّابقة، ووجدْتُها مصْدراً ممتازاً للمعلوماتِ حولَ الوقت، فإنَّ اعتقادي بصدْقِ المعلومة مُبرَّر. ومع ذلك، ودون علْمٍ منِّي، ونتيجةً لخلَلٍ ميكانيكيٍّ نادر، فإنَّ ساعتي توقَّفَتْ عن العملِ في السَّاعةِ (٩:٣٠) من مساءِ اللَّيلةِ السَّابقة، ومن قبيلِ المصادفة تُظهِرُ الآنَ الوقتَ الصَّحيح. فعلى الرَّغمِ من أنَّ اعتقادي صادقٌ (مطابق للواقع) ومُبرَّر (يرتكز على أسسٍ موضوعيَّة)، إلا أنَّه لا يُشكِّلُ معرفةً.

دفعَتْ مثلُ هذه القضايا جيتْيَرْ إلى البحثِ عن ما يُسْمَّى "الشَّرْطِ الرَّابعِ النَّاقص": وهو شرْطٌ، إذا أُضيفَ إلى الشُّروطِ الثلاثة، فإنَّه سيمنَعُ الاعتقادات "جيتْيَرِيَّة". إلا أنَّ الفشلَ الشَّاملَ في تحديدِ تعريفٍ جامعٍ مانعٍ أدَّى إلى حالةٍ من الشُّعورِ المتزايدِ بعدمِ الرِّضا عن مشروعِ التَّحليلِ المفاهيمي المُطبَّق على مفهومِ المعرفة. وقد أفسَحَ ذلك المجالَ لظُهورِ عددٍ من المقارباتِ البديلة.

وفي تقديري، أنَّ ما طرَحَهُ العلَّامة الطَّباطبائي في نظريَّتِهِ في الاعتبارات (في كتابِهِ أصول الفلسفة والمنهج الواقعي)، وكيف أنَّ الذِّهنَ البشري "يعتبرُ" الاعتقادات التي ترتكزُ على أُسُسٍ موضوعيَّة "معرفة"، يوفِّرُ الشَّرْطَ الرَّابعَ الذي يبْحثُ عنه جيتْيَرْ.

كانت هناك جزيرةٌ فيها بعض السُّكَّان يُجاهرونَ بدينٍ لا يُدرِّسُ عقيدةَ الخطيئة الاصليَّة ولا العقابَ الخالِد. الشُّكوكُ انتابَتْ النَّاسَ بأنَّ أساتذةَ هذا الدِّين قد استغلُّوا وسائلَ غير منْصِفة ليتمكَّنوا من نقْلِ عقيدتِهِم للأطفال. تمَّ اتهامُ الأساتذةِ بأنَّهُم قد تعمَّدوا إساءةَ تفسير قوانين بلادِهِم بطريقةٍ ما ليُبْعِدُوا الأطفالَ عن رعايةِ أولياءِ أمورِهِم الطَّبيعيِّين (البيولوجيِّين) والقانونيِّين؛ بل وحتى خطْفهم وتخبئتهم عن أصدقائِهِم وأقاربِهِم. عددٌ من الرِّجالِ شكَّلوا من أنفُسِهِم مجموعةً تستهدفُ تحريضَ عامَّة الشَّعْب حولَ هذه المسألة. فنشروا اتِّهامات خطيرة ضدَّ مواطنين أفراد من أعلى المناصب والشَّخصيَّات، وقاموا بكلِّ ما بوسعِهِم لتجريحِ هؤلاء المواطنين في ممارسةِ مهَنِهِم. وتسبَّبوا في ضجَّةٍ كبيرةٍ، إلى درجةِ أنَّ لجنةً قد شُكِّلَتْ من أجلِ تقصِّي الحقائق؛ لكن بعد أنْ تحقَّقت اللَّجنة بعنايةٍ من الأدلَّةِ التي تمكَّنوا من الوصولِ إليها، تبيَّنَ أنَّ المتَّهمينَ كانوا أبرياء. فالأمرُ لم يقتصر على توجيهِ تُهَمٍ استناداً إلى أدلَّةٍ غير كافية، بل كان الظَّفرُ بأدلَّةِ براءَتِهِم سهلاً جدَّاً، فيما لو حاولوا إجراءَ تحقيقٍ منْصف. بعد انكشافِ الأمر، أصبحَ سُكَّانُ تلك البلدة ينْظُرونَ إلى أعضاءِ المجموعةِ لا فقط كأشخاصٍ لا يُعتدُّ بحُكمِهِم، بل

كأشخاصٍ لا يستحِقُّوا أنْ يُعدُّوا ضمْنَ الرِّجال الشُّرفاء. لأنَّه على الرَّغمِ من أنَّهُم اعتقدوا بالاتِّهاماتِ التي أدانوها بصدْقٍ ووعي تامّ، لكن لم يكن من حقِّهِم أنْ يعتقدوا بأدلَّةٍ من هذا القبيل كأساس (لتوجيهِ تلك التُّهم). في قناعاتِهِم الصَّادقة، بدلاً من أنْ تكون (تلك القناعات) أمينةً ومكتسبةً بواسطةِ تحقيقٍ متأنٍّ، فقد استُلِبُوا من خلالِ الاستماع الى صوتِ التَّحامُلِ والعاطفة[١].

(١) المقصودُ أنَّا لو افترضْنا أنَّ ثمَّةَ أقليَّة غير مسيحيَّة تعيشُ في بيئةٍ مسيحيَّة (تؤمنُ بعقيدةِ الخطيئة الأصليَّة). الأغلبيَّةُ المسيحيَّةُ تنظُرُ لأساتذةِ هذه الأقليَّة بارْتياب، وبأنَّهُم ربَّما يُسيئونَ الاستفادةَ من ثغراتٍ قانونيَّة معيَّنة في بلدِهِم لتزريقِ اعتقاداتِهِم الباطلة لأطفالِ الأغلبيَّة.
ولمعالجة هذه الشُّكوك، شكَّلَ بعضُ رجالِ الأغلبيَّة من أنفُسِهِم مجموعةً تتصدَّى لهذهِ المشكلة. فبدأ هؤلاء الرِّجال بتهييجِ الأغلبيَّة ضدَّ الأقليَّة، وأثاروا ضدَّهُم إتِّهامات خطيرة، فثارت ضجَّةٌ كبيرة، اتُّخِذَ على إثْرِها قراراً بتشكيلِ لجنة تتقصَّى الحقائق. وسُرْعانَ ما توصَّلتْ هذه اللَّجنة إلى تفاهةِ هذه الاتِّهامات، وأنَّها لا ترْتكزُ على أيِّ أساسٍ متين. ثمَّ ماذا كانت النَّتيجةُ؟ النَّتيجةُ هي أنَّ سُكَّانَ البلدة لم يعودوا ينْظُرونَ باحترامٍ إلى تلك المجموعة المتصدِّية التي أثارتْ تلك الاتِّهامات الجائرة ضدَّ الأقليَّة. هل تستحقُّ هذه المجموعة من الرِّجال تلك النَّظْرة التي تنْطوي على احتقارٍ

دعونا نقلِبُ هذه الحالة أيضاً، ونفترضُ أنَّ الاشياءَ الأخرى ظلَّتْ على حالِها، وأنَّ تحقيقاً أكثرَ دقَّة أثبَتَ أنَّ المُتَّهمينَ كانوا مذْنبينَ حقَّاً. فهل سيُشكِّلُ هذا فرْقاً في ذنْبِ المُتهِّمين؟ لا بنحوٍ واضح؛ فإنَّ التَّساؤلَ هنا ليس بصددِ ما إذا كان اعتقادُهُم صادقاً أو كاذباً، وإنَّما يقع التَّساؤل حول التَّرحيبِ بتأسيسِهِ على مُبرِّراتٍ خاطئة. سيقولونَ بلا شكّ: "الآن ألا ترونَ في نهايةِ المطاف أنَّا كُنَّا على حقّ؟ في المرَّةِ القادمة لرُبَّما تُصدِّقونا"، وقد يُصدَّقونَ فعلاً، لكن حتْماً لنْ يكونوا رِجالاً شُرفاء. هم ليسوا طاهرين، هم فقط لم يتمّ كشْفُهُم[1].

واشمئزاز؟ الجواب: نعم، لأنَّهُم استسلموا لصوتِ التَّحامُلِ، وانساقوا لضغْطِ العاطفة، ولم ينطلقوا في موقِفِهِم السَّلْبي تجاهَ الأقليَّة من مُبرِّراتٍ موضوعيَّة.

(١) أي لنقلِب الوضْعَ ونفترضُ أنَّ الأساتذةَ الذين يؤمنونَ بدينٍ آخرَ كانوا مذْنبينَ حقَّاً، وكانوا فعلاً بصددِ الاستفادة من الثَّغراتِ القانونيَّةِ لتزريقِ اعتقاداتِهِم الباطلة لأطفالِ الأكثريَّة، وقد ظهرَ ذلكَ في ضوءِ تحقيقٍ دقيقٍ ومنْصف، فهل تُعفي هذه النَّتيجةُ مجموعةَ الرِّجالِ الذين تصدَّوا لهؤلاءِ الأقليَّة من المسئوليَّة، عندما وجَّهوا لهم إتِّهامات على أُسسٍ واهية؟

كلُّ واحدٍ منْهُم[١]، لو اختارَ أنْ يُحاسِبَ نفسَهُ بضميرٍ حيٍّ، لعرَفَ أنَّه قد اكتسبَ اعتقاداً وتعاهَدَهُ (غذَّاهُ)، بينما لم يكن من حقِّهِ الاعتقادُ على أساسِ دليلٍ كهذا؛ ومن ثمَّ هو يعرِفُ بأنَّه قد قامَ بشيءٍ خاطئ.

على الرَّغمِ من ذلكَ، قد يُقالُ بأنَّه في هاتينِ الحالتينِ المفترضتين، لا يُحكَمُ على الاعتقادِ بأنَّه خاطئٌ، وإنَّما يُحكَمُ على الفعْلِ المترتِّبِ عليه. فمالِكُ السَّفينةِ قد يقول: "أنا متيقنٌ تماماً من أنَّ سفينتي سليمة، لكن لا زلْتُ أعتقدُ أنَّ من واجبي أنْ أقومَ بفحْصِها، قبلَ الوثوق بسلامةِ أرواح من عليها من العديدِ من النَّاس". وقد يُقالُ للمُعترِض (على الأساتذة): "مهما كنْتَ مقتنعاً بعدالةِ سبَبِكَ وصدْقِ

الجواب: لا، فثُبوتُ التُّهمة على الأساتذةِ لا يعني أنَّ اعتقادات مجموعة الرِّجال المتصدِّية لهم كانت مُبرَّرة. فالاعتقادُ لا يكون مُبرَّراً إلا إذا كان مبْتنياً على أُسسٍ صلْبة، حتى لو كان الاعتقادُ مطابقاً للواقع بالصُّدْفة.

(١) أي من مجموعةِ الرِّجال المتصدِّية للأساتذة الذين يؤمنونَ بدينٍ آخر.

قناعاتِكَ، فعليكَ أنْ لا تقومَ بحملةٍ شرِسةٍ ضدَّ أيّ شخص حتى تقومَ بفحْصِ أدلَّةِ الطَّرفين بأقصى درجة من التَّأنِّي والعناية"[١].

في المقامِ الأوَّل، دعونا نعترف أنَّه كما يبدو، فإنَّ هذه الوجهةَ من النَّظرِ صائبةٌ وكذلك ضروريَّةٌ؛ هي صائبةٌ لأنَّه حتى لو كان اعتقادُ الفرْدِ راسخاً إلى درجةِ أنَّه لا يستطيعُ أنْ يُفكِّرَ بطريقةٍ أخرى، هو

---

(١) أي قد يُقالُ بأنَّه في الحالتينِ المفترضتين قد يُقالُ بأنَّ الخطأَ ليس في الاعتقاد، وإنَّما في الفعْلِ المترتِّب على الاعتقاد. على هذا الأساس، قد يُقولُ مالِكُ السفينة: "أنا متيقنٌ من سلامةِ السَّفينة، لكن اعتقادي بسلامتِها لا يعني عدم ضرورة فحْص السَّفينة للتَّأكُّدِ من سلامتِها"، والسِّرُّ في ذلكَ يعودُ إلى أنَّ القرارَ الصَّائبَ بضرورةِ فحْص السَّفينة لا يكمُنُ في احتمالِ غرَقِ السَّفينة، وإنَّما يكمُنُ في خطورةِ المحتمل (أي خطورة تعريض أرواح من عليها لخطَرِ الغرَق)، فخطورةُ المحتملِ هو ما يدفعُ مالِكَ السَّفينةِ لفحْصِها، حتى لو كان معتقداً بسلامتِها.

إذن الخطأُ في الحالتينِ المفترضتين ليس في الاعتقاد، وإنَّما في عدمِ الموازنة السَّليمة والمنْصفة بين المصالحِ والمفاسد قبلَ القيام بالفعل.

وقد يُقالُ للمُعترِضِ المُتهجِّم على الأساتذة: اهدَأ، تروَّ قليلاً، ولا تندفع في هجومِكَ على الأساتذة، بل حاول أنْ تفحَصَ بكُلِّ دقَّة أدلَّةَ الطَّرفين (الذي يدينُ الأساتذة أو الذي يُبرِّؤُهُم)، لتكتشِفَ أين يكمُنُ الخلَلُ بالضَّبط.

لا يزالُ لديهِ الخيارُ في الفعْلِ المترتِّبِ عليه، ولا يُمكِنُهُ الهروب من واجبِهِ في التَّحقُّقِ على أساسِ قوَّةِ قناعاتِهِ؛ وهو ضروريٌّ، لأنَّ أُولئكَ الذين لم يتمكَّنوا حتى الآن من السَّيطرةِ على مشاعِرِهِم وأفكارِهِم يجب أنْ تكونَ لديهِم قاعدةٌ واضحةٌ للتَّعامُلِ مع الأفعالِ الخارجيَّة[1].

لكن طالما اعترفنا بأنَّ هذا الأمرَ ضروريٌّ، يُصبِحُ إذاً من الواضحِ أنَّه غيرُ كافٍ، وأنَّ حُكْمَنا المُسْبق يتطلَّبُ استيفاءَ هذا الأمر. لأنَّه من غيرِ الممكنِ فصْلُ الاعتقادِ عن الفعْلِ المترتِّب عليه، وكأنَّنا ندينُ أحدَهُما دون إدانة الآخر. لا يوجدُ رجلٌ يحمِلُ اعتقاداً قويَّاً من ناحية، أو يتمنَّى أنْ يحمِلَ اعتقاداً من ناحية، بمقدورِهِ أنْ يُحقِّقَ

---

(١) أي دعونا نعترِفُ بأنَّ ما ذُكِر (من فصْلٍ بين الاعتقادِ والفعْل) صحيحٌ وضروريٌّ. صحيحٌ، لأنَّ الاعتقادَ وإنْ كان راسخاً من النَّاحيةِ النَّظريَّة (سواءٌ كان مطابقاً للواقعِ أو لم يكن)، لا يعفينا من ضرورةِ الموازنة المنْصفة في مقامِ الفعْل بين المصالح والمفاسد. وضروريٌّ، لأنَّ من لم يتمكَّن من فلْترةِ اعتقاداتِهِ، لكونِها متشابكة بنحوٍ معقَّد مع مشاعرِهِ وتحيُّزاتِهِ، فعليه على الأقلّ أنْ يُعوِّدَ نفسَهُ في مقامِ الفعْل على الموازنةِ المنصفة بين المصالح والمفاسد وفقَ قاعدة يُقيِّمُ على أساسِها أفعالَهُ الخارجيَّة.

فيه بإنصافٍ كاملٍ كما لو كانت لديهِ شكوكٌ فعليَّةٌ وعدم تحيُّز؛ ومن ثمَّ وجودُ اعتقادٍ لا يرْتكزُ على تحقيقٍ منْصفٍ لا يؤهِّلُ الرَّجُلَ لممارسةِ هذا الواجب الضَّروري.

لا يخلو الاعتقادُ بنحوٍ صادقٍ من بعضِ التَّأثير على أفعالِ من يحمِلُها. من يعتقدُ بحقّ أنَّ الامرَ الذي يدْفعهُ لفعلٍ ما هو بالأساس كان يحوم حولَهُ بشهوة، يكونُ قد ارْتكبَهُ قبلَ ذلك فعلاً في قلْبِهِ. إنْ لم يتمّ إدراك الاعتقاد فوراً من خلالِ أفعالٍ معلنة، فإنَّه يبقى مخزوناً للتَّوجيهِ والارشادِ في المستقبل. إنَّه يذْهبُ ليُصبِحَ جُزْءاً من ذاك المجموع الكُلِّي من الاعتقادات التي ترْبِطُ بين الإحساسِ والفعْلِ في كلِّ لحظةٍ من حياتِنا، والتي تبدو منظَّمةً جدَّاً ومترابطةً مع بعضِها البعض بإحكام بحيث لا يمكنُ فصْلُ أيّ جزْءٍ عن الباقي، بل إنَّ كلَّ إضافةٍ جديدةٍ تُعدِّلُ البِنْيةَ ككُلّ[1]. لا يوجدُ أيُّ

---

(١) لكن طالما اعترفنا بضرورةِ الفصْل بين الاعتقادِ والفعْل، فإنَّ هذا الفصْلَ يبْقى في الإطارِ النَّظري. لأنَّه من النَّاحيةِ العمليَّةِ ليس ثمَّةَ فصْل بين الاعتقادِ والفعْل. فمن يحمِلُ بالأساسِ اعتقاداً قويَّاً بأمرٍ ما (لنفترض مثلاً أنَّه يعتقدُ بصحَّةِ عقيدة دينيَّة معيَّنة)، ليس بمقدورِهِ عمليَّاً التَّحرُّرَ الكامل من تأثيرِ هذا الاعتقاد عند التَّحقُّقِ للتَّثبُّتِ من صحَّتِهِ. فحالُهُ يختلفُ عن حالِ

إعتقادٍ واقعيٍّ، مهما بدا تافهاً ومبعثراً، يمكنُ الاستهانةُ به أبداً؛ فهو يُهيِّؤنا لتلقِّي المزيد من ما يشْبهُهُ، ويؤكِّدُ ما كان يشْبهُهُ في السَّابق، ويُضْعِفُ غيرَهُ؛ لذا فهو يبْسُطُ بنحوٍ تدريجيٍّ حبْلاً خفيَّاً من الأفكارِ

من يحمِل شكوكاً حقيقية تجاه هذا الأمر، أو لا يحمِلُ أيَّ تحيُّزٍ مع أو ضدّ ذلك الأمر.

ومن يحمِلُ اعتقاداً معيَّناً، فلا بدَّ أنْ يُلْقيَ هذا الاعتقادُ بظلالِهِ بنحوٍ ما عليه في مقامِ العمل، ولا بدَّ أنْ ينعكِسَ تأثيرُهُ بدرجةٍ وأخرى عليه في مقامِ الفعل. ومن رأى نفْسَهُ مدْفوعاً لفعْلٍ ما، فلا بدَّ أنْ يسْبِقَ هذا الفعْلَ اعتقادٌ ما (مثلاً لو رأى نفْسَهُ مدفوعاً لمُفاتحةِ شابَّة بالزَّواجِ منه، فلا بدَّ أنْ يسْبِقَ هذا الاندفاعَ اعتقادٌ ما بأنَّها جميلةٌ مثلاً وأنَّها تُناسِبُهُ كزوجة).

بل حتى لو كبَتَ تأثيرَ هذا الاعتقاد، ولم يندفع لهذا الفعْل، فسيبْقى هذا الاعتقادُ حبيساً في صدْرِهِ ينتظرُ اللَّحظةَ التي يُعبِّرُ فيها عن نفْسِهِ، يُوجِّهُهُ ويُرْشِدُهُ إلى خياراتٍ معيَّنةٍ تؤدِّي في نهايةِ المطاف إلى أنْ يندفعَ تأثيرُهُ في الخارج (ربَّما في بعضِ الأحيان بطريقةٍ انفجاريَّة). لذا كلُّ اعتقادٍ يحمِلُهُ المرْءُ، لا يمكنُ فصْلُهُ عن بِنْيةِ اعتقاداتِهِ ككُلّ. وإنْ كان الاعتقادُ جديداً، فإنَّه يذهبُ في ذهنِهِ ليفعلَ فعلَهُ في التَّأثيرِ على حزمةِ الاعتقادات التي يحمِلُها، فيُعيدُ صياغةَ بعض هذه الاعتقادات في ضوءِ هذا الاعتقاد الجديد.

ويتوغَّلُ في أعماقِنا، وقد ينفجرُ يوماً ما الى فعلٍ خارجيٍّ، ويترُكُ بصْمةً على شخصيَّتِنا الى الأبد.(١)

واعتقادُ الإنسانِ الفرْد على أيِّ حالٍ ليس أمراً خاصَّاً بهِ يهُمُّهُ وحدَهُ. بل إنَّ حياتَنا مُسيَّرةً من قِبَلِ ذلك التَّصوُّر الكُلِّي لسلْسلةِ الأحداث التي تشكَّلتْ بواسطةِ المجتمع لأهدافٍ اجتماعيَّة. إنَّ ألفاظَنا، وعباراتَنا، وقوالِبَنا، وعمليَّاتنا، وطريقةَ تفكيرِنا هي مُلْكٌ عامٌّ، تمَّ تطريزُهُ وضبْطُهُ من عصْرٍ إلى عصْرٍ؛ وكأنَّهُ مُلْكٌ متوارَثٌ ترِثُهُ

---

(١) إذن كلُّ الاعتقادات مهمَّة، ولا يمكنُ الاستهانةُ بأيٍّ منها. فهي بمنزلةِ شرارة؛ والشَّرارةُ التي تبدو تافهةً قد تؤدِّي إلى حرائقَ عظيمة. كذلك هي الاعتقادات؛ فالاعتقادُ الذي يبدو تافهاً للوهلةِ الأولى، قد يُهيِّؤنا لقبولِ اعتقاداتٍ تشبهُهُ (فمثلاً اعتقادٌ واحدٌ بأنَّ جنِّيةً ما قد ظهرت حقَّاً لصديقي، قد يُهيِّؤ ذهني لقبولِ قصص أخرى حول الجنّ)، وقد يؤدِّي إلى تأكيدِ وتعزيزِ اعتقاداتٍ سابقة (قد يؤدِّي مثلاً إلى تأكيدِ قصص كنْتُ قد سمعْتُ بها حول ظهور جنِّيَّات لآخرين)، وقد تُضْعِفُ اعتقاداتٍ أخرى (قد تُضْعِفُ عندي الادِّعاء بأنَّ الجنَّ مجرَّدُ هلاوس وأوهام)، وقد تؤثِّرُ بنحوٍ خفيٍّ على بِنْيتِنا الفكريَّة لتنفجِرَ يوماً إلى فعْلٍ خارجي (تجعلُني مثلاً أُصبِحُ يوماً ما ألعوبةً بيدِ مشعوذٍ دجَّال يُورِدُني المهالِك، بسبَبِ استغلالِهِ لاعتقادي بإمكانيَّةِ ظهور الجنّ للنَّاس).

الأجيالُ المتعاقبةُ كوديعةٍ ثمينةٍ ووثيقةٍ مقدَّسةٍ يُسلِّمُهُ كلُّ جيلٍ لمن يليه، ليس غير متغيِّر بل متوسِّعٌ ومُنقَّى (مفلْتر)، مع بعضِ العلاماتِ الواضحة للعمَلِ اليدوي المُتْقن الذي أُجرِيَ عليه[١]. في باطنِ هذا، خيْراً كان أمْ شرَّاً، كلُّ اعتقادٍ لكلِّ رجُلٍ يوجِّهُ خطاباً لرفاقِهِ يُساهِمُ في حبْكِ عقدة في هذا النَّسيج. إنَّها ميزةٌ مخيفةٌ، ومسئوليَّةٌ ضخمةٌ، علينا أنْ نستغلَّها لخلْقِ العالَم الذي سيعيشُ فيه الأجيالُ القادمة[٢].

---

(١) هذه الفقرةُ بالغةُ الأهمية، لأنَّها تؤكِّدُ على أنَّ اعتقادَ الفرْد ليس شأناً شخصيَّاً يتعلَّقُ به وحدَهُ، بل ينعكسُ تأثيرُهُ على باقي أفرادِ المجتمع، من جيلِهِ، والأجيالِ اللاحقة. فكما أنَّ اعتقادات السَّابقين تراكمت وتدحرجت ككرةِ الثَّلْج، من جيلٍ إلى آخر، وكان لكلِّ جيلٍ بصْمتُهُ الخاصَّة، حتى وصلتْ إلينا تلك الاعتقادات وأثَّرتْ فينا، كذلك اعتقاداتُ كلّ فرْد اليوم تؤثِّرُ على محيطِهِ، وينتقلُ تأثيرُها إلى الأجيالِ التَّالية. وهكذا فإنَّ كلَّ فرْدٍ يمارِسُ تأثيراً خفيَّاً، بدرجةٍ وأخرى، على الذَّاكرةِ الجمعيَّةِ collective memory للبشر.

(٢) إذن الكلمةُ المنطلقةُ من اعتقادٍ معيَّنٍ ميزةٌ عظيمةٌ من ناحية، ومسئوليَّةٌ ضخمةٌ من ناحيةٍ أخرى. فمن خلالِ خطابِ المرْء الذي يُوجِّهُهُ لأقرانِهِ، قد يبْنى وقد يهدِم، قد يزْرَع ثمَّ يُثمِرُ الزَّرْع وقد يُدمِّرُ ويحرِقُ ما زُرِعَ سابقاً، فهو يُساهِمُ في خلْقِ الأجواء التي ستعيشُ في ظِلِّها الأجيالُ القادمة.

في الحالتينِ المفترضتينِ اللَّتينِ تحدَّثنا عنها، تمَّ الحُكْمُ على أنَّه من الخطأِ أنْ نعتقِدَ على أساسِ أدلَّةٍ غير كافية، أو أنْ نتعاهَدَ (نُغذِّي) اعتقاداً من خلالِ قمْعِ الشُّكوك وتفادي التَّحقُّق (التَّثبُّت). سبَبُ هذا الحُكْم ليس بعيدَ المنال: الاعتقادُ الذي حملَهُ المرْءُ في هاتينِ الحالتينِ كان له أعظَمُ الأثرِ والأهميَّة بالنِّسبةِ لبقيَّةِ الأشخاص. لكن نظراً لعدَمِ وجود اعتقاد يحمِلُهُ المرْءُ، مهما بدا تافهاً، ومهما كان الاعتقادُ غامضاً، لا يكونُ في الواقعِ ذا أهميَّة أو بدون أثر على مصيرِ البشريَّة، فنحنُ لا نملِكُ خياراً إلا أنْ نبْسُطَ حُكْمَنا على

أقول: لذا جاءَ في القرآنِ ما يؤكِّدُ على مسئوليَّةِ الإنسان العاقل عن كلِّ كلامٍ يُطلِقُهُ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ق: ١٨، وجاءَ أيضاً في القرآنِ ما يؤكِّدُ الآثارَ الحسنة أو السيِّئة للكلمة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ إبراهيم: ٢٤ - ٢٦. بل أكَّدَ القرآنُ على أنَّ ما يسُجَّلُ على الإنسانِ العاقلِ ليس فعلُهُ فحسْب، بل حتى آثارَ فعلِهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ يس: ١٢.

جميعِ حالات الاعتقاد مهما كانت[١]. إنَّ الاعتقادَ، ذلك الكيانُ المُقدَّسُ الذي يدْفعُ إرادَتَنا إلى قرارات، ويُحافِظُ على تناغُمِ جميع طاقاتِنا المتراصَّة لكينونتِنا، هو مُلْكُنا لكن ليس لأنفُسِنا (كأفراد) بل للبشريَّة. يتمُّ استخدامُهُ بنحوٍ محقٍّ على حقائقَ تأسَّستْ على خبرةٍ طويلةٍ وعلى انتظارٍ كادحٍ، طالما وقفَ بشراسةٍ بوجهِ تساؤلاتٍ حرَّةٍ لا تعرِفُ للخوفِ طريقاً[٢]. من ثمَّ هذا يُساعِدُ في تقارُبِ الأشخاص إلى

---

(١) بعبارةٍ أخرى، نظراً لكونِ كُلِّ اعتقادٍ مهمَّاً، بلحاظِ الدَّور الذي يمكن أنْ يلْعبهُ عند إصدارِ القرارات، أو على باقي الاعتقادات، لذا لا يمكنُ أنْ نكونَ غير مبالين تجاهَ أيّ اعتقاد، لأنَّ مصيرَ البشريَّة مرْهونٌ بترْشيدِ اعتقاداتِ البشر.

(٢) فالاعتقادُ هو كيانٌ مقدَّسٌ، له أهميَّة ذاتيَّة من ناحية، وله أهميَّة بلحاظِ الدَّور الذي يمكنُ أنْ يلْعَبَهُ. هذا الكيانُ المُقدَّسُ هو مُلْكُنا، لكن ليس مُلْكاً لنا كأفراد، وإنَّما هو مُلْكُ البشريَّة. لذا فعندما أعتقدُ بشيءٍ على أُسسٍ واهية، فأنا أُساهِمُ - ربَّما من حيثُ لا أشعر - في تضليلِ البشريَّة. وعندما أعتقدُ بشيءٍ على أُسسٍ صلْبة، فأنا أُساهِمُ - ربَّما من حيثُ لا أشعر - في هدايةِ البشريَّة. لذا لا مناصَ من تراكُم اعتقادات البشر وخبراتهم، في رحلةٍ طويلةٍ كادحة، لكن مع عمليةِ تنْقيةٍ (فلْترة) مستمرَّة، لاستبعادِ الباطلة منها واستبقاء المُحِقَّة.

بعضِهم البعض، وفي تعزيزِ وهدايةِ فعْلِهم المشترك[١]. إنَّه انتهاكٌ للقُدْسيَّةِ حينما نتَّكئ على تعبيراتٍ غير مُبرْهَنة ولم يتمّ التَّساؤل بشأنِ صحَّتِها، كلُّ ذلك لإعجابِ الحامِل للاعتقاد؛ لإضافةِ روعة البهجة لحياتِنا الرَّتيبة ولخلْقِ سرابٍ مشْرقٍ يتجاوَزُها: أو حتى لطمْسِ مآسينا المشتركة لنوعِنا من خلالِ خِداعِ الذَّات الذي لا يسْمحُ لها بأنْ تُرْمى فحسْب، بل ويُحطِّمُنا معها أيضاً.[٢] والذي

---

(١) **أقول**: هذا ما صارَ يدَّعيهِ أتْباعُ الاتِّجاهِ البَيْزي (في منطقِ الاحتمال) ما يُعرَف بـ "مُبرْهنة تقارُب الآراء"Convergence-of-Opinion Theorem، التي تدَّعي أنَّه كلَّما تمَّ تزويد البشر بمعطياتٍ صحيحة، فسوف يتقاربونَ فيما بينهم في اعتقاداتِهم، طالَ الزَّمانُ أم قصُر؛ لأنَّهُم سوف يمارسونَ حسابَ الاحتمالات، ليرْتفعَ في أذهانِهم احتمالُ الفرضيَّاتِ الصَّحيحة، وينخفضَ احتمالُ الفرضيَّاتِ الخاطئة. وحتى لو تأخَّرَ بعضُهُم في الاقترابِ من الحقائق، فإنَّ الحقائقَ لا بدَّ أنْ تفرِضَ نفْسَها عليهم في نهايةِ المطاف.

وقد تمَّ توجيهُ انتقاداتٍ إلى هذه المُبرْهنةِ بوصْفِها خياليَّة وغير واقعيَّة.

(٢) فتراكُم اعتقادات البشر وخبراتهم، مع عمليةِ التنْقيةِ المستمرَّة، ستُساهِمُ في تقارُبِ آراءِ البشر واعتقاداتهم، ومن ثمَّ ستُساعِدُ في ترْشيدِ قراراتِهم. لذا فإنَّ التَّعويلَ على اعتقادٍ مرْتكزٍ على أُسسٍ واهية، أو التَّعويلَ على اعتقادٍ لم يُشكَّ في صحَّتِهِ قطُّ، هو انتهاكٌ لقُدْسيَّةِ هذا الكيان.

يستحقُّ المآلَ الحسَنَ في هذه المسألةِ دونَ غيرِهِ من الرِّفاق سيُحافِظُ على نقاءِ اعتقاداتِهِ مع تعصُّبٍ شديدٍ من رعايةٍ غيورة، خوفاً من أنْ يتمَّ تزْريقُ أيَّ موضوعٍ غير مُستَحَقّ، ليتمَّ القبْضُ على تلك الوصْمةِ التي قد لا يمكنُ محو أثرها إلى الأبد[1].

ونحنُ نتورَّطُ في شيءٍ من هذا القبيل لأنَّنا في بعضِ الأحيان نرْيدُ حمْلَ هذا الاعتقاد؛ لأنَّه يُسعِدُنا ويُضْفي على حياتِنا البهجةَ والرَّاحة، ويُنْسينا مآسينا الحقيقيَّة التي يُفترَضُ أنْ نُواجِهَها بشجاعة، لا أنْ نهرُبَ منها من خلالِ اختلاقِ سرابٍ مشرق (= اعتقاد باطل). فهذا الخداعُ للذَّات لا يُلْقي هذه المآسي بعيداً عن دائرةِ اهتمامِنا فحسْب، بل ويُحطِّمُنا أيضاً لأنَّه يُحوِّلُ حياتَنا إلى حياةٍ زائفة، لا تعيشُ السَّعيَ الدَّائبَ نحو الاعتقادات الحقَّة.

(١) فالمرْءُ الذي يستحقُّ حُسْنَ العاقبة، دون بقيَّةِ نُظَرائِهِ، هو ذاك الذي يحمِلُ همَّ تنْقيةِ اعتقاداتِهِ، ولا يسْمحُ لأيِّ اعتقادٍ لا يبْتني على أُسسٍ صلْبة أنْ يخترِقَ منظومةَ اعتقاداتِهِ. فالتَّعصُّبُ في هذا المجالِ محمودٌ؛ لأنَّه تعصُّبٌ للحقِّ، وتعصُّبٌ في رفضِ الباطلِ والخرافات والأوهام والظُّنون والتَّحليلات الواهية.

أقول: الحقيقةُ أنَّ هذا الموقفَ يُعبِّرُ أفضلَ تعبيرٍ عن التَّقوى وروحِ المسئوليَّة في المجالِ الفكري. فحذَرُ المرْءِ من تسرُّبِ اعتقاداتٍ باطلةٍ إلى منظومةِ اعتقاداتِهِ هو من أروعِ الفضائلِ الأخلاقيَّة؛ لأنَّ اعتقاداً باطلاً واحداً قد

ليس القائدُ فقط، أو رجُلُ الدَّولة، أو الفيلسوفُ، أو الشَّاعرُ، هو من يتحمَّل مسؤوليَّةَ هذا الواجب المُلْزِم تجاهَ البشريَّة. كلُّ ريفيٍّ يعيشُ في قرْيةٍ من الجِعَةِ (النَّبيذ)، وينطُقُ بجُمَلٍ بطيئةٍ وغير مُنظَّمة، قد يُساهِمُ بطمْسِ أو ازْدهارِ الخرافاتِ القاتلةِ التي تُغرِقُ أفرادَ جنْسِهِ. كلُّ ربَّة منزل مجتهدة وزوجة لحِرَفي، قد تنْقُلُ لأبنائِها اعتقادات إمَّا تجعلُ من المجتمع نسيجاً متماسكاً، أو تُمزِّقهُ إرَباً إرَباً[1]. لا بساطة

يدْفع المرْءُ ثمنَهُ باهظاً، لأنَّه قد يؤدِّي إلى عواقِبَ كارثيَّة لا يمكنُ تدارُك آثارَها، ولاتَ حينَ منْدَم.

لذا جاءَ في القرآن: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ الإسراء: ٣٦، وجاءَ فيه أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ الحجرات: ٦.

(١) إذن مسئوليَّة التَّحقُّق من الأمورِ قبْلَ الاعتقادِ بها، ليست واجبة من النَّاحيةِ الأخلاقيَّةِ فقط على النُّخَبِ والمُثقَّفينَ والقادة، دون عامَّة النَّاس. بل كلُّ إنسانٍ عاقل، وإنْ كان من البُسَطاء، مهما استصْغَرَ المجتمعُ قدْرَهُ، ومهما تواضعَتْ ثقافتُهُ، يتحمَّلُ مسئوليَّةً أخلاقيَّةً في عدمِ الاعتقاد بشيءٍ دون أدلَّة كافية.

الذِّهن، ولا تواضُع المستوى الاجتماعي، يمكنُ أنْ يعفي المرْء من واجبِ التحقُّق الشَّامل من كلِّ ما نعتقدُ به[١].

---

(١) من ثَّم مهما كان ذِهْنُنا بسيطاً، ومهما كان دورُنا الاجتماعيُّ متواضعاً، فطالما أنَّا نحمِلُ عقْلاً، فنحنُ مسئولونَ من النَّاحيةِ الأخلاقيَّةِ عن التَّحقُّقِ من سلامةِ كلّ اعتقاداتنا.

أقول: يبدو لي أنَّ كليفورد يُبالِغُ في تحميلِ الإنسان مسئوليَّةً فوقَ طاقتِهِ. فالإنسانُ - من ناحيةٍ - مهما بلغَ من الذَّكاءِ والحصافةِ والإنصاف، ومهما حرَصَ على تفادي التحيُّز، يبْقى دائماً عُرْضَةً لحمْلِ اعتقاداتٍ باطلة؛ فهو ليس بكلِّ شيءٍ عليم، ويمكنُ في غمْرةِ الانشغال في الحياةِ اليوميَّةِ أنْ تنطلي عليه الكثيرُ من الأفكارِ والاعتقادات دون أنْ يرْصُدَها أو يرْصُدَ تأثيرَها عليه، في مختلفِ جوانبِ الحياة (السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والدِّينيَّة...إلخ). ومن غيرِ الانصاف تحميلُهُ مسئوليَّةً أخلاقيَّةً فيما يتجاوز طاقتُهُ.

والإنسانُ - من ناحيةٍ أخرى - إنْ كان متواضعاً في قُدُراتِهِ الذِّهنيَّة، ولم يلْتفت أصلاً إلى مسئوليَّتِهِ الأخلاقيَّة، أو التفَتَ ولم يعرف كيف يتصرَّف ليتجنَّب الاعتقادات الباطلة، لبساطتِهِ أو سذاجتِهِ، فلا يمكنُ - أخلاقيَّاً - تحميلُهُ فوقَ طاقتِهِ.

من الصَّحيح أنَّ هذا الواجبَ هو أمرٌ صعْبٌ، والشَّكُّ الذي يترتَّبُ عليه مُرُّ الطَّعْم. إنَّه يترُكُنا عارينَ وعاجزينَ بينما كُنَّا نظُنُّ أنَّنا آمنونَ وأقوياء (أصحاب سُلْطة). أنْ تعرِفَ كلَّ شيءٍ عن أيِّ شيءٍ هو أنْ تعرِفَ كيف تتعامل معه تحت كلّ الظُّروف والملابسات. فنحنُ نشْعرُ بأنَّا أكثر سعادةً وأماناً عندما نُفكِّرُ بأنَّا نعرِفُ بنحوٍ دقيقٍ ما يتعيَّن علينا فعلُهُ، بغضِّ النَّظَر عمَّا يحدث، عندما نضِلُّ طريقَنا ولا نعرف أين نتَّجِه. ولو افترضْنا أنفُسَنا أنَّنا نعرِفُ كلَّ شيءٍ عن أيِّ شيءٍ، وأنَّنا قادرون على فعْلِ ما هو مناسبٌ تجاهَهُ، فنحنُ بنحوٍ طبيعيٍّ لا نحبُّ أنْ نكتشفَ أنَّنا جاهلونَ ولا حولَ لنا ولا قوَّة، وأنَّه يتعيَّنُ علينا أنْ نُعيدَ الكرَّةَ مرَّةً أخرى من جديد، لمحاولةِ

لذا أرى أنَّ كليفورد وإنْ كان مصيباً من حيثُ المبدأ، إلا أنَّه يُبالِغُ في تحميلِ الإنسان مسئوليَّةً فوقَ طاقتِهِ الاعتياديَّة، دون أنْ يُشيرَ إلى أنَّه مسئولٌ - من النَّاحيةِ الأخلاقيَّةِ - بقدرِ وسْعِهِ فقط.

لذا جاءَ في القرآنِ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة: ٢٨٦، وجاءَ فيه أيضاً: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ الأعراف: ٤٢.

تعلُّم الأمرَ على ما هو عليه في الواقع وكيفَ يجبُ التَّعامُلُ معه – فيما لو كان ثمَّةَ شيءٍ يمكنُ تعلُّمُهُ حولَهُ[١].

---

(١) مسئوليَّةُ التَّحقُّق من سلامةِ كلّ اعتقاداتنا واجبٌ صعْبٌ جدَّاً، والشَّكُّ (فيها أو في بعضِها) قد تترتَّبُ عليه عواقبَ شديدة المرارة. فالإحساسُ بالمعرفةِ، ولو كان في الواقع جهْلاً مركَّباً، يُعطي المرْءَ شعوراً بالأمانِ والقوَّة. وعندما نكونُ في مفترقِ طُرُق، ونشْعرُ بالحيْرةِ للحظةٍ، ثمَّ سرْعانَ ما نسْتحضِرُ ما لدينا من معطياتٍ مؤكَّدةٍ بأنَّ الطَّريقَ المؤدِّي إلى مقصودِنا هو كذا، فنحنُ نشْعرُ بالسَّعادةِ والأمان، لأنَّا نعرِفُ أينَ نسيرُ وأينَ نتَّجِه.

لكن نظراً لكونِ التَّحقُّق من سلامةِ الاعتقادات يكشِفُ لنا جهْلَنا وعجْزَنا (لأنَّا لا نعرِفُ كلَّ شيءٍ عن أيِّ شيء)، وأنَّه يتعيَّنُ علينا أنْ نُرْجِعَ البصَرَ كرَّةً بعد أخرى لنُفكِّرَ ونتأكَّد، لذا نحنُ نستسلِمُ عادةً لحالةِ الجهْلِ المركَّب اللَّذيذ، حين نتوهَّم أنَّا نعرفُ في حين أنَّا في الواقع لا نعرف، ونتوهَّم أنَّ اعتقاداتَنا ترْتكزُ على أُسسٍ صلْبة، في حين أنَّ أغلَبَها أو بعضَها في الواقع ليس كذلك. نحنُ نستسلِمُ لحالةِ الجهْلِ المركَّب حتى نهرُبَ من ألَمِ التَّفكيرِ والتقصِّي، حتى نتفادى ألَمَ الشُّعور بالعجْزِ والجهْل.

أقول: لذا ثمَّةَ فرْقٌ كبيرٌ بين من يسيرُ إلى مقصدِهِ ناكساً رأسَهُ ناظراً إلى قدميهِ يتفادى النَّظَرَ إلى الواقعِ والحقائق، في مقابلِ من يسيرُ إلى مقصدِهِ رافعاً رأسَهُ ناظراً إلى طريقِهِ بنحوٍ واضحٍ وبيِّن، فلا يخطو خطوةً إلا وهو يعرِفُ أينَ يذْهَب

إنَّه الاحساسُ بالقوَّةِ (السُّلطةِ) المرْتبطُ بالاحساسِ بالمعرفةِ هو ما يجعلُ الأفرادَ يميلونَ نحو الاعتقاد، ويخافونَ التَّشكيك[1].

وأينَ يتَّجه، دون أنْ يوهِمَ نفسَهُ بمعرفةٍ كاذبة، بل لا يخطو خطوةً، ولا يحمِلُ اعتقاداً إلا على أساسٍ صلْبٍ ومتين. وهذا ما أشارَ إليه القرآن في قولِهِ: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الملك: ٢٢.

(١) فالاعتقاداتُ وإنْ كانت مرْتكزةً على أُسسٍ واهية، تُعطي المرْءَ شعوراً بالقوَّةِ، لأنَّها تُوهِمُهُ بأنَّه يعرِفُ الواقعَ على ما هو عليه. لذا من أصعبِ الأمور على النَّاسِ التَّشكُّك في اعتقاداتِها؛ فحالُهم هو حالُ الأعمى الذي تُنْزَعُ منه عصاهُ التي يتحسَّسُ بها طريقَهُ، فهو يشعرُ بالذُّعرِ الشَّديدِ على الفور. كذلك هُمْ أغلَبُ النَّاس، يشْعرونَ بالذُّعرِ من التَّشكُّكِ في اعتقاداتِهم؛ لأنَّهُم من خلالِها يتحسَّسونَ طريقَهُم في الحياة، لذا تراهُم يُفضِّلونَ البقاءَ على حمْلِها دون تشكيك، لأنَّهُم يخشونَ عواقِبَ التَّخلِّي عنْها، كما يخشى الأعمى عواقِبَ نزع عصاهُ منه.

أقول: لكن القرآنُ حاولَ إزالةَ هذا الشُّعور بالذُّعرِ حينما أكَّدَ للنَّاسِ بأنَّ من أبرزِ صفاتِ الله أنَّه هو الهادي؛ فهو متكفِّلٌ بهدايةِ كلّ من يحاولُ بأقصى جهْدِهِ معرفةَ الحقائق، ولنْ يترُكَ أيَّ مُحسِنٍ أرادَ التَّحقُّقَ من اعتقاداتِهِ، فلا بدَّ لهذا المُحسِن أنْ يهتدي إلى طريقِهِ الصَّحيح طالَ الزَّمانُ أم قصُر، فقد جاءَ فيه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ العنكبوت: ٦٩ ، وجاءَ فيه أيضاً: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ الليل: ١٢.

إنَّ هذا الشُّعورَ بالقوَّةِ (السُّلطةِ) هو أقصى درجاتِ السَّعادة وأفضَلُها حينما يكونُ الاعتقادُ المرْتكزُ على أساسٍ متين هو اعتقادٌ صادقٌ، قد تمَّ اكتسابُهُ باستحقاقٍ عن طريقِ التَّحقُّق (التَّثبُّت). حينها بإمكانِنا أنْ نشْعُرَ بنحوٍ عادلٍ بأنَّه مُلْكٌ عامٌّ، ويحمِلُ خيْراً للآخرينَ كما حمَلَ خيْراً لنا. لذا قد نكونُ في حالةِ ابتهاجٍ، ليس لأنَّي اكتشفْتُ سرَّاً يجعلُني أكثرَ أماناً وقوَّةً، بل لأنَّ الإنسانَ صارَ أكثرَ براعةً (تضلُّعاً) في العالَم؛ وسنكونُ أقوياء، ليس لأنفُسِنا بل باسْمِ الإنسان (الجنْس البشري) وقوَّتِهِ[1]. لكن حينما يتمُّ القبول باعتقادٍ دون أدلَّة كافية، فإنَّ السَّعادةَ تكونُ قد اختُطِفَتْ. فنحنُ لا نخدَعُ أنفُسَنا عندما يُعطينا هذا القبول شعوراً بالقوَّةِ (السُّلْطة)

(١) فالحالةُ النَّموذجيَّةُ التي يُمكِنُها أنْ تُشعِرَنا بالابتهاجِ بحقّ، والهدفُ الذي يُفترَضُ أنْ نسْعى لتحقيقِهِ، هو الاعتقادُ الصَّادقُ المطابقُ للواقع، الذي يرْتكزُ على أساسٍ صلْب، وقد جاءَ نتيجةَ بحثٍ وتقصٍّ. فإنْ ظفرْنا بمثْلِ هذا الاعتقاد، فإنَّ مثْل هذا الكشْف لن يكون مُلْكاً شخصيَّاً، بل هو مُلْكٌ عامٌّ للبشر. والابتهاجُ يُفترَضُ أنْ لا يكونَ مصدرُهُ الشُّعور بالأمانِ والقوَّة، بل الشُّعور بتحقيقِ إنجازٍ إنسانيٍّ يُسجَّلُ لصالحِ البشريَّة في سعيها المُضْني نحو الحقيقة، لأنَّ مثلَ هذا الاعتقاد يجعلُ الإنسانَ أكثرَ تضلُّعاً وبراعةً في العالم.

التي لا نملِكُها في الواقعِ فقط، بل إنَّها خطيئةٌ؛ لأنَّ السَّعادةَ قد اختُطِفَتْ في تحَدٍّ لواجبِنا تجاهَ البشريَّة. إنَّ هذا الواجبَ (التَّكليف) هو من أجلِ حمايتِنا من اعتقاداتٍ من هذا القبيل كحمايتِنا من وباءٍ، قد يُسيطرُ وشيكاً على أبدانِنا ثمَّ يتفشَّى وينتشرُ في باقي أرْجاءِ المدينة. فكيف بحالِ الانسان الذي من أجلِ الظَّفر بثمرةٍ حلْوةِ الطَّعم، يُجازفُ بتعمُّدٍ في نقْلِ الطَّاعون لأهلِهِ وجيرانِهِ[1]؟

---

(١) فنحنُ عندما نقبَلُ بأنْ نعتقِدَ بأمرٍ ما دونَ أدلَّةٍ كافية، فإنَّنا نساهمُ في خطْفِ السَّعادةِ الحقيقيَّةِ من أوساطِ البشر. فهذا القبولُ لا يُعطينا فقط شعوراً كاذباً بالقوَّةِ التي لا نملِكُها فعْلاً، بل هو بحدِّ ذاتِهِ خطيئةٌ أخلاقيَّةٌ، لأنَّه يتجاهلُ واجبَنا في التَّحقُّقِ من الأمرِ قبْلَ الاعتقاد به. وهذا الواجبُ الأخلاقي يستهدفُ حمايتَنا من الاعتقاداتِ الواهية. وعندما نتخلَّى عنه فنحنُ في الواقعِ نتسبَّبُ بأمرٍ خطيرٍ للبشريَّة؛ لأنَّ الاعتقادات الواهية كالوباءِ الخطير، الذي لا يكتفي بتدْميرِ بدَنِ الفرْد، بل هو مُعْدٍ يتفشَّى كالطاعون ليُودِي بالبشريَّة. وكما أنَّ الإنسانَ لا يكونُ مُبرَّراً من النَّاحيةِ الأخلاقيَّةِ عندما يستهدفُ الوصولَ إلى ثمرةٍ حلْوةِ الطَّعم، وهو يعلَمُ أنَّه بسعيهِ هذا يتسبَّبُ عن عمْدٍ في نقْلِ الطَّاعون لأهلِهِ وجيرانِهِ، فكذلك لا يكونُ مُبرَّراً عندما يرْكَنُ إلى الاعتقاداتِ الوهميَّةِ اللَّذيذة، التي تتسبَّبُ في إضلالِ البشريَّة.

وفي الحالاتِ الأخرى من هذا القبيل، ليست المجازفةُ وحدَها هي التي يجبُ أنْ تُؤخذَ بعينِ الاعتبار؛ لأنَّ الفعْلَ السيِّء هو سيِّء دائماً في لحظَةِ وقوعِهِ، ومهما ترتَّبَ عليه من أثَر. في كلِّ مرَّةٍ نسْمحُ فيها لأنفُسِنا بأنْ نعتقدَ لأسبابٍ واهية، نحنُ نُضعِفُ قِوانا (سُلْطَتَنا) في ضبْطِ النَّفْس، وفي شكوكِنا، وفي تحكيمِ الأدلَّة بشكلٍ منْصفٍ وقضائي. فكُلُّنا يُعاني بالمستوى نفْسِهِ من حفْظِ ودعمِ الاعتقاداتِ الباطلةِ والأفعالِ الخطيرةِ المترتِّبةِ عليها، والشَّرّ المُتولِّد حينما تكون إحدى هذه الاعتقادات مُرحَّبٌ بها على نطاقٍ واسع. ولكن الشَّرُّ الأكبرُ والأوْسعُ ينشأُ حينما يتمُّ دعم والحفاظ على شخصيَّةٍ ساذجةٍ، وحينما تتعزَّزُ عادةَ الاعتقاد لأسبابٍ واهيةٍ على مدى طويلٍ من الزَّمن[1]. إذا سرقْتُ مالاً من أيِّ شخْصٍ، قد لا يُشكِّلُ ذلك

(١) من يعتقد بأمرٍ ما لأسبابٍ واهية، هو لا يتسبَّبُ في إيقاع عواقب وخيمة مرجَّحة على آخرين، بل حتى على نفْسِهِ. ففي كلِّ مرَّةٍ يقومُ بتكرارِ هذا الفعْل، ويعتقدُ بأمرٍ جديدٍ لأسبابٍ واهية، هو يُساهِمُ بإضْعافِ نفْسِهِ أكثر، ويصبحُ أكثر عجْزاً عن السَّيطرةِ على نفْسِهِ في المرَّاتِ القادمة. وأسوأُ ما في الأمر، أنَّه يسْتبقي في ذاتِهِ على شخصيَّةٍ ساذجةٍ اعتادَتْ على تصديقِ أسْخَف الاعتقادات.

ضرراً ملْحوظاً في انتقالِ المِلْكيَّة من صاحبِها إليَّ؛ قد لا يشْعُرُ بفُقدانِهِ، أو قد يرْدعهُ ذلك من استخدامِ المال بشكلٍ خاطئ. لكن لا يُمكِنُني أنْ أتصوَّرَ نفْسي أقومُ بهذا الخطأِ الكبيرِ تجاهَ الجنْس البشري، وذلك بأنْ أجعلَ من نفْسي غيرَ أمينٍ (صادق). ما يؤذي المجتمع ليس هو فُقْدان مِلْكيَّة ما، وإنَّما هو أنْ يتحوَّلَ إلى وِكْرٍ للُّصوص، فلا يكونُ بعدَها مجتمعاً بما تعنيهِ الكلمة[1]. لذا علينا أنْ لا نفعلَ الشَّرَّ، حتى نأمَلَ بمجيءِ الخيْر؛ لأنَّه في لحظةٍ ما قد يأتي الشَّرُّ العظيم، وبما أنَّنا فعلْنا الشَّرَّ فإنَّ ذلك سيجعلُ منَّا بعد ذلك أشراراً. وعلى هذا النَّحو، لو سمحتُ لنفْسي أنْ أعتقدَ بشيءٍ على أساسِ أدلَّة غير كافية، فقد لا يُشكِّلُ ذلك ضرراً من الاعتقاد بذاتِهِ؛ فقد يكونُ

---

(١) ما يُصيبُ المجتمعَ في مقْتَل ليس هو أنْ أقومَ بعمليَّةِ سِرْقةٍ صغيرةٍ هنا أو هناك؛ لأنَّ القيامَ بمثْلِ هذه العمليَّة قد لا يُشْعُرُ بخسارَتِها حتى صاحبَ المال المسْروق، بل قد تحولُ هذه السَّرِقةُ من أنْ يستخدِمَ صاحبُ المالِ مالَهُ في الاتِّجاهِ الخاطئ.

ما يُصيبُ المجتمعَ في مقْتَل هو أنْ أُمارِسَ أنا (ويُمارِسُ غيري أيضاً) عمليَّةَ الاعتقاد لأسبابٍ واهية، وأعتادُ أنا (ويعتادُ غيري أيضاً) على ذلك، فيتحوَّل المجتمعُ إلى وكْرٍ للُّصوص، كلٌّ منَّا يسْرِقُ من الآخرِ فرْصةَ الاقتراب من الحقائق. هذا هو ما يُدمِّرُ المجتمعَ من الدَّاخل.

الاعتقادُ صادقاً في نهايةِ المطاف، أو إنْ لم يكن كذلك فقد يكونُ اعتقاداً دون أفعال خارجيَّة تؤثِّرُ على من حولَنا. ولكن لا أستطيعُ التَّفكيرَ في القيامِ بهذا الخطأ الشَّنيع تجاهَ الجنْس البشري، هذا يعني أنْ أضَعَ نفْسي في مقامِ السَّاذج (سريع التَّصديق). إنَّ الخطَرَ على المجتمعِ ليس هو فقط في الاعتقاد بأشياءٍ باطلة، وإنَّما في أنَّها تجعل منَّا أُناساً ساذجين (سريعي التَّصديق)، وتُفْقِدُنا عادةَ تفحُّصِ الأشياء والتَّحقُّق منها؛ ومن ثمَّ فهي تُغرِقُنا من جديدٍ في الوحشيَّة (الهمجيَّة)[1].

---

(١) الاعتقادُ لأسبابٍ واهيةٍ شرٌّ، والاعتيادُ على ذلكَ يجعلُ منَّا أشراراً. والشَّرُّ لا يكمُنُ في الاعتقادِ بذاتِهِ؛ لأنَّه قد يُطابِقُ الواقعَ بالصُّدفةِ، أو قد لا يكونُ له أثرٌ خارجيٌّ على الآخرين. خطورةُ الاعتقادِ لأسبابٍ واهيةٍ تكمُنُ في أنَّه يُحوِّلُنا لأشخاصٍ ساذجينَ (سُفهاء)، والاعتيادُ على ذلك يُفقِدُنا ملَكةَ البحثِ والتقصِّي، وعادةَ التثبُّت والتَّحقُّق، وهذا يؤدِّي إلى النكوصِ من جديد إلى عصورِ الوحشيَّة والهمجيَّة، إلى العصورِ المُظْلمة التي كافحَ الإنسانُ للخروجِ منها.

أقول: هذا ما حاول القرآنُ علاجَهُ، عندما عملَ على استنقاذِ الفرْد من هيمنةِ العقْل الجمْعي، ليُفكِّرَ بعقلٍ واعٍ، ويبْنى اعتقاداتَهُ على أساسِ العلْمِ والمعرفة، وليس على أساسِ الظُّنون والأوهام. لذا جاءَ في القرآن مُحذِّراً: ﴿وَإِن تُطِعْ

الضَّرَرُ الذي يُحدِثُهُ الفرْدُ السَّاذج (سريع التَّصديق) على بني الإنسان لا يقتصرُ على تعزيزِ الشَّخصيةِ السَّاذجةِ (سريعة التَّصديق) في الآخرين، وبالنَّتيجةِ دعم الاعتقادات الباطلة. فالرَّغبةُ المعتادةُ في الرِّعايةِ حول ما أعتقدُ به يقودُ إلى رغبةٍ معتادةٍ في الآخرين حول الحقيقة التي قيلتْ لي[1]. الأفرادُ يتحدَّثونَ بالحقيقةِ لبعضِهِم البعض حينما يُعجَبُ كلٌّ منهم بالحقيقةِ التي في ذهنِهِ وفي ذهنِ الآخر؛

أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ الأنعام: ١١٦.

(١) الضَّررُ الذي يُحدِثُهُ الفرْدُ السَّاذجُ (سريع التَّصديق) على بني الإنسان لا يقتصرُ على تعزيزِ الشَّخصيَّةِ السَّاذجةِ (سريعة التَّصديق) في الآخرين، بل هذا الضَّررُ يرْتدُّ عليه أيضاً. فهو عندما يتشبَّث باعتقادٍ يرْتكزُ على أسسٍ واهيةٍ، يُشجِّعُ الآخرينَ على التَّشبُّثِ بالاعتقادِ ذاتِهِ، وعندما يتشبَّث الآخرونَ بهذا الاعتقاد، فهذا يزيدُهُ تشبُّثاً وثقةً باعتقادِهِ المرْتكز أصلاً على أُسسٍ واهية. فإذن فعْلُهُ كالصَّدى، يرْتدُّ أثرُهُ السَّلبي إليه وعليه.

أقول: لذا جاءَ في القرآنِ ما يؤكِّدُ على أنَّ بعضَ البشر يُمارِسُونَ تأثيراً متبادلاً في الإضلال، فكلٌّ منهم يُساهِمُ بنحوٍ خفيٍّ في إضلالِ الآخر، لذا جاء: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ الأنعام: ١١٢.

لكن كيف اجعلُ زميلي يُعجَبُ بالحقيقةِ التي في ذهني إنْ كنْتُ أنا نفْسي لا أُعيرُها اهتماماً، وذلك عندما أعتقدُ بأشياء لأنِّي أريدُ أنْ أعتقدَ بها، ولأنَّها تبدو مريحةً وجميلة؟ ألنْ يصرُخ بوجهي "سلام" حيثُ لا يوجدُ سلام[1]؟ في حالٍ كهذا سأكونُ مُحاطاً بالأباطيلِ والخِداع، وفي هذه الأجواء يجبُ أنْ أعيش. قد يُشكِّلُ ذلك فرْقاً قليلاً بالنِّسبةِ لي، في عالمي الزَّاخر بالأوهامِ اللَّطيفةِ والأكاذيبِ الحلوة؛ لكنَّه سيُشكِّلُ فرْقاً كبيراً لفرْدٍ جعلْتُهُ فريسةً لجيراني (جعلْتُ الجيرانَ مستعدِّينَ لخداعِهِ). إنَّ الفرْدَ السَّاذجَ (سريع التَّصديق) هو أبٌ للكاذبِ والمحتال؛ فهو يقطُنُ في صدْرِ المجلسِ بين أهلِهِ، ولا عجبَ أنْ يكون متساوياً معهم. إنَّ واجباتَنا منسوجةٌ ببعضِها

---

(١) كلٌّ منَّا قد يُعجَبُ بالحقيقةِ التي في ذهنِهِ وفي ذهنِ الآخر. والحقيقةُ التي في ذهني لا تكونُ جديرةً حقَّاً بأنْ تحظى بإعجابِ زميلي إلا إذا كنْتُ أُعيرُها اهتماماً فعليَّاً، بحيث يلْمسُ بنحوٍ واقعيٍّ أنِّي أحاولُ أنْ لا أعتقدَ بشيءٍ إلا إذا ارْتكزَ هذا الأمرُ على أُسسٍ متينة. لكن عندما يُعجَبُ بما يتوَّهم أنَّها حقيقة في ذهني، وأكونُ في الواقع قد اعتقدْتُ بها لأنِّي أريدُ أنْ أعتقدَ بها، وليس لأنَّها ترْتكزُ على أُسسٍ صلْبة، فإنِّي أكونُ في الحقيقةِ قد خدعْتُهُ.

البعض، إلى درجةِ أنْ لو عمَلَ فرْدٌ بالقانون، وترَكَ بَنْداً واحداً منه، فإنَّه سيُحاسَبُ ويُعتبرُ مُذْنِباً لخرْقِهِ القانون ككُلّ[١].

وزبدةُ القول: إنَّه من الخطأِ، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وبالنِّسبةِ لكلِّ فرْدٍ، أنْ يعتقدَ بأيِّ شيءٍ على أساسِ أدلَّةٍ غير كافية[٢].

إنْ كان ثمَّةَ فرْد، يحمِلُ اعتقاداً قد تربَّى عليه منذُ طفولتِهِ واقتنَعَ به، وصارَ يهرُبُ من ثمَّ من الشُّكوكِ التي تنتابُهُ بتعمُّدٍ من خلالِ عدمِ مطالعةِ الكُتُب والتَّثقُّف ومخالطةِ النَّاسِ الذين يُثيرونَ التَّساؤلات

---

(١) قد أسمَحُ لنفْسي بأنْ أجنيَ عليها، وأقبَلُ مختاراً العيْشَ في الأباطيلِ والأوهام، لكن عليَّ أنْ أعرِفَ بأنِّي بفعْلي هذا، أجعلُ من زميلي (المُعجَب بما يتوَّهم أنَّها حقيقة في ذهني) فريسةً للآخرين. بفعْلي هذا أُثيرُ شهيَّةَ الآخرين لخداعِهِ، لأنِّي ساهمتُ في جعلِهِ ساذجاً. لذا عندما أقبلُ أنْ أكونَ ساذجاً فسأكونُ بمنزلةِ الكاذب والمُحتال، لا فرْقَ جوهري بيني وبينهم، بل سأكونُ مُمهِّداً لهُمُ الطَّريق. وهكذا نجدُ أنَّ واجبي الأخلاقي تجاهَ نفْسي لا ينفصلُ عن واجبي تجاهَ زميلي؛ فإنْ انتهكْتُ واجبي تجاهَ نفْسي، فإنِّي أكونُ قد انتهكتُهُ تجاهَ غيري، وإنْ انتهكْتُ واجبي تجاهَ غيري، فإنِّي أكونُ قد انتهكتُهُ تجاه نفْسي، فالقانونُ الأخلاقيُّ كلٌّ متماسكٌ، انتهاكُ بنْدٍ منه يعني انتهاكُهُ ككُلّ.

(٢) **أقول**: هذه هي الجملةُ الشَّهيرةُ التي صارتْ على الألسُنِ وباتَتْ تُلخِّصُ مقالةَ كليفورد بأسْرِها.

ليُناقشوها، ويعتبرُها كُفْراً لكونِها مزْعجةً، فإنَّ هذا الفرْدَ يكونُ قد ارْتكَبَ خطيئةً تجاهَ البشريَّة[١].

إنْ كان هذا الحُكْمُ يبدو قاسياً عندما يتمُّ تطبيقُهُ على تلك الأرواحِ البسيطةِ التي لم يُتَح لها أبداً فُرْصةَ المعرفة الأفضل، والتي ترعرعتْ على الخوفِ من التَّشكيك، وتمَّ تلقينُهُم بأنَّ مصيرَهُم الأبدي يعتمدُ

---

(١) إذن من أكبرِ الخطايا التي يرْتكِبُها الإنسانُ، هو أنْ يرْكُنَ إلى اعتقاداتِ الآباء والأجداد دون أنْ يُمحِّصَها ويفْحَصَها، ليتهرَّبَ بذلك من مسئوليَّاتِهِ الأخلاقيَّة تجاه نفْسِهِ وتجاه الآخرين.

أقول: لذا أكَّدَ القرآنُ مراراً على هذه النُّقطة، فقد جاءَ فيه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ البقرة: ١٧٠. وجاءَ فيه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ المائدة: ١٠٤. وجاءَ فيه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ لقمان: ٢١. بل كانت هذه المشكلةُ تُمثِّلُ معضلةً للأنبياءِ عموماً، أنظر مثلاً (الأعراف، ٧٠)، (يونس، ٧٨)، (هود، ٦٢، ٨٧)، (إبراهيم، ١٠)، (الأنبياء، ٥٣)، (الشعراء، ٧٤)، (القصص، ٣٦)، (الزخرف، ٢٣).

على ما يعتقدونَهُ، فإنَّ هذا يجُرُّنا الى السُّؤالِ الخطيرِ التَّالي: من الذي أوقعَ (بني) إسرائيل في الخطيئة[١]؟

قد يُسْمحُ لي بدعْمِ هذا الحُكْم بعبارةٍ لـ مِلْتون[٢]:

"الرَّجُلُ قد يكونُ مهرْطقاً في الحقيقةِ؛ وإذا كان يعتقدُ بالأشياءِ فقط لأنَّ قسِّيسَهُ قالَ ذلك، أو العوامَّ من النَّاسِ، من دونِ معرفة سببٍ

---

(١) لذا لا يُمكنُ القولُ أنَّ هذا المنْهجَ المُتشدِّد هو خاصٌّ بالنُّخَبِ والمثَّقفينَ وأصحابِ العقول المتميِّزة، بل هو لكلِّ إنسانٍ عاقل. فكلُّ إنسانٍ عاقلٍ هو مسئولٌ تجاهَ نفسِهِ وتجاهَ الآخرين.

أقول: وأوَّلُ الحقائقِ التي يُفترَضُ أنْ تُلاحَظَ في هذا المجال (كما يرى القرآن): الاعتقادُ أو الإيمانُ باللهِ، الخالقِ والرَّبِّ الواحدِ، بوصْفِهِ الحقيقة الأجلى والأوضح المغروسة في أعماقِ وجدانِ الإنسان، ولنْ يُقبَلَ عذْرُ من يعتذِرَ بأنَّه قد انساقَ لاعتقاداتِ الآباءِ في هذا المجال. لذا جاءَ في القرآن: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الأعراف: ١٧٢ - ١٧٤.

(٢) جون مِلْتون، شاعرٌ إنجليزيٌّ شهير، من أشْهَرِ قصائدِهِ "الفرْدوس المفقود" (١٦٠٨- ١٦٧٤).

آخر، حتى لو كان اعتقادُهُ صادقاً (مطابقاً للواقع)، فإنَّ الحقيقةَ التي يحمِلُها ستظلُّ مع ذلك لعْنةً عليه"[١].

وأقتبسُ هذا السَّطْرَ الشَّهير لـ كولِريدج[٢]:

"الفرْدُ الذي يبدأُ بحُبِّ المسيحيَّة أكثرَ من الحقيقة، سيَنْجَرُّ إلى حُبِّ طائفتِهِ أو الكنيسةِ التي يرْتادُها أكثرَ من المسيحيَّة، ومن ثمَّ سينْتهي به الأمرُ إلى حُبِّ نفْسِهِ أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخر"[٣].

---

(١) لأنَّه في الاعتقاداتِ الأساسيَّةِ التي يحمِلُها الإنسانُ (وخصوصاً الدِّينيَّة منْها)، لا يمكنُ أنْ يُعوِّلَ فيها على أحدٍ، بل لا بدَّ أنْ يُعمِلَ عقْلَهُ، ليُحدِّدَ طريقَهُ بنفْسِهِ، ويتحمَّلَ مسئوليَّةَ ذلك.

أقول: وهذا ما أكَّدَ عليه القرآن. فمن أكبرِ الأخطاءِ التي انتقدَها القرآنُ هو تسليمُ البُسطاء بكلِّ تلْقينات عُلماء هذا الدِّين أو ذاك، حتى في مجالِ الاعتقاداتِ الأساسيَّة، لذا جاءَ فيه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ التوبة: ٣١.

(٢) صمويل تيلور كولِريدج، فيلسوفٌ وشاعرٌ وناقدٌ أدبيٌّ إنجليزيٌّ شهير، من أشهر قصائدِهِ "أغنية البحَّار القديم" (١٧٧٢- ١٨٣٤).

(٣) فحبُّ الحقيقةِ يُفترَضُ أنْ يكونَ هو المُحرِّكُ الأساس لعقْلِ وقلْبِ الإنسان، ثمَّ الخضوعُ والتَّسليمُ للحقيقةِ بعد أنْ تتجلَّى هو الموقفُ الرَّشيد.

فيُفترَضُ أنْ يكونَ الإنسانُ ابناً للدَّليل، أينما مالَ يميل. فحُبُّهُ للحقيقةِ سيُحرِّرُهُ من محاولةِ العقْلِ الجمْعي استلابَ عقْلِهِ لصالِحِ المذْهب أو المؤسَّسة الدِّينيَّة، أيًّا كان المذْهبُ أو الدِّينُ الذي يعتقدُ به.

أقول: لذا أكَّدَ القرآنُ على المسئوليَّةِ الفرْديَّة، وأنَّ المرْءَ سيقفُ بين يدي اللهِ بمُفْرِدِهِ ليُحاسَبَ ويُدافِعَ عن نفْسِهِ، ولن يُقبَلَ اعتذارُهُ باتِّباعِ الكُبراء والرُّؤساء دون بيِّنةٍ ووعي، وسيحدُثُ تخاصمٌ بين الأصدقاءِ والقُرَناء، وبين الأتْباعِ والمتْبوعين، ولن ينْجوَ من هذا التَّخاصُم إلا المُتَّقون.

جاءَ في القرآن: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ الأنعام: ٩٤. وجاءَ فيه: ﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ النحل: ١١١. وجاءَ فيه: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ الأحزاب: ٦٧ - ٦٨. وجاءَ فيه: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ البقرة: ١٦٦ - ١٦٧. وجاءَ فيه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الزخرف: ٦٧.

التَّوغُّلُ في فحْصِ أدلَّةِ المذْهب (العقيدة) أمرٌ لا يُفعَلُ مرَّةً واحدةً لكلِّ الأدلَّة، لتُؤخَذَ بعد ذلك كنتيجةٍ نهائيَّةٍ ثابتةٍ (مستقرَّة). إنَّه من غيرِ المُخالِفِ للقانون أنْ نُثيرَ الشُّكوك؛ لأنَّه إمَّا أنْ يكونَ من الممكنِ الإجابة عنْها بصدْقٍ (بأمانةٍ) عن طريقِ البحْث (التَّحقيق)، أو أنْ يثْبُتَ أنَّ البحْثَ (التَّحقيقَ) لم يكنْ مكتملاً[1].

---

(١) من ثمَّ لا يحِقُّ للمرْءِ من النَّاحيةِ الأخلاقيَّةِ أنْ يقولَ بأنِّي قد بحثْتُ عن الدِّينِ الحقّ، والمذْهبِ الحقّ، ووجدْتُ أنَّه كذا، لذا قرَّرْتُ أنْ أُغلِقَ هذا الملف بنحوٍ نهائي، وأعتقدُ بكلِّ التَّفاصيل المنطوية في هذا الدِّين أو المذْهب الذي وجدْتُ أنَّه حقٌّ. بل الصَّحيحُ هو أنْ تبقى حياتُهُ سعياً دؤوباً وبحثاً مستمرَّاً عن الحقّ، وإنْ وصَلَ إلى الدِّينِ أو المذْهبِ الذي وجدَهُ حقَّاً، فلا بدَّ أنْ يُبْقي ملفَّ البحْثِ مفتوحاً؛ فقد يكتشفُ لاحقاً أنَّ ديناً أو مذْهباً آخرَ أقربَ للحقِّ. وقد يجدُ أنَّ بعضَ التَّفاصيل في هذا الدِّين أو المذْهب لا ترْتكزُ على أُسسٍ متينة. إذن لا بدَّ أنْ يظلَّ الإنسانُ مسافراً نحو الحقِّ والحقيقة، لا يستهدفُ سواها، ولا يرْغبُ بالوصولِ إلا إليها، دون كَلٍ أو ملَل، إلى أنْ يهتدي إلى الصِّراطِ المستقيم، ليستمرَّ في السَّيرِ عليه.

أقول: هذا ما ربِّي عليه القرآنُ أتباعَهُ، عندما تحدَّثَ داعياً اللهَ بلِسانِهِم (ثمَّ أمَرَ الإسلامُ بأنْ تُكرَّرَ هذه العبارات دائماً في كلِّ صلاة): ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾

"ولكن"، يقولُ أحدُهُم، "أنا رجُلٌ مشْغولٌ؛ ليس لديَّ وقتٌ للدِّراسةِ المُطوَّلةِ التي هي ضروريَّةٌ لتجعلني مؤهَّلاً للحُكْمِ على تساؤلاتٍ

الفاتحة: ٦ - ٧، فالهدايةُ ليستْ أمراً ناجزاً، وإنَّما هي حركةٌ مستمرَّةٌ دؤوبة، تستهدفُ استكشافَ الصِّراط أوَّلاً، وتستهدفُ الاستقامةَ والاستمرارَ في السَّيرِ على هدْيِهِ ثانياً، وتتفادى الجحودَ والتَّعنُّتَ في رفْضِ الحقِّ ثالثاً (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ)، وتتفادى حالةَ التَّيهِ والضَّياعِ رابعاً (وَلَا الضَّالِّينَ).

أيضاً القرآنُ أشارَ إلى ذلك في قصَّةٍ ذاتِ دلالةٍ عظيمةٍ، وهي رحلةُ إبراهيم عليه السلام نحو الحقِّ، فقد جاءَ فيه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ الأنعام: ٧٥ - ٨٣.

معيَّنة، أو حتى تعطيني القُدْرةَ على استيعابِ طبيعة الحُجَج (الأدلَّة)"[١].

---

(١) فمنْ يسْعى إلى الحقِّ والحقيقة، ويرى أنَّ الظَّفرَ بها أو الاقترابَ منها، له قيمةٌ عظيمةٌ لا تُقدَّر بكنوزِ الدُّنيا، سيجعلُ هذا الأمرَ أولويَّةً في حياتِهِ، ولنْ يقولَ في نفْسِهِ: "أنا رجُلٌ مشْغولٌ، ولديَّ مسئوليَّات والتزامات كثيرة، ولا وقتَ عندي لهذا البحْث"، بل لا بدَّ أنْ يجعلَ هذا السَّعيَ جزْءاً أساسيًّا من حركتِهِ في الحياة، ليحمي نفْسَهُ من الوقوعِ في الأوهامِ والأباطيل.

أقول: لكن من غيرِ العملي (بل ممَّا يتنافى مع الإنصافِ أيضاً) إلزامُ كلّ إنسان عاقل، مهما تواضعتْ قدراتُهُ الذِّهنيَّة، بالتَّخصُّصِ في هذه المجالاتِ التي تتطلَّب قدرةً خاصَّةً على التَّجريد، ودُرْبةً على التَّفكيرِ المنْطقي.

نعم، لا بدَّ أنْ يسْعى إلى ذلك بقدْرِ الوسْعِ والطَّاقة. والقرآنُ أكَّدَ على أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا ينْتظِرُ من الإنسانِ أكثرَ من وِسْعِهِ وطاقتِهِ، فهو الذي خلَقَهُ، وهو أعرَفُ بطاقاتِهِ المحدودة، وقُدُراتِهِ المتواضعة، لكن مع ذلكَ، هو تكفَّلَ بالأخذِ بيدِهِ إلى صراطِهِ المستقيم. لذا جاءَ فيه ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة: ٢٨٦. فمن الطَّبيعي أنْ يشْعُرَ المرْءُ المسئولُ بالتَّقصيرِ، مهما بذَلَ من جُهْدٍ وطاقة، لكن كم هو رائعٌ أنْ تأتي الطَّمأنةُ من اللهِ عزَّ وجلَّ بأنِّي لا أنتظرُ منكَ أكثرَ من ذلك، لذا جاءَ في القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١ وَلَا نُكَلِّفُ

نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ المؤمنون: ٦٠ - ٦٢.
حتى أوضِّحُ وجهةَ نظري النَّقْديَّة تجاهَ كليفورد، خُذْ المثالَ التَّالي:
تارةً يُقالُ لنا "من غيرِ الأخلاقي أنْ ترى بعضَ الدَّوابِّ السَّائرة على الأرْضِ (كالنَّمْلِ مثلاً)، والتي لا يضُرُّكَ وجودُها بشيءٍ، ثمَّ تتعمَّد أنْ تطأها بقدمِكَ لتقتُلَها". في هذه الحالةِ قد لا يختلِفُ على صحَّةِ هذا القول اثْنان.

لكن تارةً أخرى يُقالُ لنا: "من غير الأخلاقي أنْ تمشي على الأرْضِ، وأنْتَ تعلَمْ بأنَّ ثمَّةَ دوابّ تسيرُ على الأرْض، ومن الممكنِ أنْ تطأَها وتقتُلَها دون أنْ تشْعُر، لذا عليكَ قبلَ أنْ تمشي على الأرْضِ أنْ تتأكَّدَ من عدمِ وجودِ دوابّ يمكنُ أنْ تطأَها". هذا القولُ الأخير، لا يشُلُّ حركةَ الإنسانِ في الحياةِ فحسْب (لوجودِ احتمال دائماً تقريباً في وجودِ هكذا دوابّ)، بل يُدْخِلُهُ في أيضاً دوَّامةِ الوسواس القهْري (وهو اضطرابٌ نفْسيٌّ).

الموقفُ السَّويُّ - في تقديري - هو أنْ تتفادى في مشيِكَ الطَّبيعي وطءَ أيَّ دابةٍ تشْعُرُ بوجودِها (فضلاً عن تفادي تعمُّد وطئَها وقتْلَها). ففي مشْيَكَ الاعتيادي، لو رأيتَ أمامَكَ دابَّةً، وأسْعفَكَ زمنُ الرَّجْعِ reaction time على تفاديها، فعليكَ أنْ تتفادى وطئَها.

وهذا هو الموقفُ الأخلاقيُّ المعقول تجاهَ الاعتقادات، وهو أنْ تتفادى تعمُّد الاعتقاد بأيِّ أمرٍ طالما علمْتَ أنَّه لا يرْتكزُ على أُسُسٍ صلْبة، ولو اكتشفْتَ أنَّ اعتقاداً من اعتقاداتِكَ يرْتكزُ على أساسٍ واهٍ تقومُ بهجْرانِهِ أو التَّوقُّف

إذن هذا الفرْد لا وقتَ لديهِ لكي يعْتَقِد.

عن الحكمِ بشأنِهِ. لكن في المقابل، لا تتردَّدُ في الاعتقادِ بما يبدو لكَ أنَّه يستندُ على أدلَّةٍ كافية (في حدودِ الوسْع والطاقة)، فإنْ اكتشفْتَ لاحقاً خطأَهُ تركتَهُ فوراً.

هذا الموقفُ الأخلاقيُّ يتناسبُ مع كلِّ إنسان، مهما تواضعَتْ أو ارتقَتْ قدراتُهُ الفكريَّة.

ثانياً: وزْنُ السُّلْطة

هل سنُصبِحُ إذن مُشكِّكينَ بنحوٍ شامل، نُشكِّكُ في كلِّ شيءٍ، ونخشى دائماً أنْ نضَعَ قدَماً قبْلَ الأخرى حتى نختبرَ شخصيًّاً صلابةَ الطَّريق؟ هل نحرِمُ أنفُسَنا من معونةِ وهدايةِ ذلك الكيان الضَّخم من المعرفةِ الذي يستمرُّ بالاتِّساعِ يوميًّاً في العالَم، لأنَّه ليس نحنُ ولا أيُّ فرْدٍ من الأشخاصِ يُمكِنُهُ ربَّما اختبارَ واحدٍ بالمئةِ منها بواسطةِ تجرِبةٍ مباشرةٍ أو ملاحظة، ولأنَّه لا يمكنُ إثباتُهُ بالكامل إنْ قُمْنا بذلك؟ وهل نسْرِقُ ونكذِبُ لأنَّنا لا نملِكُ خبرةً شخصيَّةً واسعةً بقدرٍ كافٍ لتبريرِ خطأ الاعتقاد بذلك[1]؟

---

(١) ما تقدَّمَ هل يدْفعُنا للشَّكِّ في كلِّ شيءٍ؟ هل يتعيَّنُ علينا أنْ لا نضَعَ قدَماً قبْلَ أخرى إلا بعد أنْ نتأكَّدَ من صلابةِ الأرْضِ التي نمشي عليها؟ كمنْ يمشي على بيْضٍ يخشى أنْ ينكسِر، أو كمنْ يمشي على بُحيرةٍ متجمِّدةٍ يخشى أنْ يضَعَ قدَمَهُ على نقطةٍ ضعيفةٍ منها فيسقُطُ في الماء؟ هل نحْرِمَ أنفُسَنا من معونةِ وهدايةِ المعارفِ الإنسانيَّة التي تتراكم يوماً بعد يوم، لأنَّه ليس بمقدورِنا التَّأكُّد من سلامةِ واحد بالمئةِ منْها (بسببِ ضخامتِها)، لا بتجرِبةٍ

ليس ثمَّةَ خطر عمليّ للتَّبعاتِ التي ستنْتُجُ من العنايةِ الدَّقيقةِ وضبْطِ النَّفْس في موضوعِ الاعتقاد. هؤلاء الذين قاموا بالقسْمِ الأكبرِ تقريباً من واجِبِهم في هذا المجال وجدوا أنَّ ثمَّةَ مبادئ عظيمة، وهي ملائمةٌ جدًّاً لتوجيهِ الحياة، قد تجلَّتْ أكثَرَ فأكثَرَ بما يتناسَبُ مع الرِّعايةِ والصِّدْقِ (الأمانة) التي من خلالِها تمَّ اختبارُها، واكتسَبَتْ من هذا الطَّريق يقيناً عمليًّاً[1]. إنَّ الاعتقادات حول

مباشرةٍ ولا بملاحظةٍ منظَّمةٍ، وحتى لو تأكَّدْنا من سلامةِ هذا القدْر من المعارفِ على المستوى الشَّخصي لا يُمكِنُنا إثباتُ سلامتَها لغيْرِنا؟ لكن هل هذا يُبرِّرُ لنا أنْ نسْرِقَ السَّعادةَ ونكذِبُ على أنفُسِنا وعلى الآخرين لأنَّنا عجزْنا عن إثباتِ خطأ تلك الاعتقادات؟

(١) القدْرُ المؤكَّدُ أنْ لا خطَرَ عمليّ من الاحتياطِ في مجالِ الاعتقادات، فالاحتياطُ - بأنْ لا أعتقدَ إلا بما ينْهض عليه دليلٌ كافٍ - لا ضرَرَ منْه. فأولئكَ الذين سَعَوا لتجسيدِ هذا الاحتياط، ظفروا بمبادئَ مهمَّة مُرْشِدة في الحياة (كتطبيقِ منْهج حسابِ الاحتمالات). وهذه المبادئُ إنْ لم تنْجَح في إيصالِهِم إلى يقينٍ رياضيٍّ (منطقيٍّ) في مجالاتٍ كثيرةٍ من حياتِهِم، فإنَّها نجحَتْ في إيصالِهِم إلى يقينٍ عمليّ (بنحوٍ موضوعي)، وهذا يكفي.

أقول: ما زال كليفورد يُبالِغُ في التشدُّدِ في مسألةِ الاعتقاد بنحوٍ يفوقُ قدْرةَ الإنسانِ العاقلِ على التَّحمُّل. صحيحٌ أنْ لا خطرَ عمليّ (من حيثُ المبدأ) من

الصَّواب والخطأ التي تُوجِّهُ أفعالَنا في تعامُلِنا مع الأفرادِ في المجتمع، وكذلك الاعتقادات حول الطَّبيعة الفيزيائيَّة التي تُوجِّهُ أفعالَنا في التَّعامُلِ مع الأشياءِ المُتحرِّكة وغير المُتحرِّكة، هذه الاعتقادات لا تُعاني أبداً من البحْث (التَّحقُّق)؛ فالأفرادُ بإمكانِهِم العنايةُ بأنفُسِهِم، دون الحاجة إلى دعمٍ بواسطةِ "أفعال الإيمان"، أو صخَبِ (زعيق) المُحامين مدفوعي الأُجرة، أو طمْسِ (التَّشويش على) الأدلَّةِ المُعارِضة[1]. أكثَرَ من ذلك، ثمَّةَ حالاتٍ عديدة يكونُ فيها

الاحتياطِ في مجالِ الاعتقادات، لكن إنْ زادَ الاحتياطُ عن حدٍّ معيَّنٍ فقد يؤدِّي - بتقديري - إلى وسواسٍ قهريٍّ أو إلى حالةٍ نفسيَّةٍ خاصَّة، وربَّما إلى الجنون. لذا لا يُكلِّفُ اللهُ نفْساً إلا وُسْعَها.

(١) الاعتقاداتُ المُتعلِّقةُ بالعُلُومِ الإنسانيَّة (التي تُساعِدُنا على تنظيمِ علاقةِ الفرْد بغيرِهِ من البشر)، والاعتقاداتُ المُتعلِّقةُ بالعُلُومِ الطَّبيعيَّة (التي توجِّهُ أفعالَنا في التَّعامُلِ مع الأشياءِ المُتحرِّكةِ كالفيزياء، وغير المُتحرِّكة كالكيمياء)، لا تُواجِهَ أيَّ مشكلة في مجالِ التَّحقُّق منها. ففيما يتعلَّق بالعُلُومِ الإنسانيَّة، بمقدورِ الإنسان أنْ يُنظِّمَ علاقتَهُ مع أخيهِ الإنسان دون حاجة لتوجيهِ السَّماء (الوحي والدِّين)، أو صُراخ رجال الدِّين ومؤيِّديهِم (الذين يتكسَّبونَ من دفاعِهِم عن الدِّين)، أو التَّشويش على الأدلَّةِ المخالفةِ لرأي المشهور.

من واجِبِنا أنْ نقومَ بفعْلٍ على أساسِ الاحتمالات، على الرَّغْمِ من أنَّ الأدلَّةَ غيرُ كافيةٍ لتبريرِ الاعتقادِ الحالي؛ لأنَّه وبنحوٍ دقيقٍ بواسطةِ مثل هذا الفعْل، وبملاحظةِ ثمارِهِ، فإنَّ الأدلَّةَ التي سيُظفَرُ بها قد تُبرِّرُ الاعتقادَ في المستقبل. لذا لا سبَبَ لدينا للخوفِ من أنْ تُعيقَ عادةُ التَّحقيقِ (البحْث) الواعي أفعالَنا اليوميَّة[1].

أقول: هنا أختلفُ مع كليفورد، فثمَّة فوارق جوهريَّة بين العُلُومِ الإنسانيَّة والعُلُوم الطبيعيَّة (لا يسَع المقامُ لاستعراضِها)، وإنْ أمكنَ القبولُ باستغناءِ الإنسان عن توجيهِ السَّماء في مجالِ العُلُوم الطَّبيعيَّة (بمعنى من معاني الاستغناء)، فلا يمكنُ التَّسليمُ باستغناءِ الإنسان عن توجيهِ السَّماء في مجالِ العُلُوم الإنسانيَّة.

كليفورد وقَعَ هنا - بتقديري - في تناقُضٍ ذاتي، فهو من ناحيةٍ يدْعو إلى عدَمِ الاعتقاد بشيءٍ دون أدلَّة كافية، لكنَّه من ناحيةٍ أخرى يعتقدُ باستغناءِ الإنسان عن توجيهِ السَّماء على مستوى علاقةِ الإنسان مع أخيهِ الإنسان دون أدلَّة كافية (أو على الأقل دون تقديم أدلَّة كافية). فما هي الأدلَّة التي تُبرِّرُ عدم حاجة الإنسان إلى توجيهِ السَّماء في هذا المجال؟!.

(١) فضْلاً عمَّا سَبَق، هناك حالاتٌ كثيرةٌ يتعيَّنُ علينا فيها إتِّخاذُ قراراتٍ على أساسِ الاحتمالات، رغْمَ عدم كفايةِ الأدلَّة. فمثلاً عندما أتَّخِذُ قراراً على ضوءِ خطورة المحتمل (وليس على أساسِ قوَّة الاحتمال)، باجتنابِ الشُّرْب من

لكن لأنَّه من غير الكافي القول "إنَّه من الخطأ أنْ نعتَقِدَ على أساسِ أدلَّةٍ واهية"، دون الكلام عن الأدلَّةِ غير الواهية، فإنَّنا سنمضي الآن لنبْحَثَ تحت أيّ الظُّروف يحِقُّ لنا من الناحيةِ القانونيَّةِ أنْ نعتَقِدَ بشهادةِ الآخرين؛ ومن ثمَّ، فضْلاً عن ذلك، سنبْحَثُ بنحوٍ عامٍّ أكثَرَ متى ولماذا قد نعتَقِدُ بما يتجاوز خبرتَنا الخاصَّة، أو حتى يتجاوز خبْرَةَ بني الإنسان[١].

كأسٍ يقعُ ضمْنَ عشرة كؤوس أعلَمُ إجمالاً أنَّ أحدَها مسْمومٌ، فهذا القرارُ هو بحدِّ ذاتِهِ عقلانيٌّ ورشيدٌ، وستتجلَّى وجاهتُهُ أكثر إذا انكشَفَ أنَّ الكأسَ الذي هممْتُ بشُرْبِهِ كان هو المسْموم فعلاً. فمن خلالِ ثمارِ القرار المُتَّخذ، قد يُكتشَفُ وجاهةُ القرار، حتى لو لمْ تكنْ لدينا معطيات كافية تُحدِّدُ لنا الكأسَ المسْموم. لذا لا داعيَ للخوفِ من ممارسةِ الاحتياط في الاعتقادات؛ لأنَّنا عندما نُقرِّرُ الاعتقادَ أو عدَمَ الاعتقاد بأمرٍ ما، فإنَّنا نمتلِكُ آليَّات ومبادئ في أذهانِنا تُوجِّهُنا لاتِّخاذِ القرارِ السَّليم.

(١) لا يكفي أنْ نقولَ "من الخطأِ الاعتقاد على أساسِ أدلَّةٍ تافهة"، دونَ أنْ نتحدَّثَ عن الأدلَّةِ غير التافهة (المتينة). لذا سنُكمِلُ كلامَنا الآن ونبحث ما يلي: تحت أيّ ظروف وملابسات يحِقُّ للإنسانِ من النَّاحيةِ المنْطقيَّةِ أنْ يعتقدَ بشهادةِ testimony الآخرين، أي بإخباراتِهِم وما ينقلوهُ لنا. وسنبحَثُ

إذن لنتَساءَل أوَّلاً، في أيِّ الحالات تكونُ شهادةُ الفرْدِ غيرَ جديرةٍ بالاعتقاد؟ قد يقولُ ما هو غيرُ صادق (مطابقٍ للواقع) إمَّا بعلْمٍ أو بغيرِ علْم. في الحالةِ الأولى هو يكذِب، وشخصيَّتُهُ الأخلاقيَّةُ

أيضاً السُّؤالَ التَّالي: متى ولماذا قد نعتَقِدُ بما يتجاوز خبرتَنا الخاصَّة، أو حتى يتجاوز الخبْرة الإنسانيَّة عموماً.

أقول: يستمرُّ كليفورد في استخدامِ مصْطلحاتٍ مفتاحيَّةٍ، مثل "أدلَّة كافية" و"أدلَّة تافهة"، و"أسُس موضوعيَّة"، و"أسُس واهية"، دون أنْ يُحدِّدَ لنا بنحوٍ دقيقٍ متى تكونُ الأدلَّةُ كافيةً أو تافهةً؟ ومتى تكونُ الأسُسُ موضوعيَّةً أو واهيةً؟ وماذا لو اختلفَ المُتلقُّونَ لتلك الأدلَّةِ في تقييمِهِم لها، فرأى بعضُهُم أنَّها كافيةٌ للاعتقادِ ورأى البعضُ الآخر أنَّها تافهةٌ؟ أو اختلفوا فرأى بعضُهُم أنَّها أسُسٌ موضوعيَّةٌ ورأى البعضُ الآخرَ أنَّها زاخرةٌ بالتحيُّزاتِ الذَّاتيَّة؟.

أما المعايير التي سيطْرَحُها بعد قليلٍ بقولِهِ: "لا بدَّ أنْ تكونَ لدينا أسسٌ معقولةٌ للوثوقِ بصدْقِهِ، بأنَّه يُحاولُ بالفعْلِ أنْ يتكلَّم بالصِّدْقِ بقدْرِ ما يعرف؛ أنَّ معرفتَهُ تحكي ما أُتيحَتْ له من فُرَصٍ لمعرفةِ حقيقةِ الأمر؛ وأنَّ حُكْمَهُ حاكٍ عن استخدامٍ مناسبٍ لتلكَ الفُرَصِ للوصولِ إلى النَّتيجةِ التي يؤكِّدُها"، فلا بأسَ بها، لكنَّها تظلُّ غير مُحدَّدة بدقَّة، ومقتصرة على الشَّهادات (الأخبار المنقولة)، ولا تُجيبُ عن التَّساؤلاتِ المتعلِّقة باختلافِ النَّاس في تقييمِ تلك الشَّهادات.

جديرةٌ بأنْ تُذَمَّ؛ وفي الحالةِ الثَّانيةِ هو إمَّا جاهلٌ (ساذج) أو مشْتبهٌ (اشْتَبَهَ الأمرُ عليه)، ولا يكمُنُ الخطأُ إلا في معرفتِهِ (علْمِهِ) أو في حُكمِهِ. لكي يكون لنا الحقُّ في القبولِ بشهادتِهِ كأساسٍ للاعتقاد بما يقول، لا بدَّ أنْ تكونَ لدينا أسسٌ معقولةٌ للوثوقِ بصدْقِهِ، بأنَّه يُحاولُ بالفعْلِ أنْ يتكلَّمَ بالصِّدْقِ بقدْرِ ما يعرِف؛ أنَّ معرفتَهُ تحكي ما أُتيحَتْ له من فُرَصٍ لمعرفةِ حقيقةِ الأمر؛ وأنَّ حُكْمَهُ حاكٍ عن استخدامٍ مناسبٍ لتلكَ الفُرَصِ للوصولِ إلى النَّتيجةِ التي يؤكِّدُها[1].

---

(١) إذن لنطْرَحَ هذا السُّؤال: ما هي الحالات التي يُفترَضُ أنْ نعتبرَ فيها شهادةَ الآخر غير جديرة بأنْ نبني على أساسِها اعتقاداً؟ قد يُخبِرُ الآخرُ بما لا يُطابِق الواقع، وحينئذٍ إمَّا هو يعلَم بأنَّه يُخبِرُ بما لا يُطابِق الواقع، أو لا يعلم.

إنْ كان يعلَم، فهو يتعمَّدُ الكذِب، وشخصيَّتُهُ الأخلاقيَّة جديرةٌ بأنْ تُذَمَّ لأنَّه ارْتكَبَ ما هو قبيحٌ عقْلاً.

وإنْ كان لا يعلَم، فهو إمَّا جاهلٌ يتوهَّمُ أنَّه يعلَم وهو في الواقع لا يعلَم، أو مخطئٌ قد اشْتبَهَت الأمورُ عليه واختلَطت. ولا يكمُنُ الخطأُ إلا في معرفتِهِ أو في حُكْمِهِ على الأمور.

ولكي يكونُ لنا الحقُّ في القبولِ بشهادةِ المُخبِر كأساسٍ للاعتقادِ بما يُخبِرُ عنه، لا بدَّ أنْ تكونَ لدينا أسسٌ معقولةٌ للوثوقِ بأنَّه صادقٌ، وأنَّه يُحاولُ بالفعْلِ أنْ يتكلَّم بالصِّدْقِ بقدْرِ ما يعرف؛ وأنَّه لا يهرِفُ بما لا يعرِف، وأنَّ

رغْمَ أنَّ هذه الأسبابَ قد تبدو بسيطةً وواضحةً، وعلى هذا الأساس ليس ثمَّةَ شخص من ذوي الذَّكاءِ الاعتيادي، يتأمَّلُ في الموضوعِ، يفشَلُ في التَّوصُّلِ إليها، فإنَّه مع ذلكَ من الصَّحيح أنَّ الكثيرَ جدًّاً من الأشخاصِ قد اعتادوا على إهمالِ تلك الأسباب عند وزْنِ (تقييمِ) الشَّهادة.

ثمَّةَ سؤالين على درجةٍ واحدةٍ من الأهميَّةِ فيما يتعلَّقُ بجدارةِ الشَّاهدِ بالوثوقِ به، "هل هو غيرُ صادقٍ؟"، "هل يمكنُ أنْ يكونَ مُخْطِئاً"؟ أغلبيَّةُ بني البشر يشْعُرونَ بالرِّضا الكاملِ إنْ استطاعَ الإنسانُ الإجابةَ بالسَّلْبِ بنسْبةٍ ما. الشَّخصيَّةُ الأخلاقيَّةُ الكاملةُ للإنسانِ قد أدُّعِيَ أنَّها أساسٌ للقبولِ بعباراتِهِ حول أشياءٍ ليس بالمقدورِ

معرفتَهُ التي ينقُلُها لنا تعكِسُ الفُرَصَ التي أُتيحَتْ له لمعرفةِ ما يُخبِرُ عنه الآن، وأنَّ حُكمَهُ واعتقادَهُ يعكِسُ الاستخدامَ العقلاني لتلكَ الفُرَصِ للظَّفرِ بالنَّتيجةِ التي توصَّلَ إليها ويريدُ نقلَها لنا.

أقول: قد يُقالُ بأنَّ المُخبِرَ قد يعلَمُ بأنَّه يُخبِرُ عن ما لا يُطابِقُ الواقعَ، دون أنْ تكونَ شخصيَّتُهُ الأخلاقيَّةُ جديرةً بالذَّمِّ، كما لو كان مضْطرًّاً لذلك أو مُكْرَهاً عليه.

معرفَتُها[١]. على سبيلِ المثال، المُحمَّدي (المُسْلِم)، سيقولُ لنا أنَّ شخصيَّةَ نبيِّهِ كانت نبيلةً جدَّاً ومهيبةً وأنَّها كانت تفرِضُ مهابَتَها

(١) رغْمَ أنَّ الأسبابَ التي يُقدِّمُها لنا المُخبِرُ كأساسٍ لاعتقادِهِ، قد تبدو بسيطةً وواضحةً، بحيث تدْفعُنا لأنْ نعتقِدَ بما اعتقَدَ بأدْنى تأمُّل، يبْقى من الصَّحيح أنْ نقولَ أنَّ أغلَبَ النَّاسِ لا يُركِّزونَ على بحْثِ الأسباب التي دفعَت المُخبِر لأنْ يعتَقِدَ بما اعتقَدَ، وإنَّما يأخُذونَ شهادَتَهُ كما هيَ دونَ تثبُّتٍ وتمحيص. الآن، فيما يتعلَّق بجدارةِ المُخبِر بالوثوقِ بِهِ، ثمَّةَ سؤالينِ مهمَّيْن:

السُّؤالُ الأوَّل: هل المُخبِرُ يتعمَّدُ الكذِب؟

السُّؤالُ الثَّاني: ألا يُحتمَلُ أنْ يكونَ مُخطِئاً قد وقَعَ في اشتباهٍ ما؟

أغلَبُ النَّاسِ يميلونَ للإجابةِ بالسَّلْبِ، ليَنْفُوا أنَّ المُخبِرَ يتعمَّدُ الكذِبَ، وليسْتبعِدُوا احتمالَ الخطأِ والاشتباه في خبرِهِ، حتى يُبرِّروا ميلَهُم لتصديقِهِ. وثمَّةَ ادِّعاء يقولُ بأنَّ المُخبِرَ طالما كان يُجسِّدُ شخصيَّةً أخلاقيَّةً، فمن الطَّبيعي إذن أنْ نفترِضَ أنَّه لا يتعمَّدُ الكذِبَ، وأنَّه لم يُخطئ لأنَّه قبْلَ أنْ يُخبِرَنا بالخبرِ لا بدَّ أنَّه دقَّقَ في صحَّتِهِ. على هذا الأساس، يُمكِنُنا أنْ نقبَلَ بإخباراتِهِ حتى لو لم يكن بمقدورِنا أنْ نعرِفَ صِدْقَها، ومن ثمَّ يُمكِنُنا أنْ نبْنيَ اعتقاداتٍ على أساسِ إخباراتِهِ.

أقول: من الواضِح أنَّ كليفورد يتَّفِقُ هنا مع الفيلسوفِ الأسكتلندي توماس ريد (١٧٩٦م) في أنَّ لدى النَّاسِ ميْلٌ لسُرْعةِ تصديقِ المُخبِر، لكن يختلفُ

حتى على أولئكَ الذين لم يعتقدوا برسالتِهِ[١]. ومن ثمَّ تعاليمُهُ الأخلاقيَّةُ كانت جديرةً بالإعجاب، ضِفْ إلى ذلك بنحوٍ حكيمٍ نظامَهُ الاجتماعي العظيم الذي أحدَثَهُ، بحيث أنَّ أوامِرَهُ لم تكنْ مقبولةً فقط من النِّسبةِ الأعظم من بني البشر، بل كانت مُطاعةً أيضاً في الواقع. مؤسَّساتُهُ من جهةٍ قامتْ بإنقاذِ العبيدِ من العبوديَّةِ، وقامتْ من جهةٍ أخرى بتعليمِ الحضارةِ للغرْبِ المُتقدِّم؛ وعلى الرَّغْمِ من أنَّ الأعراقَ التي تشبَّثَتْ بأرْقى صور إيمانِهِ، وجسَّدَتْ بنحوٍ كاملٍ عقلَهُ وفكرَهُ، قد احتُلَّتْ وجُرِفَتْ بعيداً بواسطةِ القبائلِ البرْبريَّةِ، إلا أنَّ تاريخَ إنجازاتِهِم يبْقى مجداً خالداً للإسلام. فهل سنُشكِّكُ

عنه في أنَّه يرى أنَّ هذا الميْلَ لا يُبرِّرُ الاعتقادَ المرْتكِزَ عليه، فلا بدَّ للاعتقادِ أنْ يرْتكِزَ على أُسسٍ صلْبة، وليس على أساسِ هذا الميْل. في حين أنَّ ريد ذهبَ إلى أنَّ الإنسانَ له الحقُّ في الانسياقِ لهذا الميْلِ ما لم تتوفَّر لديه قرائنَ وشواهدَ تدعوهُ للتَّدقيقِ والتَّثبُّت؛ كالقرائنِ الدَّالَّة على تعمُّدِ الكذِبِ أو الوقوعِ في الخطأ.

(١) **أقول**: لاحظ أنَّ كليفورد هنا ليس بصدَدِ إثْبات بُطْلان مجْمَل أدلَّةِ المسْلِم على عقيدَتِهِ، وإنَّما بُطْلان اعتقادِهِ بنُبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ بناءً على حُسْنِ سيرَتِهِ وإنجازاتِهِ. وسيأتي قريباً (الهامش ٦٢) بيانُ سبب تصديقِ المسلمين وإيمانِهِم بنُبوَّتِهِ ﷺ.

بكلمةِ رجُلٍ بهذه العظمةِ وهذا الصَّلاح؟ هل يُمكِنُنا أنْ نفترِضَ أنَّ هذا العبْقريَّ المهيب، هذا البطَلَ الأخلاقيّ السَّاطع، قد كذَبَ علينا بصدَدِ أكثر الأمور قداسةً وجلالةً؟ إنَّ شهادةَ محمَّدٍ واضحةٌ، هي أنْ لا إلهَ إلا الله، وأنَّه، أي محمَّد، رسولُهُ؛ وأنَّنا إنْ اعتقدْنا بهِما فسنظْفَرُ بسعادةٍ أبديَّة، لكن إنْ لم نعتقِد بهِما فستشْمَلُنا اللَّعْنة. هذه الشَّهادةُ ترْتكزُ على أعظَمِ الأُسُس، وحيِ السَّماء بذاتِهِ؛ لأنَّه ألَمْ يكنْ قد تمَّ زيارتُهُ بواسطةِ المَلَك جبرائيل، عندما كان صائماً قائماً في غارِهِ الصَّحراوي، وسمَحَ له بالدُّخولِ إلى جنَّاتِ الفرْدوس؟ حتماً إذن أنَّ الإلهَ هو الله، وأنَّ محمَّداً رسولُ الله[1].

---

(١) هنا مثالٌ على ما تقدَّم؛ فالمسْلِمُ الذي يستدِلُّ على إيمانِهِ بنبوَّةِ محمَّد، يرْتكزُ على ما يلي:

١. الشَّخصيَّةُ الأخلاقيَّةُ العظيمةُ التي جسَّدَها محمَّدٌ في حياتِهِ، التي يُقِرُّ بها حتى خصومَهُ.

٢. التَّعاليمُ الأخلاقيَّةُ الرَّفيعةُ التي جاءَ بها، التي لا يمكنُ لمُنْصِفٍ أنْ يُنكِرَ روعَتَها.

٣. النِّظامُ الاجتماعيُّ البديعُ الذي أسَّسَهُ، والذي فرَضَ نفْسَهُ حتى على غيرِ المسلمين.

٤. مؤسَّساتُهُ التي أنقذَت العبيد، وعلَّمت الغرْبَ الحضارةَ.

وعلى الرَّغمِ من أنَّ أصحابَهُ (أو أهلَ بيتِهِ) الذين كانوا على درجةٍ عاليةٍ من الإيمان، وجسَّدوا تعاليمَهُ وفكرَهُ، جاءتْ القبائلُ البرْبريَّةُ لتجرِفَهُم وتتجاوَزَهُم، إلا أنَّ مجْدَ الإسلام بقِيَ خالداً بإنجازاتِهِم.

على ضوءِ ما مرَّ، هل يمكنُ أنْ نُشكِّكَ بكلمةِ رجُلٍ بهذه الدَّرجةِ من العظَمةِ والصَّلاح؟ هل يمكنُ أنْ يطرأَ ببالِ أحدٍ أنَّه قد كذَبَ علينا فيما يتعلَّق بأكثرِ الأمور قداسةً وجلالةً، أعني أخبارِ السَّماء؟

إنَّ طلَبَ محمَّدٍ كان بسيطاً وواضحاً، هو أنْ يتمَّ التلفُّظُ والاعتقادُ بالشَّهادتينِ: "أنْ لا إلهَ إلا الله، وأنَّه رسولُ الله". ففي التلفُّظِ والاعتقادِ بالشَّهادتينِ نظفَرُ بالسَّعادةِ الأبديَّة، وإلا فستحِلُّ علينا اللَّعْنة.

يقولُ كليفورد، شهادةُ محمَّدٍ ترْتكزُ على أعظمِ الأُسُسِ وأخطَرِها، ترْتكزُ على وحي السَّماء بنفسِهِ؛ ألَمْ ينْزِل عليه الملَكُ جبرائيل عندما كان في غارِ حِراء؟ ألَمْ يسْمَح له بدُخُولِ الجنَّةِ عندما اصطحبَهُ في المعراج؟ إذن على ضوءِ ما مرّ (هكذا يعتقدُ المسْلِمُ وفقاً لاستعراضِ كليفورد)، صحَّ القولُ أنْ لا إلهَ إلا الله وأنَّ محمَّداً رسولُ الله.

أقول: يبدو أنَّ كلامَ كليفورد موجَّهٌ بالدَّرجةِ الأولى إلى العالَمِ المسيحي، لكنَّه تفادى استفزازَ المسيحيِّين من خلالِ ضرْبِ المثَل بموقفِ المسْلِم (الذي كان يُقالُ له في أوروبا قبْلَ قرونٍ "محمَّدي") كنموذجٍ على الجهْلِ وسرْعةِ التَّصديقِ والاتِّباعِ الأعمى، مع أنَّ القرآنَ لطالما حضَّ البشَرَ على البحْثِ والتَّمحيصِ

والتَّدبُّرِ وإعمالِ العقْل، ونَدَّدَ بالجهْلِ والعمَلِ بالظَّنِّ والتخرُّصِ والاتِّباعِ الأعمى للآباء (لكن هل التزَمَ المسلمون بتوجيهاتِ القرآن؟ هذا أمرٌ آخر. لذا أُدافِعُ هنا عن الإسلامِ، لا عن المسْلِمين).

عموماً، استعراضُ كليفورد لموقفِ المسْلِم العَقَدي ينطوي على بعضِ الثَّغرات، يمكنُ تلخيصُها بالنّقاطِ التَّالية:

١. صحيحٌ أنَّ المسْلِمَ يستدِلُّ (من ضمْنِ ما يستدِلُّ به على نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ)، بشخصيَّتِهِ العظيمة، وتعاليمِهِ الأخلاقيَّةِ الرَّفيعة، ونظامِهِ الاجتماعي الذي يحتوي على تشريعاتٍ عميقةِ المضامين والدَّلالة والتَّأثير، وبالتَّغيُّرِ الثَّقافي الشَّامل الذي أحدَثَهُ في مجتمعٍ جاهليٍّ مُتخلِّفٍ غارِقٍ إلى أُذُنيهِ في تقديسِ وعبادةِ الأوثان.

٢. لم يتَّضِح لي من عباراتِ كليفورد من هُم الذينَ جسَّدوا تعاليمَهُ التي تمَّ تجاوُزها لاحقاً من القبائلِ البرْبريَّة، هل هُم أصحابُهُ؟ أم أهلُ بيتِهِ؟ ومن هي القبائل البرْبريَّة التي جرَفَتْ بعضَ إنجازات أولئكَ الذين جسَّدوا تعاليمَهُ، هل هم القبائل التي ارتدَّتْ بعد وفاتِهِ (وهدَّدَت الإسلامَ في وجودِهِ فيما يُعرَف بـ "حروبِ الرِّدَّة")؟ أم بعض بطون قريش التي استولَتْ على السُّلْطةِ وهيمنَتْ عليها واحتكرَتْها ثمَّ توارثتْها، كبني أميَّة وحُلفائِهِم؟ أم غير هذا وذاك؟

٣. صحيحٌ أنَّ النَّبيَّ محمَّداً ﷺ طالَبَ بالتلفُّظِ بالشَّهادتينِ والاعتقادِ بمضمونِها (وهذا له مُبرِّراتُهُ، فالإيمانُ بنُبوَّتِهِ يستبطنُ الإيمانَ بسلْسلةٍ من المعارفِ المهمَّةِ جدَّاً في نظرِهِ)، لكن لم يقُل أنَّ مجرَّدَ التلفُّظ بالشَّهادتينِ

والاعتقاد بمضمونِها يضْمَنُ السَّعادةَ الأبديَّة؛ فما فائدةُ الاعتقاد بالشَّهادتينِ إنْ لم يتجسَّد على هيئةِ أعمالٍ صالحةٍ تصْدُرُ من ينْبوعٍ طاهرٍ وقلْبٍ نقيّ؟

لذا، لطالما أكَّدَ القرآنُ على الإيمانِ والعمَلِ الصَّالِح، وقرَنَ بينهما جنْباً إلى جنْب (ورَدَ الاقترانُ بينَهُما في القرآنِ في أكثر من ٥٠ آية). بل حذَّرَ القرآنُ المسلمينَ أيضاً (فضْلاً عن أهلِ الكتاب) من هذا النَّمطِ من التَّفكير؛ بأنْ لا يتوهَّموا أنَّ التمسُّكَ باعتقادٍ ما، بمجرَّدِهِ (دونَ القيام بعملٍ صالحٍ، أو حتى مع ارْتكابِ العمل السيِّء)، سوف يُؤدِّي إلى النَّجاةِ في الآخرة. فقال: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ النساء: ١٢٣.

٤. صحيحٌ أنَّ النَّبيَّ محمَّداً ﷺ طالَبَ بالتلفُّظِ بالشَّهادتينِ والاعتقادِ بمضمونِها، إلا أنَّ القرآنَ لم يدَّعِ أبداً أنَّ الباحثَ عن الحقِّ الذي لم تتبيَّن له صحَّةُ نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ مستحقٌّ للَّعْنةِ.

نعم، القرآنُ لم يتوعَّد من يرْفُض الاعتراف بنُبوَّتِهِ باللَّعْنةِ إلا إذا كان رفضُهُ جُحُوداً للحقِّ من بعدِ ما تبيَّنَ له صحَّةَ هذه النُّبوَّة، بحيث يكون رفضُهُ عن علْمٍ وبيِّنةٍ وكِتْمانٍ للحقِّ.

لذا جاءَ في القرآن: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ البقرة: ١٠٩. وجاءَ فيه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا

ماذا يسَعُنا أنْ نُجيبَ هؤلاءِ المحمَّديِّين (المسْلِمين)؟ أوَّلاً، لا شكَّ، علينا أنْ نُحاوِلَ الاعتراض على نظْرَتِهِ لشخصيَّةِ النَّبيِّ والتَّأثيرِ المفيدِ المُطَّرِد للإسلام: قبْلَ أنْ ندْخُلَ معَهُ في نقاشِ هذه الأمور، قد يبدو أنَّ علينا أنْ نتناسى الكثيرَ من الأمورِ المُروِّعةِ التي سمِعْناها أو قرأْناها. لكن لو اخترْنا أنْ نُسلِّمَ معَهُ بهذه الافتراضات كلِّها، على سبيلِ الجدل، ولأنَّه من الصَّعْبِ على كلٍّ من المؤمنِ والكافِرِ أنْ يُناقشوا هذه الافتراضات بإنْصافٍ ودون عاطفة، فسيبْقى لدينا شيءٌ ما نقولهُ يهدِمُ أساسَ اعتقادِهِ، لذا سيتبيَّنُ لنا أنَّه من الخطأِ أنْ

مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ١٤٦. وجاءَ فيه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ آل عمران: ١٨٧. وجاء فيه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ النساء: ١١٥. وجاءَ فيه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ محمد: ٢٥. وغيرها كثير. فاللَّعْنةُ مختصَّةٌ بمن يجْحَد عن علْمٍ، من بعدِ ما تبيَّنَ له الحقُّ.

٥. النُّقطةُ المركزيَّةُ في الإيمانِ بنبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ لم يظْفر بها كليفورد، وسيأتي بيانُها، وإنْ كان فيما ذكرَهُ من قرائنَ وشواهِدَ له أهميَّةٌ بالغة.

نُرحِّبَ به (بهذا الاعتقاد)[١]. أعني ما يلي، شخصيَّةُ محمَّدٍ هو دليلٌ بديعٌ على أنَّه صادقٌ وأنَّه ينطِقُ بالحقيقةِ بقدرِ ما عرَفَها؛ لكن لا

---

(١) الآن ماذا عسانا أنْ نُجيبَ هؤلاءِ المسْلِمين؟ أوَّلاً، ثمَّةَ معلومات مسْبقة عندنا حول شخصيَّةِ محمَّد، لا تنْسجِمُ مع تلك الصُّورةِ الرَّائعةِ التي رَسَمَها لنا ذلك المسْلِم، كما أنَّها لا تنْسجِمُ مع دعواهُ بأنَّ الإسلامَ كان مفيداً للبشريَّةِ على طولِ الخطّ.

لكن حتى ندْخُلَ مع المسْلِمِ في حوارٍ، لا بدَّ أنْ نتناسى الكثيرَ من الأخبارِ المُروِّعة التي سمِعْناها وقرأناها عن محمَّدٍ والمسلمين (كالمجزرةِ التي ارْتَكَبَها بحقِّ بني قريظة، وتزوُّجِهِ من عائشة وهي صغيرة السِّنّ، وتزوُّجِهِ من زينب بنت جحْش طليقةِ ابنِهِ من التبنِّي زيد بن حارثة، وتزوُّجِهِ من صفيَّة بنت حيي بن أخطب بعد مقتَلِ أبيها، وتعدُّدِ زوجاتِهِ عموماً، وإهدارِهِ لدَمِ بعضِ المُرْتدِّين والمُعارِضين. ناهيكَ عن أفعالِ المسلمين المُروِّعة في الفتوح، من قتْلٍ وسبيٍّ وتدميرٍ وحرْقٍ للمكتباتِ، كمكتبةِ الاسكندريَّة). لكن من الصَّعْبِ أنْ نبدأَ مع المسْلِمِ بخدْشِ صورةِ محمَّدٍ منذُ البداية؛ لأنَّهُ من الصَّعْبِ على المؤمنِ بنُبوَّتِهِ والكافرِ بها أنْ يُناقشوا هذه الأمور الحسَّاسة برويَّةٍ دونَ انفعال. لذا ثمَّةَ طريقٌ آخر، يبدو أقصَرَ وأكثَرَ تأثيراً، يهدِمُ أساسَ اعتقادِهِ بنُبُوَّةِ محمَّد. لذا سيتبيَّنُ لنا من خلالِ ما سيأتي أنَّ من الخطأِ أنْ نُرحِّبَ بالاعتقادِ بنُبوَّتِهِ.

أقول: ثمَّة ملاحظات سريعة على هذا المقْطعِ من كلام كليفورد، وهي ملاحظات تتطلَّبُ شرْحاً وتفصيلاً لا يسعُهُ المقام:

١. دفاعي هنا عن الإسلامِ ومحمَّد ﷺ، وليس عن المسلمين. فكاتِبُ هذه السُّطور ليس معنيّاً بتبريرِ سُلُوكِ المسلمين، وهو يرى أنَّ الإسلامَ قد اختُطِفَ بعد النَّبيِّ محمَّد ﷺ. لذا لا أدَّعي أنَّ ما يُنْسَبُ إلى الإسلامِ كان مفيداً للبشريَّةِ على طولِ الخطّ، لأنَّ الإسلامَ لُبِسَ مقلوباً، واتُّخِذَ ذريعةً لتحقيقِ غاياتٍ كانت في أحيانٍ ليست بالقليلةِ دنيئةً. فمن وصَلَ إلى السُّلْطةِ لاحقاً كان من أشدِّ النَّاسِ عداوةً لمحمَّدٍ ﷺ في الجاهليَّةِ، وكان هؤلاء أشدُّ ضرراً على الإسلامِ ومحمَّدٍ ﷺ وأهلِ بيتِهِ عليهم السلام، من ضرَرِهِم على البشريَّةِ عموماً. لنْ أُدافِعَ عن أفعالِ المسلمين، فكثيرٌ منها لا يمكنُ تبريرُهُ على الإطلاق. وقد كان أهلُ بيتِ محمَّدٍ عليهم السلام أكثر من دفَعَ غالياً ثمنَ الانحراف عن خطِّ الإسلام. وفاجعةُ كربلاء تشْهَدُ على ذلك.

٢. كُلُّ الأخبارِ المُروِّعة التي سمِعَها كليفورد (وغيرُهُ من الأوروبيِّين) إنَّما مصدرُها التُّراث (ككُتُبِ التَّاريخ والسِّيرةِ والحديثِ والتَّفسير)، الذي تفنَّنَ في تشويهِ صورة النَّبيِّ محمَّد ﷺ، والذي كُتِبَ تحت إشراف أعداء محمَّد ﷺ في الجاهليَّةِ، كبني أميَّة وأعوانِهِم (كعُرْوةِ بن الزُّبير وابنِ شهاب الزُّهْري)، وتحالَفَ معهم بعضُ اليهود (ككعبِ الأحبار ووهب بن منبِّه) وبعضُ المسيحيِّين (كالأخطل وسِرْجون وحفيدِهِ يوحنَّا الدِّمشْقي).

٣. الأخبارُ المروِّعةُ التي يُشيرُ إليها كليفورد – وسردْتُ بعضَ الأمثلةِ عليها بين قوسين – توجدُ بحوثٌ مفصَّلةٌ تدْحَضُها، ولسْتُ في مقامِ التَّفصيل؛ لكن يكفي أنْ تلْتفِتَ إلى أنَّ الغرْبَ لم يتعرَّف على الإسلامِ إلا من خلالِ بني أميَّة. فبنو أميَّة، وشيعتُهُم من أمثالِ يوحنَّا الدِّمشْقي، كان لهم دورٌ أساس في رسْمِ صورةِ النَّبيِّ محمَّد ﷺ في ذهنِ الغرْبِ المسيحي، حيثُ استمرَّت هذه الصُّورةُ لقرونٍ طويلةٍ راسخةً في الأذهان. فمنطقةُ التّماس والالتقاء الحضاري بين المسلمين والمسيحيِّين (الغرْب) كانت تتمثَّلُ في بلادِ الشَّام. ويوحنَّا الدِّمشْقي (حفيد سِرْجون) كان وزير ماليَّة عبد الملِك بن مروان، وابنه الوليد بن عبد الملِك، ولم يكنْ إنساناً عاديّاً، بل كان مرْجعاً من مراجِعِ الدِّينِ النَّصْراني. مثلاً، كتاب "آباء الكنيسة" (The Fathers Of The Church)، الذي يضُمُّ مجموعةَ مؤلَّفات يوحنّا الدِّمشْقي، يحتوي على كتابٍ صغيرٍ بعنوان "الهراطقة"، يتحدَّثُ عن الهرْطقاتِ التي ظهرتْ بعد المسيحِ بنِ مريم عليه السلام، ومن ضمْنِ هذه الهرطقات يُخصِّصُ فصْلاً بعنوان "هرْطقة الإسماعيليِّين"، يقصُدُ بها النَّبيَّ محمَّد ﷺ. فيتحدَّث في عشْر صفحاتٍ تقريباً عن النَّبيِّ محمَّد ﷺ والقرآن. وقسْمٌ معتدٌّ به ممَّا ذكرَهُ في هذا الموضِع موجودٌ بنفْسِهِ في التُّراث، تداوَلَهُ بعضُ القصَّاصين، مليءٌ بتفاصيل تُشوِّهُ صورةَ النَّبي ﷺ. وقسْمٌ من ذلك، اتَّخذَهُ بعد ذلك المستشرقون أساساً لضرْبِ نبوَّةِ النَّبي ﷺ والقرآن.

مثال ذلك: قصَّة زينب بنْت جحش، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ (والعياذُ بالله) كان قد عشَقَها، عندما كانت امرأةً متزوِّجةً من ابنِهِ بالتّبَنِّي زيد بن حارثة. ويذكرُ

دليلَ على الإطلاق على أنَّه قد عرَفَ ما كانت عليه الحقيقةُ. فما هي الأداةُ التي كان يمتلِكُها لمعرفةِ أنَّ الشَّكلَ الذي ظهَرَ له على أنَّه الملَكُ جبرائيل لم تكنْ هلْوسةً، وأنَّ ما ظهَرَ له على أنَّه زيارةٌ للفرْدوسِ لم يكن حُلْماً؟ لنُسلِّمَ بأنَّه بنفْسِهِ كان مقتنعاً تماماً ويعتقدُ بصدْقٍ بأنَّه كان مهدِيّاً من السَّماء، وأنَّه كان وسيلةً لوحيٍّ يتجاوزُ عالَمَ الطَّبيعة، فكيف استطاعَ أنْ يعرِفَ أنَّ هذه الاقتناعَ القويَّ لم يكنْ خاطئاً؟ دعونا نضَعُ أنفُسَنا مكانَهُ؛ سنجِدُ أنَّه كُلَّما تعمَّقْنا أكثرَ فيما جالَ في ذهنِهِ، سنُدْرِكُ بوضوحٍ أكثرَ أنَّ النَّبيَّ لم تكنْ له أرضيَّةٌ كافيةٌ للاعتقادِ بوحيِهِ الخاصّ. فالأكثرُ ترجيحاً أنَّه هو نفْسُهُ

يوحنّا الدِّمشْقي هذه القصَّةَ بشكلٍ فيه الكثير من الإدانةِ والاستهجانِ والاستهزاءِ والنَّظْرةِ الدُّونيَّة. وهي بالأساس قصَّةٌ مختلقةٌ رواها القصَّاصون!

٤. من الواضح أنَّ الصُّورةَ الخلْفيَّةَ المسْتتِرَةَ في ذهنِ كليفورد، المؤثِّرةَ في لا وعيه، هي تلك الصُّورة التي حاولَ استبعادَها من النِّقاش، والتي عبَّرَ عنها بـ "المُروِّعة التي سمِعْناها أو قرأْناها". ولا بأسَ في استبعادِها من النِّقاش، لأنَّها - في نظرِنا - مشوَّهةٌ جدّاً، ولكونِها تُعيقُ انطلاقَ النِّقاش، لكنَّها مع الأسفِ تلْعبُ دوراً خفيّاً سلْبيّاً في لا وعي من يؤمِنُ بهذه الصُّورةِ المشوَّهةِ أو يُرجّحُ صحَّتَها.

لم يشُكُّ البتَّةَ في هذا الأمر، أو لم يخْطُر على بالِهِ هذا السُّؤال؛ لكن نحنُ في مقامِ أُولئكَ الذين يُوجَّهُ إليهِمُ السُّؤال، وعليهِم أنْ يُجِيبُوا. إنَّه من المعروفِ للملاحظينَ في مجالِ الطِّبِّ أنَّ العُزْلةَ والحاجةَ إلى الطَّعامِ هي أداةٌ قويَّةٌ لإنْتاجِ الوهْمِ ولتعزيزِ الميْلِ للمرَضِ الذِّهني. دعونا نفترضُ، إذنْ، أنِّي أنا، مثْلُ محمَّدٍ، ذهبْتُ إلى الصَّحراءِ للصِّيامِ والقيام؛ ما هي الأشياءُ التي يمكنُ أنْ تحدُثَ لي والتي ستُعطيني الحقَّ لكي أعتقِدَ بأنِّي مُلْهَمٌ بنحوٍ إلهي؟ لنفترِضَ أنِّي ظفرْتُ بمعلوماتٍ، من ضيفٍ سماويٍّ، تبيَّنَ بعد الاختبارِ أنَّها صحيحةٌ. في المقامِ الأوَّلِ، لا يُمكِنُني أنْ أكونَ متأكِّداً بأنَّ هذا الضَّيفَ السَّماويَّ لم يكُنْ من وحي خيالي الخاصّ، وأنَّني لم أتلَقَّ معلومات، مجهولةً بالنِّسبةِ إلى وعيي، عبْرَ قناةٍ خفيَّةٍ من الحسِّ. لكن ضيْفي لو كان ضيْفاً واقعيًّا، وكان يُزوِّدُني منذُ زمنٍ طويلٍ (على طولِ الخطّ) بمعلوماتٍ تمَّ اكتشافُ أنَّها جديرةٌ بالوثوق، فهذا سيكونُ في الحقيقةِ أساساً جيِّداً للوثوقِ به في المسْتقبلِ في مثلِ هذه الأمور التي تقعُ ضمْنَ إطار القوى البشريَّة على التَّحقُّق؛ لكن لا يمكنُ أنْ يكون أساساً للوثوقِ بشهادَتِهِ بأيِّ أمورٍ أخرى. لأنَّه على الرَّغْمِ من أنَّ شخصيَّتَهُ المُختبَرَةَ ستُعطيني مُبرِّراً للاعتقادِ بأنَّه يتحدَّثُ

بالحقيقةِ بقدْرِ ما يعرِفُها، لكن يبْقى السُّؤالُ ذاتُهُ يطرَحُ نفْسَهُ: ما هو أساسُ الافتراض بأنَّه قد عرَف[١]؟ حتى لو كان زائري المُفترَض

(١) أقصُدُ التَّالي: شخصيَّةُ محمَّدٍ الأخلاقيَّة هو دليلٌ متقنٌ على أنَّه صادقٌ، وأنَّه ينطِقُ بالحقيقةِ بقدْرِ ما عرَفَها. لكن لا دليلَ أبداً على أنَّه قد عرَفَ الحقيقةَ كما كانت عليه في الواقع. فربَّما توَّهمَ أنَّه قد عرَفَ الحقيقةَ، وهو في الواقعِ لم يعرِفها.

ثمَّ ما هي الأداةُ المعرفيَّةُ التي كان يمتلِكُها لمعرفةِ أنَّ الصُّورةَ التي ظهَرتَ له - على أنَّها صورةُ الملَك جبرائيل - لم تكنْ هلْوسةً، وأنَّ ما ظهَرَ له على أنَّه زيارةٌ للجنَّةِ لم يكن حُلْماً؟

دعونا نُسلِّمَ بأنَّ محمَّداً بنفْسِهِ كان مقتنعاً تماماً، ويعتقدُ بصدْقٍ بأنَّه كان موجَّهاً من السَّماء، وأنَّه كان رسولاً ووسيلةً لوحيٍّ غيبيٍّ، فكيف استطاعَ إذن أنْ يعرِفَ أنَّ هذه الاقتناعَ القويَّ لم يكنْ خاطئاً؟

دعونا نضَعُ أنفُسَنا مكانَ محمَّدٍ؛ سنجِدُ أنَّه كُلَّما توغَّلنا أكثرَ فيما جالَ في ذهنِهِ، سنُدْرِكُ بوضوحٍ أكثرَ أنَّ محمَّداً لم يكن يمتلِك أرضيَّةً كافيةً للاعتقادِ بأنَّه يتحدَّثُ بتوجيهٍ من السَّماء. فالأكثرُ ترْجيحاً أنَّه هو نفْسُهُ لم يشُكُّ البتَّةَ في هذا الأمر، أو لم يخْطُر على بالِهِ هذا السُّؤال؛ أعني لم يخْطُر على بالِهِ أنَّه يعيشُ جهْلاً مركَّباً، يتوهَّمُ بأنَّه يعرِفُ الحقيقةَ وهو في الواقعِ لا يعرِفُها.

لكن نحنُ الآن في موقعِ أُولئكَ الذين يُوجَّهُ إليهِمُ السُّؤال، ويُثارُ بوجهِهِم هذا التَّشكيك بصحَّةِ نبوَّةِ محمَّدٍ في الواقع، وعليهِم أنْ يُجِيبُوا.

من المعروفِ للمتخصِّصينَ في مجالِ الطِّبِّ النَّفسي أنَّ العُزْلةَ والانفرادَ والوحدةَ من ناحية، والجوعَ والحاجةَ إلى الطَّعامِ من ناحيةٍ ثانيةٍ، هي أداةٌ تهيِّؤُ الأرضيَّةَ النَّفْسيَّةَ لظهورِ الأوهامِ والهلاوسِ والخيالات، وتُعزِّزُ إمكانيَّةَ ظهور ما يُعرَفُ بـ "الذُّهان".

دعوني أفترضُ، أنِّي ذهبْتُ إلى الصَّحراءِ للخلْوةِ والعبادةِ؛ ما هي الأحداثُ التي يمكنُ أنْ تقع لي وتُعطيني الحقَّ في أنْ أعتقدَ بأنِّي مُلْهَمٌ من السَّماء؟ لنفترِضَ أنِّي ظفرْتُ بمعلوماتٍ، من ملَكٍ من ملائكةِ السَّماء، تبيَّنَ بعد الفحْصِ والتَّمحيصِ أنَّها صحيحةٌ. بالدَّرجةِ الأولى، ليست لديَّ أداةٌ لكي أتأكَّدَ بأنَّ هذا الملَكَ كان واقعيَّاً ولم يكُنْ من وحي خيالي الشَّخصي، فلُربَّما تكونُ هذه المعلومات التي تلقَّيتُها، مجهولةً بالفعْلِ بالنِّسبةِ إلى وعيي، لكنَّها كانت قابعةً في اللاوعي، ثمَّ انتقلتْ عبْرَ قناةٍ خفيَّةٍ عنِّي من منطقةِ اللاوعي إلى منطقةِ الوعي. وعلى هذا الأساس، توهَّمتُ بأنَّها من مصْدرٍ سماوي.

لكن هذا المَلَكُ السَّماويُّ لو كان موجوداً واقعيَّاً، وكان يُزوِّدُني على الدَّوامِ ومنذُ زمنٍ طويلٍ، بمعلوماتٍ تمَّ لاحقاً اكتشافُ أنَّها جديرةٌ بالوثوق، ثمَّ تكرَّرَ هذا الأمرُ مرَّاتٍ ومرَّات، في ظُرُوفٍ وملابساتٍ مختلفة، فهذا سيكونُ في الحقيقةِ أساساً جيِّداً للوثوقِ به في المسْتقبلِ، لكن فقط في الأمورِ التي تقعُ ضمْنَ نطاق القوى البشريَّة، والتي يمكنُ للبشَرِ أنْ يتحقَّقوا من صدْقِها

وواقعيَّتِها. ولا يمكنُ أنْ يكونَ ذلك أساساً للوثوقِ بشهادَةِ هذا الملَك بأيِّ أمورٍ أخرى خارِجَ هذا النِّطاق. لأنَّه على الرَّغمِ من أنَّ شخصيَّتَهُ المُتحقَّق من صدْقِها ونزاهتِها ستُعطيني مُبرِّراً للاعتقادِ بأنَّه يتحدَّثُ بالحقيقةِ بقدْرِ ما يعرِفُها، لكن يبْقى السُّؤالُ ذاتُهُ يطرَحُ نفْسَهُ: ما هو أساسُ الافتراض بأنَّه قد عرَفَ الواقِعَ كما هو؟

أقول: يمكنُ إثارةَ سلْسلةً من الملاحظاتِ على هذا المقْطعِ الهامّ من كلامِ كليفورد. ويمكنُ تلخيصُ تلك الملاحظات في النّقاطِ التّالية:

١. عندما يقولُ كليفورد: لا دليلَ أبداً على أنَّ محمَّداً قد عرَفَ الحقيقةَ كما كانتْ عليه في الواقع، فإنَّ كلامَهُ ينطلِقُ من موقفٍ مُفْرِطٍ في الشَّكِّ قد ينْتهي إلى السَّفْسطة، بل بتعبيرٍ أدقّ: كلامُهُ ينطلِقُ من موقفٍ انتقائيٍّ في الشَّكِّ. لأنَّ هناكَ حقائقَ ومعارفَ نعتقدُ بها (ويعتقدُ بها كليفورد كما يبدو من كلامِهِ) اعتقاداً تامَّاً، ومع ذلك لا أدلَّة قطْعيَّة على أنَّها مطابقةٌ للواقع، وأمثلةُ تلك الاعتقادات شهيرةٌ في الحقْلِ الفلْسفي؛ كالاعتقادِ بعقولِ الآخرين (كاعتقادِ كليفورد بأنَّ المُتلقِّين الذين يقرأونَ مقالتَهُ لهُم عقولٌ كعقْلِهِ)، والاعتقادِ بالهويَّةِ الشَّخصيَّةِ والذَّاكرة (كاعتقادِ كليفورد بأنَّه كان هو هو قبْلَ أشْهُرٍ وسنوات، وليس شخصاً آخر، اعتماداً على ذاكرتِهِ)، والاعتقادِ بالعالَمِ الخارجي (كاعتقادِ كليفورد بأنَّ للعالَمِ الخارجي واقعيَّة، فهو ليس وهماً وهلْوسةً). فالاعتقادُ بمثْلِ هذه الأمور هو اعتقادٌ جازم، يستبعدُ الإنسانُ فيه من عقْلِهِ احتمالَ عدم مطابقتِهِ للواقع، مع أنَّ هذا الاحتمالَ لا يمكنُ نفيُهُ منطقيّاً.

إذن إمَّا أنْ نسْمحَ ببعضِ الاعتقاداتِ الأساسيَّةِ، فندَّعي بداهَتَها أو أنَّ ثمَّة مبرِّرات موضوعيَّة كافية تؤيِّدُها (وفقاً لحسابِ الاحتمالات) وإنْ لم تصِل إلى حدِّ الجزْمِ المنطقي بها بنحوٍ لا يمكنُ نفيُ احتمال خلافِهِ، أو نصِلَ إلى طريقٍ مسدودٍ (إنسداد معرفي).

بعبارةٍ أخرى، إنْ لم نقْبَل البداهة، ولم نقْبَل كذلك بحسابِ الاحتمالات، فسنقَعُ في الشَّكِّ المطلقِ والسَّفْسطة.

٢. يتساءَل كليفورد: ما هي الأداةُ المعرفيَّةُ التي كان يمتلِكُها محمَّدٌ لمعرفةِ أنَّ الصُّورةَ التي ظهَرتَ له - على أنَّها صورةُ الملَك جبرائيل - لم تكن هلْوسةً، وأنَّ ما ظهَرَ له على أنَّه زيارةٌ للجنَّةِ لم يكن حُلْماً؟

أقول: هذا السُّؤالُ مشروعٌ تماماً.

والجواب: أنَّ هذه الأداةَ المعرفيَّةَ هي الوحي بنفْسِهِ.

لكن من الواضحِ أنَّ كليفورد يرْفُضُ مسْبقاً احتمالَ وجود أداة معرفيَّة يفتقِدُها الغالبيَّة السَّاحقة من البشر. وهذا الرَّفضُ الجازِمُ لا يمتلِكُ أساساً صلْباً ومُبرِّرات موضوعيَّة، بل إنَّه يُنافي مبادئَ كليفورد نفْسَهُ التي يُطالبُ فيها بأنْ لا يعتقِدَ المرْءُ بأمرٍ طالما لم يقف اعتقادُهُ على أساسٍ صلْبٍ ويستندُ إلى مبرِّراتٍ موضوعيَّة. لتوضيحِ هذه النّقطة الحاسمة، تدبَّر في المثالِ التَّالي:

لنفترِضَ وجودَ قريةٍ، كُلُّ سُكَّانِها من العِمْيان منذُ ولادَتِهم، باستثناءِ شخصٍ واحدٍ بصير. فهم يمتلِكونَ بقيَّةَ الحواس، أعني السَّمْع واللَّمس والشَّم والتذوُّق، لكنَّهُم يفتقدونَ حاسَّةَ البصَر. وذلك الشَّخصُ الاستثنائيُّ بينهم،

يتملِكُ - بالإضافةِ إلى الحواسِّ التي يمتلِكونَها - حاسَّةً إضافيَّةً، هي حاسَّةُ البصَر.

الآن، إنْ قالوا له: "لنْ نعتقدَ بأيٍّ من إخباراتِكَ إلا إنْ كُنَّا قادرينَ على التحقُّقِ منها"، علْماً بأنَّ بعضَ إخباراتِهِ لا يمكنُ التحقُّق منها، كما لو أخبرَهُم عن وجودِ قمرٍ ونجوم مثلاً. فهل يُعتبرُ موقِفُهُم موقفاً عقلانيَّاً؟ هل يرْتكزُ رفْضُهُم لإخباراتِهِ على أساسٍ صلْبٍ ومبرِّراتٍ موضوعيَّة. لو قالوا له: "إما أنْ نمتلِكَ الحاسَّةَ التي تدَّعيها، حتى نتحقَّقَ ممَّا تقول، وإلا فلنْ نعتقِدَ بأيٍّ من إخباراتِك"! فهل هذا الموقفُ ينْسجِمُ مع العقْلِ السَّليم؟

هذا ما اعترَضَ عليه القرآنُ بنحوٍ صريح، حيثُ جاءَ فيه: ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾ المدثر: ٥٢، أي منْبعُ جُحُودِهِم أنَّ كلَّ واحدٍ منْهُم يريدُ أنْ ينزِلَ عليه الوحيُ والصُّحُفُ كما نزلَتْ على محمَّد ﷺ وباقي الأنبياء!

وأيضاً جاءَ فيه: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ الأنعام: ١٢٤. وأيضاً جاءَ فيه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ البقرة: ١١٨.

فالوحيُ أداةٌ معرفيَّةٌ يدَّعي النَّبيُّ أنَّه يتمتَّعُ بها، ونحنُ نفتقِدُها (أو نتملِكُها لكن بدرجةٍ ضعيفةٍ جدَّاً، كمنْ يكون سمعُهُ ضعيفاً إلى درجةِ أنْ يُلْحَقَ بالأصمِّ، أو من يكون بصَرُهُ ضعيفاً إلى درجةِ أنْ يُلْحَقَ بالأعمى).

الحلُّ ليس في أنْ نُنْكِرَ من حيثُ المبدأ ما جاءَ به (كما يدْعو كليفورد)، بل الحلُّ هو أنْ نعثُرَ على طريقةٍ نستطيعُ من خلالِها أنْ نتحقَّقَ من صدْقِ نبوَّتِهِ، وأنَّه لا يُسيءُ استغلالَ افتقادانا لأداةٍ معرفيَّةٍ هو ربَّما يمتلِكُها.

وهذا ما سأُبيِّنُهُ لاحقاً؛ من خلالِ الإخباراتِ الغيْبيَّةِ التي ينْطوي عليها القرآنُ، وكذلك ما استفاضَ نقْلُهُ عن النَّبيِّ محمَّد ﷺ من إخباراتٍ غيْبيَّة، ناهيك عن التَّشابُهِ المُذْهِل بين حزْمةِ المعارف التي يؤمنُ بها أهلُ الكتاب وتلك التي جاءَ بها النَّبيُّ الأميُّ محمَّد ﷺ، الأمرُ الذي يُشيرُ إلى أنَّ مصْدرَ هذه الحزْمة وتلْك واحدٌ، هو السَّماء.

٣.يقولُ كليفورد بأنَّ محمَّداً لم يكنْ يمتلِكُ أرضيَّةً كافيةً للاعتقادِ بأنَّه يتحدَّثُ بتوجيهٍ من السَّماء.

أقول: إنَّ هذه الدعوى هي التي لا تمتلِكُ أرضيَّةً كافيةً للاعتقادِ بها. فالوحيُ بالنِّسبةِ لمحمَّدٍ كان شديدَ الوضوح، كوضوحِ أنَّ للآخرينَ عقولاً بالنِّسبةِ لكَ يا كليفورد، وأنَّكَ أنْتَ أنْتَ لم تتغيَّر هويَّتُكَ ولم تُصبِح شخصاً آخرَ من أمس إلى اليوم اعتماداً على ذاكرَتِك، وأنَّكَ تعيشُ في عالَمٍ واقعيٍّ ولا تعيشُ حُلْماً متَّصلاً.

فما الذي يُبرِّرُ لكَ مثْلَ هذه الاعتقادات، ولا يُبرِّرُ لمحمَّدٍ اعتقادَهُ بالوحي.

بعبارةٍ أخرى، طالما أنَّ الوضوحَ الشَّديدَ عندَكَ قد برَّرَ لكَ اعتقاداتَكَ الأساسيَّة، فلِمَ لا يُبرِّر لمحمَّدٍ اعتقادَهُ بالوحي؟

٤.يقولُ كليفورد بأنَّ الاحتمالَ الأكثر ترْجيحاً هو أنّ محمَّداً كان يعتقدُ بأنَّه يُوحى إليهِ من السَّماءِ إلى حدٍّ أنَّه لم يشُكّ البتَّةَ في هذا الأمر، أو لم يخْطُر على بالِهِ احتمال أنَّه يعيشُ جهْلاً مركَّباً.

أقول: الصَّحيحُ أنَّه لم يشُكّ البتَّة في هذا الأمر، لأنَّ أمرَ الوحي يكونُ شديدَ الوضوح. والطَّريفُ أنَّ هذا الأمرَ لم يخْطُر على بالِ محمَّدٍ ﷺ فحسْب، كاحتمالٍ سيرِدُ على ذهنِ الآخرين، بل إنَّ هذا الوحيَ خاطبَهُ بأنْ يُعالِجَ ورود مثل هذا الاحتمال على الذِّهنِ (على طريقةِ "إيَّاكَ أعني واسْمعي يا جارة"، حيثُ خاطبَهُ قاصداً غيرَهُ) من خلالِ الرُّجوع إلى أهلِ الكتاب، للاستئناسِ بما عندَهُم من بقايا الوحي في كُتُبِهِم المُقدَّسة. لذا جاءَ في القرآن: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ يونس: ٩٤ (للتَّفصيلِ أنظُر: مرتضى فرج، محطات في تاريخ القرآن، ص١٠٧- ١١٠).

٥.صحيحٌ أنَّ العُزْلةَ والجوعَ قد يُهيِّئانِ الأرضيَّةَ النَّفسيَّةَ للأوهامِ والخيالات، لكن قد يُهيِّئانِ أيضاً الأرضيَّةَ لصفاءِ الرُّوحِ ونقاءِ النَّفْس، بحيثُ تُصبِحُ شفافةً، فتدخُلُ في تجارِبَ روحيَّةٍ وقلْبيَّةٍ عميقة. ولهذه التَّجارِب خصائصَ مشْتركة ومتكرِّرة في أغلَبِ الأحيان. وقد قامَ بدراسةِ هذا النَّمط من التَّجارِب عُلماءُ نفْس وفلاسفة، كعالِمِ النَّفْس والفيلسوف الأمريكي وليم جيمس (١٩١٠)، والفيلسوف البريطاني والتر ستيس (١٩٦٧)، وغيرُهُما، ورأوا أنَّها مشْتركةٌ وتكرَّرتْ مع أُناسٍ مرُّوا بهذه التَّجرِبةِ، رغمَ انتمائِهِم لأدْيانٍ

مختلفةٍ، في أمكنةٍ مختلفةٍ، وأزمنةٍ مختلفة (للتَّفصيلِ راجع: مرتضى فرج، أفي الله شك؟ ص٦١- ٧١).

٦. يقولُ كليفورد: ما أدْرانا أنَّ ما جاءَ به محمَّدٌ هو من السَّماءِ فعلاً، فلُربَّما تكونُ هذه المعلومات التي تلقاها، مجهولةً بالنِّسبةِ إلى وعيه، لكنَّها كانت قابعةً في اللاوعي، ثمَّ انتقلَتْ عبْرَ قناةٍ خفيَّةٍ عنِّي من منطقةِ اللاوعي إلى منطقةِ الوعي. وعلى هذا الأساس، توهَّم بأنَّها من مصْدرٍ سماوي.

أقول: جوابي عن ذلك يتلخَّص في النَّقطتينِ التَّاليتين:

أولاً ما الدَّليلُ على أنَّ منطقةَ اللاوعي ليستْ متَّصلةً بالسَّماء؟ لماذا لا نحتملُ على الأقلِّ أنَّ منطقةَ اللاوعي (تلك المنطقة العظيمة المجهولة والقابعة في النَّفْسِ الإنسانيَّة) متَّصلةٌ بنحوٍ أو آخرَ باللهِ تعالى، بحيث أنَّ اللهَ تعالى عندما يريدُ أنْ يوحي للنَّبيِّ، فإنَّ احدى طُرُقِهِ هو أنْ يُخرِجَ ما هو قابعٌ بمنطقةِ اللاوعي عند النَّبيِّ إلى منطقةِ الوعي.

وثانياً عندما يأتي مدَّعٍ للنُّبوَّةِ بأخبارٍ لم يكنْ يعرِف عنْها أيَّ شيءٍ أبداً، بنحوٍ متكرِّرٍ، أو كان يعرِفُ شيئاً عنها إجمالاً ولم يكن يعرِفُ أيَّ شيءٍ عن تفاصيلِها، ثمَّ فجأة يأتي بتلكَ الأخبار مع بعضٍ من أدقِّ تفاصيلِها، دونْ أنْ يُرْصَدَ أيَّ اتصالٍ له بمصْدرٍ أرْضيٍّ، فهنا يكونُ احتمالُ صدْق نبوَّتِهِ جدِّيَّاً جدَّاً.

لذا خاطَبَ القرآنُ النَّبيَّ محمَّدٍ ﷺ عن قصَّةِ يوسُف مع إخوتِهِ فقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾

يوسف: ١٠٢. وخاطبَهُ حول قصَّة مريم فقال: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ آل عمران: ٤٤. وتحدَّى بني إسرائيل في معلومةٍ، كانت مخفيَّةً عن النَّاسِ، مندسَّةً في خبايا التَّوراة، لا يعرِفُها إلا علماءُ بني إسرائيل، فقال: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ آل عمران: ٩٣. وتحدَّى قريشاً بإخبارٍ مستقبليٍّ يتعلَّقُ بغلَبَةِ الرُّوم على الفُرْسِ في بضْعِ سنين، حيثُ جاءَ فيه: ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝١ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الروم: ٢ - ٦. فضلاً عن الأخبارِ المسْتفيضةِ والمعتبرةِ المنقولة عنه ﷺ والتي تتنبَّأُ بحوادِثَ مُحدَّدة:

١. كنُبوءَتِهِ بدُنوِّ أجلِهِ في مواطنَ عديدة؛ ابتداءً من حجَّةِ الوداع، مروراً بيومِ غديرِ خم، وانتهاءً بالأيَّامِ الأخيرةِ من حياتِهِ.

٢. ونبوءَتِهِ لابْنَتِهِ فاطمة عليها السلام بأنهَّا ستكونُ أسْرع النَّاس لُحوقاً به، رغْمَ شبابِها وعدَمِ مرَضِها.

٣. ونبوءَتِهِ لبعضِ أزواجِهِ بنباحِ كلابِ الحَوْأَب (عائشة في طريقِها لمعركةِ الجمل).

٤.ونبوءَتِهِ للزُّبيرِ بأنَّه سيُقاتِلُ عليّاً عليه السلام ظُلْماً، رغْمَ صداقتِهما القويَّة آنذاك والرَّحِم الذي بينها (بقولِهِ: واللهِ لتُقاتِلَنَّهُ وأنْتَ له ظالِم).

٥.ونبوءَتِهِ بظُهورِ شيعةٍ لذي الخويْصِرة يمْرُقونَ من الدِّين كما يمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّة (الخوارج في معركةِ النَّهْروان).

٦. ونبوءَتِهِ لعليٍّ عليه السلام بأنَّه سيموتُ شهيداً وأنَّه ستُخضَبُ هذهِ (لحيتُهُ) من هذهِ (دماءِ رأسِهِ).

٧.ونبوءَتِهِ عن مقْتَلِ الحسين عليه السلام بشطِّ الفرات عند ولادَتِهِ.

٨.ونبوءَتِهِ لعمَّار بأنَّه ستقتُلُهُ الفئةُ الباغية.

كُلُّ هذه النُّبوءاتُ والأخبارُ محدَّدةٌ بدقَّةٍ، وهي مستفيضةٌ، إلى درجةِ أنَّها صارت جُزْءاً لا يتجزَّأ من تاريخِنا، لا يمكنُ فهمُهُ من دونِها، وأثَّرَتْ في سُلُوكِ المعنيِّين بها (يصْعُب شرْحُ هذه النُّقطة في المقامِ رغمَ أهميَّتها)، ووردَتْ في أكثرِ الكُتُبِ اعتباراً عند المسلمين، وأخرَجَها بعد ذلك بعضُ المُحدِّثين كشواهِدَ قويَّة جدّاً على صدْقِ نبوَّةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وآله، في كُتُبِ دلائل النُّبوَّة، كالبيهقي وابنِ كثير، وغيرهما.

ولو احتمَلَ محمَّدٌ صلى الله عليه وآله، ولو مجرَّد احتمال، أنَّ الملَكَ قد كذَبَ عليه أو أخبرَهُ اشتباهاً بهذه المعلومات، لكانَ صلى الله عليه وآله قد ربَطَ كرامتَهُ ومصيرَهُ بالغيْبِ المجهول، وهو يُهدِّدُ مستقبلَهُ بالفضيحةِ إذا ظهَرَ كذْبَهُ في نبوءَتِهِ.

٧. يقولُ كليفورد: المَلَكُ النازِلُ لو كان موجوداً واقعيّاً، وكان يُزوِّدُ محمَّداً بمعلوماتٍ تمَّ لاحقاً اكتشافُ أنَّها جديرةٌ بالوثوق، ثمَّ تكرَّرَ هذا الأمرُ

قد أعطاني معلومات من هذا القبيل، وتمَّ التَّحقُّقُ منها لاحقاً من قِبَلي، بوصْفِها تُثْبِتُ أنَّه يتمتَّعُ بأداةٍ في المعرفةِ حول أمورٍ يمكنُ التَّحقُّق منها وتتجاوز معارفي؛ فهذا لنْ يُعطيني مُبرِّراً للاعتقادِ بما أخبَرَ عن أمورٍ لا يمكنُ التَّحقُّق منها في الوقتِ الحاضِرِ من بني البشر. سيكونُ أساساً لتخمينٍ مثيرٍ، وللأملِ بأنَّه، كثمرةٍ لبحثِنا المُتأنِّي، قد يُمكِنُنا بنحوٍ وآخر اكتساب مثل هذه الأداة للتَّحقُّقِ بحيثُ يكونُ من حقِّنا أنْ نُحوِّلَ التَّخمينَ إلى اعتقاد. لأنَّ الاعتقادَ

مرَّاتٍ ومرَّات، فهذا سيكونُ أساساً جيِّداً للوثوقِ به في المسْتقبلِ، لكن فقط في الأمورِ التي تقعُ ضمْنَ نطاق القوى البشريَّة، والتي يمكنُ للبشَرِ أنْ يتحقَّقوا من صدْقِها وواقعيَّتِها.

أقول: كليفورد اقترَبَ كثيراً من النُّقطةِ الحاسمةِ الحقَّة ثمَّ ابتعدَ عنْها سريعاً. فمن حقِّ الإنسانِ العاقلِ أنْ يُعطي نفْسَهُ فرْصةً كافيةً للتحقُّقِ من صدْقِ المعلومات التي جاءَ بها محمَّدٌ ﷺ عن طريقِ الوحي، لكن إنْ كان ﷺ من المحتمل أنَّه يتمتَّع بأداةٍ معرفيَّةٍ (الوحي) وأنا أفتقِدُها، فكيف لي أنْ أرفُضَ تصديقَهُ بإخباراتِهِ التي تتعلَّقُ بأداتِهِ المعرفيَّةِ التي اختُصَّ بها؟ إنَّ هذا نظيرُ أنْ يرْفُضَ عُميانُ تلك القرية أيَّ خبرٍ يأتي به ذلك البصير (كإخبارِهِ لهُم عن وجودِ القمر والنُّجوم)، بدعوى عدم إمكان التَّحقُّق من إخباراتِهِ. وهذا بتقديري موقفٌ غيرُ عقلانيّ.

ينْتمي للفرْدِ (مُلْكٌ للإنسان)، ولإرْشادِ شئون البشر: لا اعتقادَ واقعيّ إلا إذا كان مُرْشِداً لأفعالِنا، وهذه الأفعالُ تُوفِّرُ فرْصةَ اختبار حقيقتِها (صدْقِها)[١].

(١) حتى لو كان المَلكُ الزَّائرُ المُفترَضُ قد أعطاني معلومات من هذا القبيل، وتحقَّقْتُ بعد ذلك منْها، وأثبتَتْ لي أنَّ الملَكَ يتمتَّعُ بأداةٍ في المعرفةِ حول أمورٍ يمكنُ التَّحقُّق منها وتتجاوز معارفي؛ لكن هذا لنْ يُعطيني مُبرِّراً للاعتقادِ بصدْقِ إخباراتِهِ طالما لا يمكنُ لي ولا لغيري من البشر أنْ يتحقَّقوا من صدْقِها. ومن يدري، طالما أنِّي الآن أُخمِّن صِدْقَ الملَك، فقد يأتي يومٌ أستطيعُ أنْ أتحقَّقَ فيه من صدْقِهِ، بحيث أُحوِّل هذا التَّخمين إلى اعتقادٍ جازم. لأنَّ الاعتقادَ هو مُلْكٌ للإنسان، ووظيفتُهُ الأساسية هي إرشادُ البشر: لا اعتقادَ واقعي إلا إذا كان مُرْشِداً لأفعالِنا، وهذه الأفعالُ تُوفِّرُ فرْصةَ اختبار صدْقِها.

أقول: في الحقيقة، أنا كإنسانٍ اعتيادي، لا يهُمُّني أنْ أعرِفَ كيف تحقَّقَ محمَّدٌ ﷺ من إخباراتِ الملَك الذي أخبرَهُ بما لا يمكنُ للبشَرِ أنْ يتحقَّقَ منه (كوجودِ الجنَّةِ والنَّار مثلاً)؛ أوَّلاً لأنَّ من أهمِّ وظائفِ الملَك المفترض أساساً هو الإخبارُ عن أمرٍ لا يمكنُ للبشَرِ أن يتحقَّقوا منه طالما أنَّهُم على قيْدِ الحياةِ في الدُّنيا.

وثانياً ما يهُمُّني هو التَّحقُّقُ من صدْقِ نبوَّتِهِ، فإنْ ثبتَتْ لي، فلنْ أُشكِّكَ بعد ذلك بما جاءَ به، إلا إنْ شككتُ بنُبوَّتِهِ أصلاً.

لكن قد يُقالُ في جوابِ ذلك، القبولُ بالإسلامِ كنظامٍ هو فقط ذلكَ الفعْلُ الذي تمَّ تعزيزُهُ بالاعتقادِ برسالةِ النَّبيِّ، والذي سوف يُستخدَمُ لاختبارِ حقيقتِهِ (صِدْقِهِ). هل من الممكنِ الاعتقادُ بأنَّ نظاماً استطاعَ تحقيقَ نجاحاتٍ باهرةٍ هو في الواقعِ قد تأسَّسَ على وهمٍ؟ ليس فقط ثمَّةَ أفراد قدِّيسونَ قد وجدوا سعادةً وسلاماً في الاعتقاد، وقد تمَّ التحقُّقُ من تلك الخبراتِ الرُّوحيَّةِ التي كانت واعدةً للمؤمنين، بل حتى أنَّ أُمماً قد ارتقتْ من الهمجيَّةِ أو البرْبريَّةِ

كالأعمى في تلك القريةِ، الذي ثبَتَ عندَهُ من خلالِ أدلَّةٍ كافيةٍ أنَّ المُدَّعي بصيرٌ فعْلاً، وأنَّه يُخبِرُ بما يرى، وأنَّه لا يقْفُ ما ليسَ له بهِ علْم، عندئذٍ ليس من المعقولِ أنْ أُطالِبَ البصيرَ بأنْ يُثبِتَ لي صحَّةَ كلّ ما يُخبِر عنه بالتَّفصيل، أو يشْرح لي بالدقَّةِ منْهجَهُ في التحقُّقِ، لأنَّه يمتلِكُ أداةً معرفيَّةً أنا أساساً لا أمتلِكُها حسْبَ الفرْض.

بل العقلاءُ في أمورٍ أبسَطَ منها لا يفعلونَ ما يُطالِبُنا به كليفورد. فأنْتَ عندما تطمئنُّ تماماً لكونِ طبيبٍ ما مختصٌّ بمرْضٍ تُعاني منه، فليس من المعقولِ أنْ لا تقبلَ قولَهُ إلا إذا أخبرَكَ بنحوٍ تفصيليٍّ عن منْهجِهِ في التَّشخيصِ. نعم، إذا رصدْتَ مؤشِّرات على أنَّه قد ارتكبَ أخطاءً سافرةً معك أو مع غيرِك، فمن حقِّكَ أنْ تُعيدَ النَّظرَ في ثقتِكَ به.

إلى حالةٍ اجتماعيَّةٍ أرقي. نحنُ حتماً أحرارٌ لأنْ نقولَ بأنَّ الاعتقادَ قد تمَّ القيامُ بأفعالٍ على أساسِهِ، وأنه قد تمَّ التحقُّقُ منه[١].

---

(١) المسْلِمُ قد يُدافِعُ عن نفسِهِ ويقولُ في مقامِّ الرَّدِّ: أنتَ يا كليفورد تقولُ: أنْ لا اعتقادَ واقعي إلا إذا كان مُرْشِداً لأفعالِنا، وهذه الأفعالُ تُوفِّرُ فرْصةَ اختبار صدْقِها. ونحنُ نقولُ: هذا ما هو متحقِّقٌ فعْلاً في الإسلام، فالاعتقادُ برسالةِ النَّبيِّ، قد تمَّ تعزيزُهُ واختبارُ صدْقِهِ من خلالِ قبول الشُّعوب بالإسلامِ كنظامٍ اجتماعيٍّ وسياسيّ. والدَّليلُ على ذلك تلك النَّجاحات منقطعةُ النَّظير التي حقَّقها المسلمونَ في عصْرِ الفتوح وما تلاها، من بناءِ حضارةٍ عريقة، فهل يمكنُ الادِّعاءُ أنَّ تلك النَّجاحات كلَّها قد تأسَّستْ على وهمٍ؟

والمسألةُ ليست فقط مسألةَ أنَّ ثمَّة أفراد قدِّيسين قد لمسوا من خبراتِهِم الرُّوحيَّة ثمارَ هذا الاعتقاد، ووجدوا فيه السَّعادةَ والسَّلام، بل إنَّ الأمرَ قد تعدَّى إلى ذلك لنرى أنَّ تغيُّراً اجتماعيّاً هائلاً قد وقعَ لبعضِ الأمم، حيثُ انتقلتْ – بفضْلِ الإسلام – من الحالةِ الهمجيَّةِ والبرْبريَّةِ إلى حالةٍ اجتماعيَّةٍ رفيعة. لذا من حقِّنا أنْ نقولَ بأنَّ الاعتقادَ بنُبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ كان مرْشداً لأفعالِ المسلمين، وعلى أساسِ هذا الاعتقاد أشادوا حضارةً عريقةً، ومن ثمَّ لقد تمَّ التحقُّق من سلامةِ هذا الاعتقاد وصدْقِهِ عمليّاً.

أقول: لا شكَّ أنَّ الإسلامَ قد أحدثَ تغيُّراً اجتماعيّاً وثقافيّاً منقطعَ النَّظير، ليس بين قبائل شبه الجزيرة العربيَّة وأطرافِها، بل حتى عند الشُّعوبِ التي كانت لها حضارتُها العريقة، كمصْرَ والشَّام وتركيا وإيرانَ. لكن لا يمكنُ

مع ذلك، الأمرُ يتطلَّبُ قليلاً من التَّأمُّلِ ليتَّضِحَ أنَّ ما تمَّ التحقُّق منه فعْلاً لم يكنْ أبداً تلك الشَّخصيَّة السَّماويَّة لرسالةِ النَّبيِّ، أو الجدارة بالوثوقِ في سُلْطتِهِ في الأمورِ التي لا يُمكِنُنا اختبارُها

الحكْمُ على صدْقِ اعتقادٍ معيَّنٍ، للقولِ بأنَّه غيرُ موهوم، على نجاحاتٍ تحقَّقتْ على أرْضِ الواقع.

النَّجاحاتُ هي مجرَّدُ مؤشِّرٍ على أمرٍ ما، وليست دليلاً على صدْقِ هذا الاعتقاد أو ذاك. كما أنَّ الفشَلَ أيضاً ليس دليلاً على بطلانِ هذا الاعتقاد أو ذاك.

فها هي المسيحيَّةُ قد انتشرتْ في القرونِ الثَّلاثةِ الأولى من ميلادِ المسيح في العالَمِ كالنَّارِ في الهشيم، وقامتْ على أساسِ الاعتقادِ بصلْبِ المسيح وقيامتِهِ. مع ذلك، نحنُ المسلمون نؤمنُ بأنَّ هذا الاعتقادَ قائمٌ على أساسِ خطأٍ واشتباه، وأنَّ المسيحَ لم يُصْلَب أصلاً حتى يقومَ من موتِهِ.

وأظنُّ بقوَّةٍ أنَّ كليفورد أرادَ في كلامِهِ هذا دحضَ حجَّة الكنيسة التي كانت تستندُ إلى النَّجاحاتِ التي حقَّقتْها المسيحيَّةُ للقولِ بسلامةِ اعتقاداتِها وتعاليمِها.

الخلاصة أنَّ ما أريدُ التَّأكيدَ عليه هنا هو ما يلي: لا النَّجاحاتُ العظيمةُ دليلٌ على صحَّةِ الاعتقاد، ولا الانتكاساتُ الكبيرةُ دليلٌ على بُطْلانِ الاعتقاد. فالنَّجاحُ والفشَلُ في الواقعِ الاجتماعي يرْتكزُ على عواملَ كثيرة ومعقَّدة، ولا يكونُ الاعتقادُ إلا عاملاً واحداً من عواملَ وقوعِهِ.

بأنفُسِنا، وإنَّما هي فقط حكمتُهُ العمليَّةُ في أشياءٍ أرْضيَّةٍ معيَّنة. حقيقةُ أنَّ المعتقدينَ قد وجدوا السَّعادةَ والسَّلامَ في الاعتقادِ تُعطينا الحقَّ بأنْ نقولَ بأنَّ المذْهبَ (العقيدةَ) هو مذْهبٌ مريح، وملائمٌ للرُّوحِ؛ لكنَّها لا تُعطينا الحقَّ بأنْ نقولَ بأنَّها صادقةٌ (مطابقةٌ للواقع). والسُّؤالُ الذي يُثيرُهُ ضميرُنا دائماً هو حولَ ما نعتقِدُهُ هو ليس، "هل هو مريحٌ وجذَّاب؟"، وإنَّما، "هل هو صادقٌ (مطابقٌ للواقع)"؟ وذلك بأنَّ النَّبيَّ الذي يدعو لمذْهبٍ (عقيدة) معيَّن، ويتنبَّأ بأنَّ الرَّاحةَ الرُّوحيَّةَ ستجِدُها فيه، لا يُثْبِتُ سوى انسجامَهُ مع الطَّبيعةِ البشريَّةِ ومعرفتَهُ بها؛ ولا يُثْبِتُ معرفتَهُ الخارقةَ (المتجاوزةَ للمعرفةِ البشريَّةِ) في اللاهوت[١].

(١) رغمَ أنَّ ردَّ ذلكَ المسْلِم قد تبدو له بعضَ الوجاهةِ، لكن عندما نتأمَّلُ قليلاً نجدُ أنَّ ما تمَّ التَّحقُّق منه فعْلاً لم يكنْ أبداً صدْق نبوَّة محمَّد، أو الجدارة بالوثوقِ في سُلْطتِهِ في الأمورِ التي لا يُمكِنُنا أنْ نختبرَها ونتأكَّدَ منها بأنفُسِنا، وإنَّما ردُّ ذلكَ المسْلِم يُثبِتُ فقط حكمةَ محمَّدٍ العمليَّة في مسائِلَ دُنيويَّة معيَّنة (تُثبِتُ مثلاً فهمَهُ السِّياسي العميق، وحكمتَهُ في التَّعاطي مع النَّاس، وذكاءَهُ الاجتماعي). ولنفترِض أنَّ المسلمينَ قد وجدوا السَّعادةَ والسَّلامَ في اعتقادِهِم، فهذا يُثبِتُ أنَّ عقيدَتَهُم سهْلةٌ وسمِحةٌ، وملائِمةٌ للرُّوحِ، لكنَّها لا تُعطينا الحقَّ بأنْ نقولَ بأنَّها صادقةٌ ومطابقةٌ للواقع.

فالسُّؤالُ الذي يُفترَضُ أنْ يُثارَ ليس هو ما يلي: "هل الاعتقادُ سهْلٌ ومريحٌ وجذَّاب؟"، وإنَّما يُفترَضُ أنْ يكونَ هو التَّالي: "هل الاعتقادُ صادقٌ مطابقٌ للواقعِ فعلاً"؟.

بعبارةٍ أخرى، ما ذكرَهُ ذلك المسْلِمُ في ردِّهِ لا يُثْبِتُ سوى انسجامَ عقيدتِهِ مع الطَّبيعةِ البشريَّةِ ومعرفةَ محمَّدٍ بها، لكنَّه لا يُثْبِتُ معرفتَهُ الغيْبيَّةَ المتجاوزةَ للمعارفِ البشريَّةِ الاعتياديَّة.

أقول: كلامُ كليفورد عموماً - بتقديري - صحيحٌ، فكونُ الاعتقاد مريحٌ وجذَّابٌ لا يعني أنَّه صادقٌ ومطابقٌ للواقع، وأنَّ ما يهُمُّنا هو الأمرُ الثَّاني لا الأوَّل.

لكن ثمَّة نقطة نقْدِيَّة: كونُ الاعتقادات والتَّعاليم التي جاءَ بها محمَّدٌ ﷺ تنسجِمُ مع الطَّبيعةِ البشريَّةِ، وكونُها حاكيةً عن معرفةٍ بتلك الطَّبيعة، هذا الأمرُ قد يكشِفُ عن أمرٍ خطير، وهو أنَّ تلك الاعتقادات والتَّعاليمَ قد جاءَتْ ممَّن خلَقَ تلك الطَّبيعة، وهو أعرَفُ بدائِها ودوائِها، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الملك: ١٤، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ فاطر: ١٤. وعلى هذا الأساس، هذا الانْسجامُ بين التَّشريع والتَّكوين، بين التَّعاليمِ والكمالِ الإنساني على المستوى الوجودي، بين الأوامرِ السَّماويَّةِ المؤكَّدة وتحقيقِها للمصالِح، وبين النَّواهي السَّماويَّةِ المؤكَّدة ودورِها في تفادي المفاسِد، كلُّ ذلك قد لا يكشِفُ عن مجرَّدِ حكمةٍ وفهمٍ وذكاءٍ من مدَّعي النُّبوَّة، بل قد يكشِفُ أيضاً عن أمرٍ أعمقَ.

ولو قبِلْنا على سبيلِ الجدَلِ (لأنَّه يبدو أنَّنا لا يُمكِنُنا فعْلُ أكثرَ من ذلك) أنَّ التقدُّمَ الذي أحرزَتْهُ الأُمَمُ المسْلِمةُ في حالاتٍ معيَّنةٍ كانت فعْلاً نتيجةَ النِّظامِ المُتشكِّل والذي قُدِّمَ إلى العالَمِ بواسطةِ محمَّدٍ، فنحنُ غيرُ أحرارٍ لأنْ نستنتجَ من هذا بأنَّه كان موحى إليه ليُعلِنَ الحقيقةَ حول أشياءٍ ليس بمقدورِنا التَّحقُّقَ منها. نحنُ أحرارٌ فقط لأنْ نستنتِجَ كمالَ مبادئِهِ الأخلاقيَّة، أو الأداةَ التي ابتكرَها ليجْعلَ النَّاسَ تُطيعُهُ، أو الآليَّةَ الاجتماعيَّةَ والسِّياسيَّةَ التي أقامَها. وسيتطلَّب الأمرُ قدْراً كبيراً من التَّحقيقِ المُتأنِّي في تاريخِ تلك الأمم لنُحدِّدَ أيَّا من هذه الأشياءِ كان له النَّصيبُ الأكبرُ في المشاركةِ بهذه النَّتيجة. لذا نجِدُ من جديدٍ بأنَّ معرفةَ النَّبيِّ بالطَّبيعةِ البشريَّةِ، وانسجامَهُ معها، هو ما تمَّ التَّحقُّق منه؛ وليس وحيَهُ السَّماوي أو معرفتَهُ اللَّاهوتيَّة[1].

لذا لا يمكنُ التَّقليلُ من شأنِ هذه النُّقطة، وإنْ كانت لوحدِها (بمعزلٍ عن بقيَّةِ القرائنِ والمؤشِّرات) قد لا تكشِفُ بنحوٍ تامٍّ عن صدْقِ نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ.

(١) في القضايا الاجتماعيَّةِ والسِّياسيَّة، تحديدُ تأثيرِ العوامل والعِلَل المُتعدِّدة على ظهورِ النَّتائج والمعلولات أمرٌ بالغُ التَّعقيد. فمن الصَّعبِ جدَّاً التَّفكيك بين العوامل، لدراسةِ وقياسِ تأثير كلّ عامل وعلَّة على ظهورِ النَّتيجة وتحقُّق

المعلول. لكن مع ذلك، لو قبِلْنا على سبيلِ الجدَلِ أنَّ التَّقدُّمَ الذي أحرزَتْهُ الأُمَمُ المسْلِمةُ في حالاتٍ معيَّنةٍ كانت بالفعْلِ نتيجةَ النِّظامِ الاجتماعي والسِّياسي الذي أسَّسَهُ محمَّد، فلا يُمكِنُنا أنْ نستنتجَ من ذلكَ بأنْه كان قد أُوحيَ إليه حول أشياءٍ ليس بمقدورِنا التَّحقُّقَ منْها.

نعم، بإمكانِنا أنْ نستنتِجَ كمالَ مبادئِهِ الأخلاقيَّة، أو الأداةَ التي ابتكرَها حتى يجْعلَ النَّاسَ تُطيعُهُ، أو الآليَّةَ الاجتماعيَّةَ والسِّياسيَّةَ التي أقامَها، لكن ليس أكثرَ من ذلك.

ونحنُ بحاجةٍ إلى قدْرٍ كبيرٍ من التَّحقيقِ المُتأنِّي في تاريخ تلك الأمم المُسْلِمة، لنُحدِّدَ أيًّا من هذه العوامل كان له النَّصيبُ الأكبرُ في المشاركةِ بتحقُّق هذه النَّتيجة (أي التقدُّم). لذا نجِدُ من جديدٍ بأنَّ معرفةَ النَّبيِّ بالطَّبيعةِ البشريَّةِ، وانسجامَهُ معها، هو ما تمَّ التحقُّق منه؛ ولم يتم التحقُّق من صدْقِ نبوَّتِهِ، وأنَّه كان بالفعْلِ ناطقاً باسْمِ السَّماء.

أقول: أتَّفقُ مع كليفورد في تعقيدِ تحليلِ القضايا الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة، فلا يمكنُ الجزْمُ دائماً بأنَّ النَّتيجةَ الفُلانيةَ كانت ثمرةَ العامِلِ الفُلاني بالتَّحديد، فالأمرُ ليس بهذه البساطةِ أبداً. بل ربَّما يمكنُ الجزْمُ بأنَّ وجودَ حضاراتٍ سابقةٍ في بعضِ البُلْدان (كمصْرَ والشَّام والعراق وإيران) كان له أثرٌ إيجابيٌّ كبيرٌ في التَّقدُّمِ الذي أحرزَهُ المسلمون في القُرُونِ الأولى من ظهورِ الإسلام. وهذه عوامِلُ خارجيَّة، وليست داخليَّة، أي لا علاقةَ لها بالتَّعاليمِ التي جاءَ بها النبيُّ محمَّد ﷺ.

لو كان ثمَّةَ نبيٌّ واحدٌ فقط، فستكونُ المهمَّةُ في الحقيقةِ شاقَّةً بل حتى مزْعجةً لنُقرِّرَ على أساسِ أيِّ النِّقاط سوف نثِقُ به، وعلى أساسِ أيٍّ منْها سوف نُشكِّكُ في سُلْطتِهِ؛ رؤيةُ ما ظفَرَ به النَّاسُ من تقدُّمٍ وما ساعدَهُم على ذلك في كلِّ العصورِ من أولئكَ الذين رأوا الأمورَ بوضوحٍ أكبرَ، وشعروا بها بنحوٍ أقوى، والذين سعوا إلى الحقيقةِ بقلْبٍ مخلِصٍ أكثرَ من غيرِهِم من الضُّعفاء. لكن لا يوجدُ نبيٌّ واحدٌ فقط؛ وفي حين أنَّ موافقةَ الكثيرينَ على ما لديهم، كأفرادٍ، من أدواتٍ حقيقيَّةٍ للمعرفةِ وما عرفوهُ، قد استمرَّتْ حتى النِّهايةَ، وتمَّ

بل سأدَّعي أكثرَ من ذلك: أنَّ الجرائِمَ والمخازي الشَّنيعةَ التي ارتكبَها بعضُ المسلمين (أو بعضُ خُلفاء بني أميَّة وبني العبَّاس)، لا يُمكِنُ أنْ تُنسَبَ أيضاً إلى تعاليمِ النبيِّ محمَّدٍ ﷺ، حتى يُقالُ بعد ذلك بأنَّ الغزواتَ الهمجيَّة (وغير الإنسانيَّة) التي قاموا بها هي نتيجة وثمرة تلك التَّعاليم. بل إنَّ هؤلاء قد اصطنعوا تُراثاً، وأحاديثَ، وروايات، وقصصاً، نسبوها للنَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ حتى يُبرِّروا تلك الجرائم والمخازي.

إذن كما لا يمكنُ الاستدلالُ من التقدُّمِ الذي أحرزَهُ المسلمونَ في الصَّدْرِ الأوَّلِ للإسلامِ على صدْقِ نبوَّةِ النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ، كذلك لا يمكنُ الاستدلالُ من الجرائمِ والمخازي التي ارْتَكبَها بعضُهُم على عدَمِ صدْقِ نبوَّةِ النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ.

بناؤُها بشكلٍ مشرِّفٍ في النَّسيجِ العظيمِ للمعرفةِ البشريَّةِ، وشهادةُ البعضِ المتنوِّعةِ حول ما لم يعرفوهُ ولم يتمكَّنوا من معرفتِهِ ظلَّتْ كتحذيرٍ لنا بأنَّ المبالغةَ في السُّلْطةِ النَّبويَّةِ هو استغلالٌ خاطئٌ لها، وأنْ لا نحترِمَ كلَّ من يسْعى فقط لأنْ نتَّبِعهُم بعد قوَّتِهِم وساعدوا على ذلك. فمن الصَّعبِ في الطَّبيعةِ البشريَّةِ أنْ يتمكَّنَ المرْءُ من قياسِ حدود بصيرتِهِ بنحوٍ دقيق؛ لكن من واجبِ أولئكَ الذين استفادوا من عملِهِ أنْ يضعوا في اعتبارِهِم بنحوٍ متأنٍّ استكشافَ الحدود التي ربَّما تجاوزَها. إنْ اضطرَرْنا لتزيينِ أخطائِهِ الممكنة مع إنجازاتِهِ المتينة، واستخدمْنا سُلْطتَهُ كمُبرِّرٍ للاعتقادِ بشيءٍ لم يكنْ بمقدورِهِ معرفتَهُ، نكونُ قد صنعنا من خيْرِهِ فرْصةً لارتكابِ خطيئة[1].

(١) لو لم تعرِف البشريَّةُ إلا نبيّاً واحداً، لكانت المهمَّةُ شاقَّةً علينا جدّاً، لأنَّنا لنْ نعرِفَ حينئذٍ ما هي المعايير التي من خلالِها يمكنُ أنْ نثِقَ به؟ ومتى بإمكانِنا التَّشكيكُ في سُلْطتِهِ؟ وكيف وإلى أيِّ حدٍّ ساعدتْ تلك النُّبوَّةُ على تقدُّمِ النَّاس؟ لأنَّها ستكونُ حينئذٍ حالةً واحدةً يتيمة.
لكن - بحمدِ الله - عرفتْ البشريَّةُ الكثيرَ من الأنبياء (أو مدَّعي النُّبوَّة)، وهناك تراكمٌ معرفيٌّ عند البشر، جعلَ الكثيرينَ يُحدِّدونَ - كأفرادٍ - أدواتَهُم للمعرفةِ. وشهادةُ البعضِ - على مرِّ التاريخ - حول ما لم يعرفوهُ ولم

يتمكَّنوا من معرفتِهِ، بقيتْ كتحذيرٍ لنا بأنَّ المبالغةَ في تقديرِ سُلْطةِ النَّبيِّ هو استغلالٌ خاطئٌ للنُّبوَّة. وعلَّمْتنا الخبراتُ البشريَّةُ المتراكمةُ أنْ لا نحترِمَ أولئكَ الذين يدْفعونَنا لاتِّباعِ النَّبيِّ (أو مدَّعي النُّبوَّة) بنحوٍ أعمى، خصوصاً إذا حقَّق بعضَ النَّجاحاتِ على الأرْض.

ومن الصَّعْبِ في الطَّبيعةِ البشريَّةِ أنْ يتمكَّنَ كلُّ فرْدٍ من قياسِ حدودِ وتخومِ معرفتِهِ بنحوٍ دقيق، لكن من واجبِ أولئك الذين استفادوا من عمَلِ ذلك النَّبيِّ أنْ يرْصدوا الحدودَ التي ربَّما تجاوزَها، ومن ثمَّ يُفترَضُ أنْ لا يتَّبعوهُ إلا بقدْرِ ما يعتقدونَ بقُدْرتِهِ على حكايةِ الحقيقة، لا أكثرَ من ذلك. وإنْ تورَّطْنا في تزيينِ أخطائِهِ الممكنة، التي جاءت جنْباً إلى جنْبٍ إنجازاتِهِ الرَّائعة، واستخدْمنا سُلْطتَهُ المهيمنةَ على النُّفُوسِ لتبريرِ الاعتقاد بشيءٍ لم يكنْ بمقدورِهِ معرفتَهُ، نكونُ قد صنعنا من خيْرِ هذا النَّبيِّ فرْصةً لارتكابِ خطيئة.

أقول: من الواضح أنَّا لا نحمِلُ مع كليفورد فهْماً واحداً للنُّبوَّةِ؛ فما نفهَمُهُ من النُّبوَّةِ يختلفُ عمَّا يفهَمُهُ منْها.

يبدو أنَّ كليفورد يفهَمُ أنَّ النَّبيَّ هو مجرَّد رجُلٍ عظيمٍ وحكيم، ربَّما يحدِسُ بعضَ ما سيجري، لكن قد يُخطِئُ في تعاليمِهِ، وقد يتجاوز حدودَهُ. قد يُخبِرُ عن السَّماءِ بأخبارٍ خطأً واشتباهاً. قد يأمُرُ بأشياءٍ أو ينْهى عن أخرى دون أنْ تكونَ تلك الأوامرُ أو النَّواهي صادرةً من السَّماء. وعلى هذا الأساس يُفترَضُ أنْ لا نُبرِّرَ أخطاءَهُ، مهما آمنَّا بإنجازاتِهِ الرَّائعة، ويُفترَضُ أنْ لا نُسيءَ

الاستفادةَ من شخصيَّتِهِ الكاريزميَّة في تمريرِ اعتقاداتٍ (ونشْرِها بين النَّاس) دون أنْ يكونَ بمقدورِهِ معرفةُ حقَّانيَّتِها وصِدْقِها.

في المقابل، نحنُ نفهَمُ أنَّ النَّبيَّ (الصَّادِقَ) هو رجُلٌ مسدَّدٌ من السَّماءِ، يتمتَّعُ بقدْرةٍ معرفيَّةٍ استثنائيَّة، وروحٍ أخلاقيَّةٍ رفيعة. بعبارةٍ أخرى: يحمِلُ أداةً معرفيَّةً يفتقِدُها النَّاسُ العاديُّون، ولا تنفكُّ تلك الأداةُ المعرفيَّةُ عن الشَّخصيَّةِ الأخلاقيَّةِ العظيمةِ التي يتمتَّعُ بها. وحتى لو افترضْنا أنَّه قد يُخطِئُ في القضايا اليوميَّة الاعتياديَّة (لسهوٍ أو غفْلةٍ أو نسيانٍ أو عجلةٍ أو نقْصِ معلومات أو سوءِ تقديرٍ)، لكن لا يمكنُ أنْ نفترِضَ أنَّه يُخطِئُ في تبليغِ خبرٍ عن السَّماء، أو يتجاوز حدودَهُ (ولو عن غيرِ قصْد)، وإلا لانتفَتْ فلْسفةُ النُّبوَّةِ أصلاً، ولفقدَ النَّاسُ ثقتَهُم بتعاليمِهِ وإخباراتِهِ الغيْبيَّةِ، إلا ما ينْسجِمُ منها مع مزاجِهِم وتوقُّعاتِهِم.

بعبارةٍ أوضح: نحنُ نؤمِنُ بأنَّ النَّبيَّ إنْ كان صادقاً، فلا يمكنُ إلا أنْ يكونَ معصوماً من السَّماءِ في التَّبليغِ على أقلِّ تقدير، وإلا تحوَّلَ التَّعاطي مع النَّبيِّ إلى حالةٍ من الأخذِ الانتقائي، يأخُذُ المرْءُ منه ما يروقُ له وينْبذُ ما لا يروقُ له.

ويبدو أنَّ فهْمَ كليفورد للنُّبوَّةِ يعودُ في جذورِهِ إلى الفهْمِ الإسرائيلي لها، كما يبدو في العهْدِ القديم، بل وكما يبدو في العهْدِ الجديدِ أيضاً (في طريقةِ تعاطيهم مع المسيح بن مريم)، لذا هم تورَّطوا في الاستخفافِ بالنُّبوَّاتِ وإيذاءِ الأنبياءِ والتمرُّدِ عليهم على مرِّ التاريخ، إلى درجةِ أنْ استسهلوا تكذيبَ بعضِهِم، بل وتورَّطوا بقتْلِ البعضِ الآخر، كما يبدو جليّاً في الكتابِ المُقدَّس

لنتأمَّلَ فقط في شاهدٍ آخرَ من هذا القبيل: أتْباعُ بوذا كان لديهم على الأقلِّ الحقُّ نفْسُهُ للُّجوءِ إلى الخبرةِ الفرْديَّةِ والاجتماعيَّةِ في تأييدِ سُلْطة المُخلِّص الشَّرْقي. إنَّ علامةَ ديانتِهِ الواضحة، كما قيل، التي

(بعهْدَيهِ القديم والجديد). لذا جاءَ في القرآن: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ البقرة: ٨٧. وحذَّر القرآنُ المسلمينَ من التورُّطِ بهذه الطَّريقةِ من التَّعامُلِ معَهُم، فجاءَ فيه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ الأحزاب: ٦٩ ، عندما رفضوا الدُّخولَ إلى الأرضِ المقدَّسةِ، وطلبوا منه أنْ يجعلَ لهم إلهاً كآلهةِ عبدةِ الأوثان، وانتهى بهمُ الأمرُ مع موسى عليه السلام إلى أنْ عبدوا العجْلَ الذَّهبي، وقيلَ أنَّهُم اتَّهموهُ بأنَّه أرادَ قتْلَ أخيه هارون عليه السلام.

أكثرَ من ذلك، اعتبرَ القرآنُ أنَّ الأخذَ من الأنبياءِ بطريقةٍ انتقائيَّةٍ، هو التجسيدُ الواضِحُ للكُفْرِ والجحودِ باللهِ والنُّبوَّات، فجاء فيه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ النساء: ١٥٠ - ١٥١، لأنَّ الإنسانَ يكونُ حينئذٍ متَّبِعاً لهواهُ ومزاجِهِ، وليس متَّبِعاً لتعاليمِ السَّماء.

لم يتمُّ تجاوزها أبداً، هي السَّكينة والطُّمأنينة الذي تُعطيهِ للسَّقيمِ والمغموم، العطْفُ الحنونُ الذي يمسَحُ على جميعِ الهمومِ الطَّبيعيَّةِ للبشر. وبالتَّأكيد، لا يوجدُ انتصارٌ للأخلاقِ الاجتماعيَّةِ يمكنُ أنْ يكونَ أعظَمَ وأنْبَلَ من الشَّيءِ الذي حفَظَ ما يُقارِبُ نصْفَ الجنْس البشري من الاضِّطهادِ باسْمِ الدِّين. إنْ كان علينا الوثوق بتصريحاتِ أتْباعِهِ المُتقدِّمين، فقد كان يعتقِدُ في نفْسِهِ أنَّه قد أتى إلى الأرْضِ برسالةٍ إلهيَّةٍ وكونيَّةٍ لتدويرِ عجلةِ القانون. كونُهُ أميراً، فقد تخلَّى بنفْسِهِ عن مملكتِهِ، وبإرادتِهِ الحرَّةِ سيُصبِحُ مطَّلِعاً على البؤسِ، على أمل أنْ يتعلَّمَ كيف يُواجِهُها ويقهَرُها. فهل بمقدورِ رجُلٍ كهذا أنْ يتكلَّمَ بنحوٍ كاذبٍ حول أشياءَ رصينة؟ وبالنِّسبةِ لمعرفتِهِ، أولمْ يكنْ رجُلَ الإعجازِ المزوَّد بقوى أكثَرَ من غيرِهِ؟ لقد وُلِدَ من امرأةٍ دونَ مساعدة بشر؛ وترعْرَعَ في أجواءٍ وتجلَّى قبلَ أنْ يُصبِحَ بالغاً؛ وفي النِّهايةِ صعَدَ بجسَدِهِ إلى جنَّةِ السَّماءِ من قمَّةِ آدم. أفلا تكونُ كلمتُهُ جديرةً بالاعتقادِ حين يشْهدُ بأشياءٍ سماويَّة[1]؟

(١) دعونا نترُكُ مثالَ المسْلِم الذي يتَّبِعُ النَّبيَّ محمَّداً، لنتأمَّلَ فقط في مثالٍ آخرَ من هذا القبيل: أتْباعُ بوذا. فهؤلاء كان لديهِم الحقُّ نفْسُهُ في اللُّجوءِ إلى الخبرةِ الفرْديَّةِ والاجتماعيَّةِ في تأييدِ سُلْطة المُنقِذ الشَّرْقي، كما فعَلَ المُسْلِم. إنَّ

علامةَ ديانتِهِ الواضحة (كما قيل، التي تمَّ الالتزامُ بحدودِها ولم يتمُّ تجاوزها) هي السَّكينة والطُّمأنينة الذي تُعطيهِ للمريضِ والمهموم، الشَّفقة الحانية التي تمسَحُ على جميعِ الهمومِ البشريَّة.

وبالتَّأكيد، لا يوجدُ انتصارٌ للأخلاقِ الاجتماعيةِ يمكنُ أنْ يكونَ أعظَمَ وأنْبَلَ من الشَّيءِ الذي حفَظَ ما يُقارِبُ نصْفَ الجنْس البشري من الاضِّطهادِ باسْمِ الدِّين، فالدِّيانةُ البوذيَّةُ ديانةُ السِّلْمِ مع الآخر.

الآن، إنْ كان علينا أنْ نثِقَ بتصريحاتِ أتْباعِ بوذا الأوائل، فإنَّ بوذا (كما يقولُ هؤلاء) كان يعتقِدُ في نفْسِهِ أنَّه قد أتى إلى الأرْضِ برسالةٍ إلهيَّةٍ وعالميَّةٍ لبسْطِ القانون والعدالة. لقد تخلَّى بوذا بنفْسِهِ، رغْمَ كونِهِ أميراً، عن مملكتِهِ. وبإرادتِهِ الحرَّةِ سيتعرَّفُ على التَّعاسةِ، حتى يتعلَّمَ كيف يُواجِهُها ويقهَرُها. فهل بمقدورِ رجُلٍ كهذا أنْ يكذِبَ في أمورٍ مهيبةٍ؟ وبالنِّسبةِ لمعرفتِهِ، أولمْ يكنْ رجُلَ الإعجازِ المزوَّد بقوى أكثَرَ من غيرِهِ؟ لقد وُلِدَ بوذا من امرأةٍ دونَ مساعدة بشر؛ وترعْرَعَ في أجواءٍ مرفَّهةٍ قبلَ أنْ يُصبِحَ بالغاً؛ وفي النِّهايةِ صعَدَ بجسَدِهِ إلى جنَّةِ السَّماء. أفلا تكونُ شهادتُهُ جديرةً بالاعتقادِ حين يتحدَّثُ عن أمورٍ غيْبيَّة؟

أقول: لو افترضْنا جدلاً أنَّ بوذا كان نبيَّاً صادقاً، ناطقاً باسْمِ السَّماء، فلا يمكنُ التَّعويلُ أبداً على المنْقولاتِ والإخباراتِ التي تحدَّثتْ عن تفاصيلِ تعاليمِهِ، فهي تُعاني من مشاكِلَ جمَّة مركَّبة، بخلافِ النَّبيِّ محمَّد ﷺ الذي يرْتكزُ دينُهُ على القرآن، الذي تتوافر أدلَّة قويَّة جدَّاً على سلامتِهِ من

ليتَهُ لم يكن إلا هو، دونَ غيرِهِ، قد أتى بإدِّعاءاتٍ من هذا القبيل! لكن هناك محمَّدٌ أيضاً مع شهادتِهِ؛ ليس بمقدورِنا الاختيار وإنَّما الاستماعُ لكليْهِما. فالنَّبيُّ يقولُ لنا بأنَّه ثمَّةَ إلهٌ واحدٌ، وأنَّنا سنعيشُ إلى الأبدِ إمَّا في سعادةٍ أو شقاء، بناءً على اعتقادِنا بالنَّبيِّ أو عدَمِ اعتقادِنا به. والـ بوذا يقولُ ليس ثمَّةَ إله، وسنفنى عمَّا قريب إنْ كُنَّا خيِّرينَ بقدَرٍ كافٍ. كلاهُما لا يمكنُ أنْ يكونَ موحى إليهِ بطريقةٍ لا يشوبُها خطأٌ؛ فهذا أو ذاكَ يجبُ أنْ يكونَ ضحيَّةً لوهمٍ، ظانّاً بأنه قد عرَفَ ما لم يكن يعرِفهُ بالفعْل. من يجرؤ على قولِ أيّ منْهُما كان كذلك؟ وكيف يُمكِنُنا أنْ نُبرِّرَ لأنفُسِنا الاعتقادَ بأنَّ الآخرَ لم يكنْ متوهِّماً كالأوَّل[1]؟

التَّحريف، وهو يحكي عن أهمِّ معالِمِ هذا الدِّين، ويتحدَّث عن أهمِّ التَّعاليم (للتَّفصيلِ أنظُر: مرتضى فرج، محطَّات في تاريخ القرآن: مبرِّرات الإيمان بسلامة النَّص القرآني).

(١) ليتَهُ لم يكنْ ثمَّةَ رجُلٍ يدَّعي ارتباطَهُ بالسَّماءِ، وأنَّه يحكي الحقيقةَ إلا بوذا، دونَ غيرِهِ، لكان قد هانَ الأمر! لكن هناك محمَّدٌ أيضاً مع نبوَّتِهِ؛ ليس بمقدورِنا إلا أنْ نستمِع لكليْهِما، لنعرِفَ أيّ منهما هو الصَّادق. فالنَّبيُّ محمَّدٌ يقولُ لنا بأنَّه ثمَّةَ إلهٌ واحدٌ، وأنَّنا سنعيشُ إلى الأبدِ إمَّا في سعادةٍ أو شقاء، بناءً

على اعتقادِنا وعدَمِ اعتقادِنا به.

والـ بوذا يقولُ ليس ثمَّةَ إلٰه، وسنفنى عمَّا قريب إنْ كُنَّا خيِّرينَ بقدَرٍ كافٍ (وإلا فإنَّ أرواحَنا بعد مفارقتِها لأجسادِنا ستظلُّ تنتقلُ من كائنٍ إلى آخرَ إلى أنْ تتطهَّر، على أساسِ الاعتقاد بالتَّناسُخ). كلاهُما بوذا ومحمَّدٌ لا يمكنُ أنْ يكونَ موحى إليهِ بطريقةٍ لا يشوبُها خطأٌ؛ فهذا أو ذاكَ يجبُ أنْ يكونَ ضحيَّةً لوهمٍ، ظانّاً بأنه قد عرَفَ ما لم يكن يعرِفهُ بالفعل، ومن ثمَّ كان يعيشُ جهْلاً مركَّباً. لكن من يجرُؤ على قولِ أيّ منْهُما كان كذلك؟ فهل يجرُؤ البوذي على أنْ يقولَ للمسْلِمِ أنَّ محمَّداً كان يعيشُ جهْلاً مركَّباً، وهل يجرُؤ المسْلِمُ على أنْ يقولَ للبوذيِّ أنَّ بوذا كان يعيشُ جهْلاً مركَّباً؟ وكيف يُمكِنُنا أنْ نُبرِّرَ لأنفُسِنا الاعتقادَ بأنَّ الآخرَ لم يكنْ متوهِّماً كالأوَّل؟

أقول: ليس ثمَّة مُبرِّر أبداً للقولِ: "إمَّا محمَّدٌ صادقٌ أو بوذا صادق، ولا يمكن لأنْ يكونا صادقينِ معاً". هذا القولُ لا مُبرِّرَ له؛ فمن الممكنِ جدّاً (بل هذا ما أميلُ له) أنَّ كلاهُما كان صادقاً، غايةُ الأمرِ أنَّ اعتقادات وتعاليمَ محمَّدٍ ﷺ الأساسيَّةَ قد وصلتْ إلينا سليمةً من خلالِ القرآن (كنصٍّ لم يُحرَّف، كما تؤكِّدُ العشرات من مخطوطاتِ القرْنِ الهجري الأوَّل)، في حين أنَّ اعتقادات وتعاليمَ بوذا أصابَها قدْرٌ (ليس بالقليل) من التَّشويهِ والتَّحريفِ وسوءِ الفهم. فكلاهُما لم يعِشْ وهماً، وإنَّما حُرِّفتْ اعتقاداتُ وتعاليمُ أحدِهِما دونَ الآخر.

والقرآنُ وإنْ لم يذكُر اسْمَ "بوذا" صراحةً، لكنَّه قال: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ النساء: ١٦٤، وقالَ أيضاً: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ فاطر: ٢٤، فنُبوَّةُ محمَّدٍ ﷺ - وفقاً للقرآن - ليس فقط لا تُنافي نُبوَّةَ غيرِهِ، بل هي مصدِّقةٌ لنُبوَّاتٍ محدَّدةٍ سابقةٍ، وتفتحُ المجالَ واسعاً لنُبوَّاتٍ سابقةٍ لم تُذكَر في القرآن، فلا يمكنُ أنْ تكون قد وُجِدَت أمَّةٌ إلا وقد أرْسلَتْ إليها السَّماءُ نذيراً، يدُلُّها على الصِّراطِ المستقيم.

لذا توجدُ إشارةٌ قويَّةٌ في القرآنِ لـ(بوذا) بالتَّحديد. فمن المعروفِ أنَّ بوذا كان قد حصَلَ له الانقلابُ الرُّوحي، والتجلِّي الإلهي، والكشْفُ السَّماوي، عندما كان جالساً تحتَ شجرة تين. والقرآنُ في سورةِ التِّين يُشيرُ إلى ذلك بقولِهِ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ التين: ١ - ٤، والقرينةُ المتَّصلةُ المرجِّحةُ لكونِ المقصود بـ "التِّين" شجرة تين بوذا، أنَّ الآياتَ تُقسِمُ بمواطِنِ التَّجلِّي الإلهي الذي وقَعَ لبعضِ الأنبياء. على هذا الأساس، قد يُقالُ أنَّ "التِّينَ" إشارةٌ إلى مكانِ التَّجلِّي الذي وقَعَ لـ بوذا في غاباتِ الهند (ونيبال)، و"الزَّيتونِ" إشارةٌ إلى مكانِ التَّجلِّي الذي وقَعَ للمسيحِ على جبلِ الزَّيتون المعروف في القُدْس، "وطورِ سينين" إشارةٌ إلى مكانِ التَّجلِّي الذي وقَعَ لموسى على طورِ سيناء، "وهذا البلَدِ الأمين" إشارةٌ إلى مكَّةَ التي يُشْرِفُ عليها غارُ حراء الذي ظهرَ فيه الوحيُ لمحمَّدٍ ﷺ، واللهُ أعلم.

سنصِلُ، إذن، إلى الأحكامِ التَّالية. إنَّ خيْرَ وعظمةَ المرْءِ لا يُعطينا مُبرِّراً للقبولِ باعتقادٍ على أساسِ التَّسويغِ بسُلْطتِهِ، ما لم تكنْ هناك أُسُساً معقولةً لافتراضِ أنَّه قد عرَفَ الحقيقةَ التي تحدَّثَ عنها. وليس ثمَّةَ أُسُسٍ للافتراضِ بأنَّ المرْءَ يعلَمُ بأمورٍ، لا يمكنُ افتراضُ التحقُّق منها[١].

---

(١) في ضوءِ ما مرَّ، نصِلُ إلى النَّتيجةِ التَّالية: إنَّ خيْرَ وعظمةَ المرْءِ – كبوذا أو محمَّد - لا يُعطينا مُبرِّراً للقبولِ بأيِّ اعتقادٍ من اعتقاداتِهم أو تعليمٍ من تعاليمِهم على أساسِ الثِّقةِ المطلقةِ بسُلْطتِهِ المهيمنةِ على عقولِنا، ما لم تكنْ هناك أرضيَّةٌ معقولةٌ لافتراضِ أنَّه قد عرَفَ الحقيقةَ التي تحدَّثَ عنها. وليس ثمَّةَ أُسُسٍ للافتراضِ بأنَّ المرْءَ يعلَمُ بأمورٍ، لا يمكنُ افتراضُ التَّحقُّق منها.

أقول: صحيحٌ أنَّ الشَّخصيَّةَ الأخلاقيَّةَ للمرْءِ لا تكفي لوحدِها للإيمانِ بنُبوَّتِه. وصحيحٌ أيضاً أنَّ امتلاكَهُ لشخصيَّةٍ كاريزميَّةٍ لا يُبرِّرُ لنا أنْ نتلقَّى اعتقاداتِهِ أو تعاليمَهُ بنحوٍ أعمى. لكن ليس من الصَّحيحِ القول بأنَّا لا يمكنُ أنْ نفترِضَ أنَّ تلكَ الشَّخصيَّةَ تعلَمُ بأمورٍ، إلا إذا كان بمقدوري التَّحقُّقَ منها.

والدَّليلُ على ذلك – كما مرَّ – أنَّه ليس عقلانيَّاً من الأعمى القول بأنِّي لا أؤمنُ بوجودِ القمر وبقيَّةِ الكواكبِ والنُّجوم في السَّماء، أو ظاهرة القوس قُزَح، طالما لا يُمكنني التَّحقُّق منها بنفْسي! وطالما لا يُمكِنُني التَّحقُّق منها

لو أنَّ كيميائيّاً قالَ لي، أنا الشَّخصُ البعيدُ عن الكيمياء، أنَّ مادَّةً معيَّنةً يمكنُ إنتاجُها عن طريقِ وضْع موادّ أخرى بنِسَبٍ معيَّنِة وإخضاعِها لعمليَّةٍ معروفة، فأنا مُبرَّرٌ تماماً في تصديقِهِ بناءً على سُلْطتِهِ، إلا إذا عرفْتُ شيئاً ما يُنافي شخصيَّتَهُ أو حُكْمَهُ. لأنَّ مهنتَهُ العمليَّةَ هو الشَّيءُ الذي يُشجِّعُ صدْقَ وأمانةَ سعيهِ وراءَ الحقيقة، ويُنتِجُ عدم الرَّغبة في التَّوصُّل إلى استنتاجاتٍ مستعجلةٍ والبحثِ غير الصَّادق. وأنا لديَّ أساساً معقولاً لافتراضِ أنَّه يعرِفُ الحقيقةَ التي يتحدَّثُ عنْها، لأنَّه على الرَّغْمِ من أنَّني لسْتُ بكيميائيٍّ، إلا أنَّ بإمكاني أنْ أفهَمَ الكثيرَ حول مناهج وعمليَّات العُلُوم التي من يُمكِنُني تصوُّرها، ومن دونِ التوقُّف عند أيِّ فرْد، قد أتحقَّقُ من العبارة. قد لا أتحقَّق،منه أبداً في الواقع، أو حتى قد لا أرى أيَّ تجرِبةٍ تستهدفُ التَّحقُّقَ منها؛ لكن يبْقى لديَّ سببٌ كافٍ يُبرِّرُ اعتقادي بأنَّ التحقُّقَ هو في متناولِ يدِ أدواتِ البشر وقواهُم، وبالتَّحديدِ بأنَّ ذلك قد تمَّ ممارستُهُ من قِبَلِ من أخبرني. نتيجتُهُ، التي توصَّلَ إليها عن طريقِ بحثِهِ وأدَّتْ إلى الاعتقادِ الحالي، هي مشروعةٌ ليست له

بنفْسي، إذن ما أدراني لعلَّ البصيرُ يكونُ متوهِّماً ويعيشُ جهْلاً مركَّباً عندما آمنَ بوجودِ هذه الأشياء!.

فقط بل لغيرِهِ أيضاً؛ فإنَّه تمَّ مراقبَتُها واختبارُها بواسطةِ أولئكَ الذين يعملونَ على الأرْضيَّةِ نفْسِها، ويعرفونَ أنْ لا توجدَ خدمةٌ أعظَمَ يمكنُ أنْ تُقدَّمَ إلى العِلْمِ من تنْقيةِ النَّتائجِ المقبولةِ من الأخطاءِ التي من المُمكنِ أنْ تكونَ قد تسلَّلتْ إليها. إنَّه من خلالِ هذه الطَّريقة تصبحُ النَّتائجُ مُلْكاً عامّاً موضوعاً صحيحاً للاعتقادِ، والذي هو شأنٌ اجتماعيٌّ وشأنٌ من العملِ العامِّ. لذا من المُلاحظِ أنَّ سُلْطتَهُ هي مشروعةٌ لأنَّه يوجدُ ثمَّةَ من يتساءلَ بشأنِها ويتحقَّقَ منها؛ هذه العمليَّةُ وبالتَّحديدِ الاختبار والتَّنْقية هي التي تُبْقي شغَفَ الباحثينَ حيَّاً والذي سيصْمُدُ أمامَ الاختبارات الممكنة كلّها، وبفضْلِ حسِّ المسئوليَّة العامّ لأُولئكَ الذين يعملونَ، إنْ تمَّتْ على النَّحوِ الصَّحيح، ستبْقى كميراثٍ للبشريَّةِ[١].

(١) لنفترضَ أنِّي شخصٌ بعيدٌ عن حقْلِ الكيمياء، وأنَّ كيميائيّاً أخبرني بأنَّ مادَّةً معيَّنةً يمكنُ إنتاجُها عن طريقِ خلْطِ موادٍ بأخرى بنِسَبٍ خاصَّة من خلالِ إخضاعِها لعمليَّةٍ كيميائيَّةٍ محدَّدة، فأنا حينئذٍ مُبرَّرٌ تماماً في تصديقِ خبرِهِ بناءً على سُلْطتِهِ (لأنَّه شخصٌ متخصِّصٌ في حقلِهِ)، إلا إذا اطَّلعتُ على معلوماتٍ معيَّنةٍ تُشكِكُ في تخصُّصِهِ أو كفاءَتِهِ أو منْهجِهِ...الخ.

لماذا أُعوِّلُ على إخبارِهِ؟ لأنَّ مهنتَهُ العمليَّةَ تفترضُ أنَّه شخصٌ يسْعى نحو الحقيقةِ بصدْقٍ وأمانةٍ (لا يبدو أنَّ لديه أيَّ مصلحةٍ شخصيَّةٍ في أنْ يكذِب)، كما أن مهنتَهُ العمليَّةَ تفترضُ أنَّ لديه حدَّاً معقولاً من مهارةِ التَّفكيرِ العِلْمي الذي يتطلَّبُ عدمَ الاستعجال في الوصولِ إلى النَّتائجِ ويتطلَّبُ كذلك نزاهةً في البحْث.

في المقابل، أنا لديَّ أساسٌ معقولٌ لافتراضِ أنَّ ذلك الكيمائي يعرِفُ الحقيقةَ التي يتحدَّثُ عنها، وأنَّه لا يهرِفُ بما لا يعرِف. رغمَ أنِّي لسْتُ بكيميائيٍّ، لكن بإمكاني أنْ أفهَمَ الكثيرَ حول مناهج وعمليَّات العُلُوم التي يُمكِنُني أنْ أتصوَّرَها. ولسْتُ بحاجةٍ للرُّجوعِ إلى أيِّ فرْدٍ، ويُمكِنُني أنْ أتحقَّقَ من صدْقِ العبارة (أو المعادلة) التي أخبرني بها ذلك الكيميائيُّ، من خلالِ الدُّخولِ إلى المختبر والقيامِ بالخطواتِ التي أخبَرَ بأنَّها تؤدِّي إلى إنْتاجِ تلك المادَّة. وحتى لو لم أتحقَّق من تلك العبارة (المعادلة) أبداً، ولم أرَ بعينايَ أيَّ تجرِبةٍ تستهدفُ التَّحقُّقَ منْها، لكن يبْقى لديَّ سببٌ كافٍ يُبرِّرُ اعتقادي بأنَّ التَّحقُّقَ من صدْقِها في متناولِ أيدي البشر، خصوصاً أنَّ تلك التَّجرِبةَ قد تمَّ القيامُ بها من قِبَلِ ذلك الكيميائي الذي أخبَرَني بها.

والنَّتيجةُ التي توصَّلَ إليها ذلك الكيميائيُّ - عن طريقِ بحثِهِ وأدَّتْ إلى الاعتقادِ الحالي – ليستْ مشْروعةً وصالحةً لأنْ يُعتقَدَ بها بالنِّسبةِ إليهِ وحدَهُ، بل هي كذلكَ بالنِّسبةِ إلى غيرِهِ أيضاً؛ لأنَّه تمَّ اختبارُها (أو يمكنُ اختبارُها) بواسطةِ أولئكَ الذين يعلمونَ في حقل الكيمياء. وهؤلاء يعرفونَ أنَّه لا توجدُ

خدْمةٌ يمكنُ أنْ تُقدَّمَ إلى العِلْمِ أعظَمَ من فلْترةِ النَّتائجِ المقبولة من أخطاءٍ يمكنُ أنْ تكونَ قد تسلَّلتْ إليها.

إنَّه من خلالِ هذه الطَّريقة العلْميَّة تصبحُ النَّتائجُ مُلْكاً مشاعاً للبشر، وموضوعاً صحيحاً للاعتقادِ، وهو شأنٌ اجتماعيٌّ وليس شأناً خاصَّاً. لذا من المُلاحظِ أنَّ سُلْطةَ ذلك الكيميائي هي مشْروعةٌ، لأنَّه يوجدُ دائماً من يتساءَلَ بشأنِها ويتحقَّقَ من صدْقِها. هذه العمليَّةُ من الاختبارِ والفلْترةِ الدَّائمةِ هي ما يُبْقي شغَفَ الباحثينَ حيَّاً. والنَّتائجُ تبْقى مقبولةً ما دامتْ قادرةً على الصُّمودِ أمامَ الاختباراتِ الممكنة كلّها. وبفضْلِ حسِّ المسئوليَّة العامّ لأُولئكَ الذين يعملونَ في هذا الحقلِ العِلْمي أو ذاك، ستبْقى هذه العمليَّةُ - والنَّتائجُ المتمِّخضة عنها - ميراثاً للبشريَّةِ إنْ تمَّتْ على النَّحوِ الصَّحيح.

أقول: لا نختلفُ مع كليفورد فيما ذكر، وإنَّما نختلفُ معه في دعوى أنَّ الخبَرَ الذي يصلُحُ لأنْ يُعتقَدَ به هو فقط ذلك الذي يمكنُ التَّحقُّق منه من خلالِ مناهجِ العلوم الطَّبيعيَّة.

بل إنَّ التَّعميمَ الذي أخبرَنا به ذلك الكيميائيُّ لا يمكنُ التَّحقُّق من صدْقِهِ كتعميم؛ فالتَّحقُّقُ لا يكونُ إلا في تجارِبَ جزْئيَّةٍ محدودة، وهذه التَّجارِب المحدودة قد لا تُبرِّرُ لنا منْطقيَّاً القفْزَ للحُكْمِ بصحَّةِ التَّعميم، لأنَّ التَّعميمَ بنفْسِهِ لا يمكنُ التَّحقُّقُ من صدْقِهِ. بعبارةٍ أخرى، تعميمُ الكيميائي بأنَّك "كلَّما وضعْتَ الموادَّ التَّالية (أ، ب، ج، د...الخ) بنسَبٍ معيَّنة وخلطْتَها بعمليَّةٍ كيميائيَّةٍ محدَّدة، فستنتجُ المادَّة كذا"، هذا التَّعميمُ – بوصْفِهِ تعميماً - لا

يمكنُ التأكُّدُ من صدْقِهِ بالتَّجرِبةُ. تلك هي مشكلةُ الاستقراء المشْهورة في حقْلَي الفلْسفة والمنْطق.

كتَبَ السيِّد محمَّد باقر الصَّدْر تعليقاً على هذا الاتِّجاه: "كان بالإمكانِ لهذا الاتِّجاه الحسِّي والتَّجريبي في البحْثِ عن نظامِ الكون، أنْ يُقدِّمَ دعماً جديداً وباهراً للإيمانِ باللهِ سبحانَهُ وتعالى، بسبَبِ ما يكشِفُهُ عن ألوانِ الاتِّساقِ ودلائلِ الحكمةِ التي تُشيرُ إلى الصَّانعِ الحكيم. غيرَ أنَّ العُلماءَ الطَّبيعيِّينَ، بوصْفِهِم علماء طبيعة، لم يكونوا معنيِّينَ بتجليةِ هذه القضيَّة، التي كانت لا تزالُ مسألةً فلْسفيَّةً، حسبَ التَّصنيفِ السَّائدِ لمسائلِ المعرفةِ البشريَّةِ وقضاياها. وسرْعانَ ما نشأتْ على الصَّعيدِ الفلْسفي، وخارج نطاقَ العِلْم وما يجري فيه، نزعاتٌ فلْسفيَّةٌ ومنْطقيَّة، حاولتْ أنْ تُفلسِفَ أو تُمنطِقَ، هذا الاتِّجاه الحسِّي. فأعلنَتْ أنَّ الوسيلةَ الوحيدةَ للمعرفةِ هو الحسُّ، وحيثُ ينْتهي الحسُّ تنْتهي معرفةُ الإنسان. فكلُّ ما لا يكونُ محسوساً، ولا يمكنُ تسليطُ التَّجرِبةِ عليه، بشكلٍ أو آخرَ، فلا يملِكُ الإنسانُ وسيلةً لإثباتِهِ.

وبهذا استُخدِمَ الاتِّجاهُ الحسِّيُّ والتَّجريبيُّ لضرْبِ فكرةِ الإيمان باللهِ تعالى؛ فما دامَ اللهُ سبحانَهُ ليس كائناً محسوساً، بالإمكانِ رؤيتُهُ والإحساسُ بوجودِهِ، فلا سبيلَ إذنْ إلى إثباتِهِ. ولم يكن هذا الاستخدامُ على يدِ العُلماءِ الذين مارسوا الاتِّجاهَ التَّجريبيَّ بنجاحٍ، بل على يدِ مجموعةٍ من الفلاسفةِ ذوي النَّزعات الفلْسفيَّة والمنْطقيَّة، التي فسَّرَتْ هذا الاتِّجاهَ الحسِّيَّ تفسيراً فلْسفيَّاً أو منْطقيَّاً خاطئاً.

وقد وقعتْ هذه النَّزعاتُ المتطرِّفةُ تدريجاً في تناقُضٍ:

فمن النَّاحيةِ الفلْسفيَّةِ، وجدَتْ هذه النَّزعاتُ نفسَها مضطرَّةً إلى إنكارِ الواقعِ الموضوعي، أي إنكار الكون الذي نعيشُ فيه جملةً وتفصيلاً! لأنَّنا لا نملِكُ سوى الحسَّ، والحسُّ إنَّما يُعرِّفُنا على الأشياءِ كما نحُسُّها ونراها، لا كما هي؛ فحين نحسُّ بشيءٍ يُمكِّنُنا أنْ نُؤكِّدَ وجودَهُ في إحساسِنا، وأمَّا وجودُهُ خارجَ نطاق وعينا وبصورةٍ مستقلَّةٍ وموضوعيةٍ ومسْبقةٍ على الإحساس، فلا سبيلَ إلى إثباتِهِ. فحينما ترى القمرَ في السَّماءِ، تستطيعُ أنْ تُؤكِّدَ فقط رؤيتَكَ للقمر، وإحساسَكَ به في هذه اللَّحظة، وأمَّا هل أنَّ القمرَ موجودٌ في السَّماءِ حقَّاً؟ وهل كان له وجودٌ قبلَ أنْ تفتحَ عينك وتراهُ؟ فهذا ما وجَدَ أصحابُ تلك النَّزعات أنفُسَهُم غير قادرين على تأكيدِهِ وإثباتِهِ. تماماً كالأحولِ الذي يرى أشياءَ لا وجودَ لها، فهو يؤكِّدُ رؤيتَهُ لتلك الأشياء، ولكنَّه لا يؤكِّدُ وجودَ تلكَ الأشياء في الواقع. وبهذا قضَتْ النَّزعةُ الحسِّيَّةُ الفلْسفيَّةُ في النِّهايةِ على الحسِّ نفْسِهِ كوسيلةٍ للمعرفة، وعادتْ المعرفةُ الحسِّيَّةُ كلُّها مجرَّدَ ظاهرة لا وجودَ لها بصورةٍ مستقلَّةٍ عن وعينا وإدراكِنا.

ومن النَّاحيةِ المنْطقيَّةِ، اتَّجهَتْ النَّزعةُ الحسِّيَّةُ في أحدَثِ تيارٍ من تيَّاراتِها الوضْعيَّة القائلة بأنَّ: "كلَّ جملةٍ لا يمكنُ التَّأكُّدُ من صدْقِ مدْلولِها أو كذبِهِ بالحسِّ والتَّجربةِ، فهي كلامٌ فارغٌ من المعنى". شأنُها شأنُ حروفٍ هجائيَّةٍ مبعثرة، تُردِّدُها على غيرِ هُدى. وأمَّا الجملةُ التي يمكنُ التَّأكُّدُ من صدْقِ مفادِها وكذبِهِ، فهي كلامٌ له معنى. فإنْ أكَّدَ الحسُّ تطابُقَ مدلولِها مع الواقع،

فهي جملةٌ صادقةٌ. وإنْ أكَّدَ العكسَ، فهي كاذبةٌ. فإنْ قُلْتَ: "المطرُ ينزِلُ من السَّماءِ في الشِّتاءِ"، فهي جملةٌ لها معنى، وصادقةٌ في مدلولِها. وإنْ قُلْتَ: "المطرُ ينزِلُ في الصَّيفِ"، فهي جملةٌ لها معنى، وكاذبةٌ في مدلولِها. وإنْ قُلْتَ أنَّ: "شيئاً لا يمكنُ أنْ يُرى أو يُحَسَّ به، ينزِلُ في ليلةِ القدْرِ"، فهي جملةٌ ليس لها معنى، فضْلاً عن أنَّها صادقةٌ أو كاذبة. إذ لا يمكنُ التَّأكُّدُ من صدْقِ مدلولِها وكذبِهِ بالحسِّ والتَّجرِبةِ. فهي تماماً كما نقولُ: "ديْزٌ ينْزِلُ في ليلةِ القدْرِ"، فكما لا معنى لهذه الجملة، كذلك لا معنى لتلك. وعلى هذا الأساس، لو قُلْتُ: "اللهُ موجودٌ"، لكان بمنزلةِ أنْ تقولَ: "ديْزٌ موجودٌ"؛ فكما لا معنى لهذه الجملة، كذلك تلك، لأنَّ وجودَ اللهِ تعالى لا يمكنُ التعرُّفُ عليه بالحسِّ والتَّجرِبة.

وتواجِهُ هذه النَّزعةُ المنْطقيَّةُ تناقُضاً أيضاً؛ بسببِ أنَّ قولَها هذا، وما فيه من تعميم، هو نفْسُهُ شيءٌ لا يمكنُ التعرُّفُ عليه بالحسِّ والتَّجرِبة، فهو كلامٌ فارغٌ من المعنى، بحُكْمِ ما يحمِلُ من قرار. فهذه النَّزعةُ المنْطقيَّةُ - التي تدَّعي أنَّ كلَّ جملةٍ لا يُتاحُ للحسِّ والتَّجرِبةِ اختبارَ مدلولِها، فهي فارغةٌ من المعنى - تُصْدِرُ بهذا الادِّعاءِ تعميماً، وكلُّ تعميمٍ فهو يتجاوزُ نطاقَ الحسِّ، لأنَّ الحسَّ لا يقعُ إلا على حالاتٍ جزئيَّةٍ محدودة.

وهكذا تنْتهي هذه النَّزعةُ إلى تناقُضٍ مع نفسِها، إضافةً إلى تناقُضِها مع كلِّ التَّعميماتِ العلْميَّةِ التي يُفسِّرُ بها العلماءُ ظواهرَ الكونِ تفسيراً كاملاً، لأنَّ التَّعميمَ - أيّ تعميم - لا يمكنُ الإحساسُ به مباشرةً، وإنَّما يُستنتجُ ويُستدلُّ بدلالةِ ظواهرَ حسِّية محدَّدة.

ولكن لو قالَ لي ذلك الكيميائيُّ أنَّ ذرَّةَ الأوكسجين قد وُجِدَتْ من دونِ تغييرٍ بوزْنِها أو نسْبتِها عبْرَ الأزمنةِ كلِّها، فليس من حقِّي أنْ أعتقدَ بذلكَ على أساسِ سُلْطتِهِ، لأنَّه شيءٌ لا يمكنُ معرفتُهُ من دونِ الرُّجوعِ إلى فرْدٍ ما. هو قد يعتقدُ بصدْقٍ بأنَّ هذه العبارةَ هو استدلالٌ منْصفٌ من تجارُبِهِ، لكن في تلك الحالةِ حُكْمُهُ خاطئٌ. فإنَّ التفاتاً بسيطاً لطبيعةِ التَّجارِبِ ستُبيِّنُ له أنَّه لا يمكنُ أبداً التَّوصُّلُ إلى نتائِجَ من هذا القبيل؛ لكونِها بنفْسِها تقريبيَّة ومحدودة، فإنَّه لا يُمكِنُها منْحَنَا معرفةً دقيقةً وكُلِّيَّةً. لا يمكنُ لشخصيَّةٍ ساميةٍ أو عبقريَّةٍ أنْ تُعطي المرْءَ سُلْطةً كافيةً حتى نكونَ مُبرَّرينَ

ومن حُسْنِ الحظِّ أنَّ العِلْمَ لم يعْبأ في مسيرتِهِ وتطوُّرِهِ المستمرّ بهذه النَّزعات، فكان يُمارِسُ عملَهُ الاكتشافي للكونِ دائماً مبتدأ بالحسِّ والتَّجرِبةِ، ومتجاوزاً بعد ذلك الحدودَ الضيِّقة التي فرضَتْها تلك النَّزعاتُ الفلْسفيَّة والمنْطقيَّة، ليبذُلَ جهداً عقْلِيّاً في تنسيقِ الظَّواهر ووضعِها في أُطُرٍ قانونيَّةٍ عامة، والتعرُّفِ على ما بينها من روابِطَ وعلاقات" (أنظر: محمد باقر الصدر، موجز في أصول الدين، المرسل: الله سبحانه وتعالى).

بتصديقِنا لها عندما تتحدَّث بعباراتٍ تستبطِنُ معرفةً دقيقةً وكُلِّيَّة[١].

---

(١) ولكن لو قالَ لي ذلك الكيميائيُّ أنَّ ذرَّةَ الأوكسجين كانت موجودةً في الأزْمنةِ السَّابقةِ كلِّها كما هي من دونِ تغييرٍ في وزْنِها أو في نسْبتِها، فليس من حقِّي أنْ أعتقدَ بذلكَ على أساسِ سُلْطةِ ذلك الكيميائي. لماذا؟ لأنَّ هذا التَّعميمَ أمرٌ لا يمكنُ معرفةُ صدْقِهِ من دونِ الرُّجوعِ إلى فرْدٍ ما. نعم، ذلك الكيميائيُّ قد يعتقدُ بصدْقٍ بأنَّ هذا التَّعميمَ هو نتيجةٌ مستحقَّةٌ من تجارِبِهِ، لكن في تلك الحالةِ حُكْمُهُ خاطئٌ. لماذا؟ لأنَّ التفاتاً بسيطاً لطبيعةِ التَّجارِبِ ستُبيِّنُ له أنَّه لا يمكنُ أبداً التَّوصُّلُ إلى نتائِجَ من هذا القبيل؛ لكونِ التَّجارِبِ بنفْسِها تقريبيَّة ومحدودة. لذا لا يُمكِنُها منحنَا معرفةً دقيقةً وشاملة. وعلى هذا الأساس، أيُّ شخصيَّةٍ رفيعةٍ أو نابغةٍ (وإنْ كانت مُتخصِّصةً في مجالٍ ما)، لا سُلْطةَ لها لكي تُخبِرَ عن شيءٍ يتجاوزُ مداها، ولنْ نكونَ حينئذٍ مُبرَّرينَ بتصديقِنا لها.

أقول: كلامُ كليفورد صحيحٌ، طالما أنَّ ذلك المُخبِر لم يسْتكشِفَ العلَّةَ في ثبوتِ بقاء ذرَّة الأوكسجين في وزْنٍ ونسْبةٍ معيَّنة، وطالما أنِّي أمتلِكُ أدواتَ الحسِّ نفْسها التي يمتلِكُها ذلك المُخبِر.

لكن لو استكشَفَ المُخبِرُ العلَّةَ في ثُبوتِ بقاء ذرَّة الأوكسجين في وزْنٍ ونسْبةٍ معيَّنِة، فإنَّ العلَّةَ لا يتخلَّفُ عنها معلولُها أبداً، فيمكِنُهُ أنْ يجزُمَ

مرَّةً أخرى، مُسْتكشِفٌ للقُطْبِ الشَّمالي قد يُخبِرُنا بأنَّه في طولٍ وعرْضٍ مُعْطى كان قد مرَّ بهِ[١] كانت درجةُ البرودةِ كذا وكذا، وأنَّ البحْرَ كان بعُمْقٍ كذا، وأنَّ الثَّلْجَ كان بصفةِ كذا. لا بدَّ أنْ يكونَ من حقِّنا تماماً أنْ نُصدِّقَهُ، في غيابِ وصْمةٍ (نقطة ضعْف) في صِدْقِهِ. ومن الممكنِ تصوُّر أنَّه يُمكِنُنا، دونَ الرُّجوع لفرْدٍ ما،

حينئذٍ بثُبوتِ الوصْفِ لجميعِ جُزْئيَّاتِ ذلك النَّوع وإنْ لم يُشاهِدها (مثال: الحُكْمُ التَّالي: "كُلُّ ماءٍ على الأرْضِ ينحدِرُ من المكانِ العالي إلى الأسفل ما لم تتوفَّر ظروف ظهور الخاصِّية الشَّعْريَّة (في الأنابيبِ الضيِّقة)"، إذا علِمْنا أنَّ علَّةَ ذلك هو الجاذبيَّة). نعم، إذا انكشَفَ للباحثِ خطأً ما حسِبَهُ أنَّه علَّة، وأنَّ للوصْفِ علَّةً أخرى، فلا بدَّ أنْ يتغيَّرَ حكمُهُ.

وكذلك لو كان المُخبِرُ يمتلِكُ أداةً معرفيَّةً لا يمتلِكُها غيرُهُ، وثبتَتْ لي – بحسابِ الاحتمالات – وثاقتُهُ من ناحية، وثبتَ لي من ناحيةٍ أخرى أنَّ احتمالَ أنْ يكونَ مشتبهاً أو مخطئاً لا يُعتدُّ به ولا يُعوَّلُ عليه، يحقُّ لي حينئذٍ أنْ أتلقَّى إخبارَهُ بالقبولِ، وأكونُ مُبرَّراً من النَّاحيةِ المنْطقيَّةِ والعقلائيَّةِ في تصديقِهِ (استذكر في ذلك مثالَ البصير المقيم في قرْيةٍ كلُّها من العميان). نعم، يبْقى من حقِّ المرْءِ أنْ يتساءَلَ: متى يُمكِنُني الوثوقُ به؟ ومتى يُمكِنُني استبعادَ احتمال أنْ يكونَ مشتبهاً أو مخطئاً؟.

(١) أي في نقطةٍ محدَّدةٍ حدَّدَ لنا إحداثيَّاتِها.

الذَّهابُ إلى ذلك والتَّحقُّق من عبارتِهِ؛ يمكنُ اختبارُ ذلكَ عن طريقِ شهادةِ رِفاقِهِ، وهناك أساسٌ كافٍ لافتراضِ أنَّه يعرِفُ حقيقةَ ما يقول. لكن لو أخبرنا صائدُ حيتانٍ قديمٍ بأنَّ عُمْقَ الثَّلْجِ هو ٣٠٠ قدم طوال الطَّريق إلى القُطْب، فلنْ نكونَ مُبرَّرينَ في تصديقِهِ[١]. لأنَّه على الرَّغمِ من أنَّ عبارتَهُ يمكنُ التَّحقُّقُ منها، إلا أنَّه من المؤكَّدِ أنَّه لا يمكنُ التَّحقُّقُ منها عن طريقِهِ، بأيِّ أداةٍ أو وسيلةٍ يمتلِكُها؛ ولا بدَّ أنَّه قد أقنَعَ نفْسَهُ بحقيقةِ ذلكَ من خلالِ بعضِ الوسائل التي لا تُضْفي أيَّ مصداقيَّةٍ على شهادتِهِ. لذا، حتى لو كان تأكيدُ الأمرِ في متناولِ المعرفة البشريَّة، ليس من حقِّنا أنْ نقْبَلَها على أساسِ سُلْطتِهِ ما لم تكنْ في متناولِ معرفةِ مُخبِرِنا.

ماذا يسَعُنا أنْ نقولَ عن تلك السُّلْطةِ، التي هي موقَّرةٌ ومهيبةٌ أكثرَ من أيِّ شاهدٍ فرْديٍّ، وتقليدٍ عريقٍ للجنْسِ البشري؟ إنَّ مناخَ الاعتقادات والمفاهيم تمَّ تشكيلُها بكفاحِ ومعاناةِ أجدادِنا، سهَّلَتْ

---

(١) لأنَّه صائدَ الحيتان يكونُ قد أخبَرَ عن شيءٍ في غيرِ مجال تخصُّصِهِ، وفي أمرٍ لا تتوفَّر لديه أدوات التَّحقُّق ممَّا يقول؛ فأدواتُهُ هي أدواتُ صيْدِ حيتان، وليست أدوات قياس عُمْق الثَّلْج.

لنا التَّنفُّسَ وسْطَ الظُّروف المعقَّدة والمتفاوتة لحياتِنا. إنَّه حولَنا ويتعلَّقُ بنا ويتخلَّلُنا؛ لا يُمكِنُنا أنْ نُفكِّرَ إلا بأشكالٍ وعمليَّات التَّفكير التي تُوفِّرُها لنا. فهل من الممكنِ أنْ نشُكَّ ونختبرَها؟ وإنْ كان من الممكنِ، فهل هذا صحيح[١]؟

سوف نظْفرُ بسببٍ للإجابةِ بأنَّه ليس فقط من الممكنِ والصَّحيح، بل إنَّه واجِبُنا المُلْزِم؛ أنَّ الهدَفَ الأساسي من التَّقليدِ نفْسِهِ هو أنْ يُوفِّرَ لنا أدوات إثارة التَّساؤلات، والاختبار، والتَّحقيقَ في الأشياء؛ وأنَّه لو أسَأْنا استخدامَهُ، وأخذْنا بالعباراتِ كُكِلٍّ بوصفِها مُسلَّمة، وقبِلْنا بها دون تحقيق إضافي، فإنَّنا هنا لا نضُرُّ أنفُسَنا فحسْب، بل،

(١) الآن، ماذا يسَعُنا أنْ نقولَ عن سُلْطةِ الأنبياء (أو مؤسِّسي الأدْيان)، التي هي مبجَّلةٌ ومهيبةٌ أكثرَ من أيِّ شاهدٍ اعتياديٍّ هنا أو هناك، وأكثرَ من أيِّ تقليدٍ من تقاليدِ الجنْسِ البشري؟ إنَّ أجواءَ المفاهيم والاعتقادات التي تمَّ تشكيلُها بكفاح ومعاناةِ أجدادِنا، سهَّلَتْ لنا التَّنفُّسَ في خِضَمِّ الظُّروف المعقَّدة والمتفاوتة لحياتِنا. هذه الأجواءُ الثَّقافيَّة هي كالهواءِ، حولُنا وتتعلَّقُ بنا وتتخلَّلُنا؛ لا يُمكِنُنا أنْ نُفكِّرَ إلا بصورِ التَّفكير وآلياتِهِ التي تُوفِّرُها لنا، فمن خلالِ هذه الهياكل والنَّماذج الذِّهنيَّة نحنُ نُفكِّرُ ونُحلِّلُ ونستنتجُ ونحدِسُ. فهل من الممكنِ أنْ نشُكَّ ونختبرَ تلك الأجواء والاعتقادات التي نأخُذُها أخْذَ المُسلَّمات؟ وإنْ كان من الممكنِ، فهل هذا صحيح؟.

من خلالِ رفْضِنا للقيامِ بدورِنا تجاهَ بناء نسيجٍ يرِثُهُ أبناؤنا، فإنَّنا نقومُ بقطْعِ أنفُسِنا وجنْسِنا عن المسارِ البشري[١].

دعونا أوَّلاً نهتمُّ بتمييزِ نوعٍ من التَّقليدِ الذي يتطلَّبُ بالخصوصِ فحْصاً وإثارةً للتَّساؤُلِ بشأنِهِ، لأنَّه سيتقلَّصُ بشكلٍ خاصٍّ من البحث. لنفترِضَ أنَّ ساحراً (رجُلَ أدْوية) في أفريقيا الوسطى قالَ لقبيلتِهِ أنَّ قوَّةً سحريَّةً معيَّنةً في خيمتِهِ سيتمُّ إسترْضاؤُها إنْ قتلوا ماشيَتَهُم، وأنَّ قبيلتَهُ قد صدَّقَتْهُ. سواءٌ تمَّ استرْضاءُ تلكَ القوَّةِ أو لم يتمّ لا توجدُ أداةٌ للتَّحقُّقِ، ولكنْ الماشية تكونُ قد اختفتْ.

---

(١) الإجابةُ عن هذا السُّؤال هي التَّالي: ليس فقط من الممكنِ والصَّحيح، بل إنَّه واجِبُنا الإلزامي (من النَّاحيةِ الأخلاقيَّة)، أنْ نُثيرَ التَّساؤلات لنتأكَّدَ من صحَّةِ المفاهيم والاعتقادات التي نحمِلُها. بل إنَّ الهدَفَ الأساس لصُوَرِ التَّفكير وآلياتِهِ التي نرِثُها، هو أنْ تُوفِّرَ لنا أدوات لإثارةِ الأسئلة والتثبُّت من الأفكار والاعتقادات. ولو أسَأْنا استخدامَ هذا الموروث العظيم (أي الهياكل والنَّماذج الذِّهنيَّة)، وأخذْنا بالأخبارِ والعباراتِ التي يُطْلِقُها هذا وذاك على أنَّها مُسلَّمات، وقبِلْنا بها دون تثبُّت وتحقيق إضافي، فنحنُ لا نضُرُّ أنفُسَنا فحسْب، بل، من خلالِ رفْضِنا للقيامِ بدورِنا في فلْترةِ هذا النَّسيج الذِّهني الذي سيرِثُهُ أبناؤنا، فإنَّنا نقومُ بفصْلِ أنفُسِنا وجنْسِنا عن الخط البشري.

الاعتقادُ حولَ القوَّةِ السِّحريَّةِ مع ذلك قد يبْقى في القبيلةِ بأنَّ الاسترْضاءَ قد تحقَّق بهذا السَّبيل؛ وفي الجيلِ التَّالي سيكونُ من الأسهلِ جدَّاً لساحرٍ آخرَ أنْ يُقنِعَهُم للقيامِ بفعْلٍ مُشابِه. هنا السَّببُ الوحيدُ للاعتقادِ هو أنَّ كلَّ واحدٍ منْهُم قد اعتقَدَ بشيءٍ طوالَ الوقت بأنَّه يجبُ أنْ يكونَ حقيقةً. في حين أنَّ الاعتقادَ كان قد تأسَّسَ على الخِداعِ، وصارَ شائعاً بسببِ سُرْعةِ التَّصديق. ذلك الرَّجُلُ الذي يدْعو إلى التَّساؤُلِ ويرى أنْ لا أدلَّةَ على ذلك، سيكونُ قد فعَلَ بلا شكٍّ ما هو صحيحٌ، وسيكونُ صديقاً للنَّاسِ، مساعداً لجيرانِهِ ليروا ما رآهُ، وحتى أنَّه، إنْ اضطرَّ الأمرُ، قد يذْهبُ إلى الخيمةِ المُقدَّسةِ لإبطالِ السِّحر (تدْمير الدَّواء)[١].

(١) دعونا نُركِّزُ على نوعٍ محدَّدٍ من التَّقليدِ المتوارَثِ الذي يتطلَّبُ فحْصاً وإثارةً للتَّساؤُلِ بشأنِهِ، فهذا البحْثُ سيُؤدِّي إلى استبْعادِ كمٍّ كبيرٍ من الاعتقاداتِ الوهميَّة.

لنفترِض أنَّ ساحراً في أفريقيا الوسطى قالَ لقبيلتِهِ أنَّ قوَّةً سحريَّةً معيَّنةً موجودةٌ في خيمتِهِ، وأنَّكم ستنْجحونَ في إسترْضائِها إنْ قدَّمتُم ماشيتَكُم كقرابينَ لها، ولنفترِضَ أنَّ قبيلتَهُ صدَّقَتْهُ وقدَّموا ماشيَتَهُم كأضاحي لتلك القوَّة.

الآن، هل تمَّ استرْضاءُ تلك القوَّة السِّحريَّة أم لا؟ لا توجدُ أداةٌ للتَّحقُّقِ من هذا الأمر، لكن النَّتيجة المؤكَّدة أنَّ الماشيةَ قد قُتِلَت، والخسارةَ قد تحقَّقتْ.

مع ذلك، ستظلُّ القبيلةُ تحمِلُ اعتقاداً بأنَّ القوَّةَ السِّحريَّةَ قد تمَّ استرْضاؤُها من خلالِ تقديمِ القرابين. في الجيلِ التَّالي سيكونُ من الأسهلِ جدَّاً لساحرٍ آخرَ أنْ يُقنِعَهُم للقيامِ بفعْلٍ مُشابِه. هنا السَّببُ الوحيدُ لاعتقادِهِم هذا هو أنَّ كلَّ واحدٍ منْهُم كان قد جزَمَ بأنَّ هذا الأمرَ مطابقٌ للواقعِ، في حين أنَّ هذا الاعتقادَ لا دليلَ عليه، بل إنَّه تأسَّسَ على خداعِ السَّاحِر، وصارَ متفشِّياً بسببِ سُرْعةِ تصديقِ القبيلة.

لكن لو افترضْنا أنَّ رجُلاً بدأَ يدْعوهُم إلى التَّساؤُل، ونبَّهَهُم بأنْ لا أدِلَّةَ على وجودِ قوَّةٍ سحريَّة، وإنْ وُجِدَتْ فلا دليلَ على أنَّه تمَّ استرْضاؤُها بهذه الطَّريقة.... فهذا الرَّجُلُ سيكونُ بلا شكٍّ قد فعَلَ الصَّوابَ، وسيكونُ هو الصَّديقُ الحقيقي للنَّاس، مساعداً من حولَهُ على رؤيةِ ما رآه. بل إنْ اضطرَّ الأمرُ، قد يذْهبُ بنفْسِهِ إلى الخيمةِ المُقدَّسةِ لإبطالِ السِّحر.

أقول: كلامُ كليفورد صحيحٌ تماماً. بل هذا ما قامَ به النَّبيُّ إبراهيم عليه السلام عندما كسَرَ الأصنام، محاولاً إبطالَ سِحْرَها في أذْهانِ قومِهِ. هذا الأمرُ يعيبُهُ اليوم أنصارُ حقوق الإنسان على إبراهيم عليه السلام. هؤلاء يدَّعونَ أنَّ من حقِّ الإنسان أنْ يعتقِدَ بما شاءَ وإنْ كان اعتقاداً بخرافاتٍ وأساطير. لكن كليفورد يرى أنَّ من يذْهبَ إلى الخيمةِ المقدَّسةِ لإبطالِ السِّحر إنَّما يقومُ بعمَلٍ أخلاقيٍّ عظيم، لأنَّه يعملُ على تحريرِ عقولِ النَّاسِ من الأوهام.

القانونُ الذي ينْبغي أنْ يُرْشِدَنا في مثلِ هذه الحالةِ هو بسيطٌ وواضحٌ بقدرٍ كافٍ: إنَّ شهادةَ جيرانِنا ككُلٍّ تواجِهُ الشُّروطَ نفْسَها التي

هكذا فعلَ إبراهيم عليه السلام عندما حطَّمَ الأصنامَ، وترَكَ كبيرَها، ليُحرِّكَ العقولَ والأذْهان. وكادَ أنْ ينجَحَ في ذلك، لكن سُرْعانَ ما انتكسَ قومُهُ وعادوا للتَّشبُّثِ باعتقاداتِهم الباطلة، بل راموا قتلَهُ بطريقةٍ وحشيَّة. لقد توَّعدَ عليه السلام أصنامَهُم قائلاً: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ الأنبياء: ٥٧ - ٦٨. من المناسبِ أنْ نُلاحِظَ أنَّ كليفورد سرَدَ هذا المثال لإبطالِ الإيمان بالنُّبوَّاتِ على ما يبدو (وكأنَّ الأنبياءَ هم سحرةُ قومِهم!).

لكنَّنا نجدُ أنَّ الأنبياءَ هم في طليعةِ من قامَ بهذا الدَّور الأخلاقي الذي يُشيدُ به. وكذلك نجدُ أنَّ الأدْيانَ (خصوصاً السَّماوية منها) من أشدِّ المناهضين للسِّحرِ والسَّحرة.

تُواجِهُها شهادةُ كلّ واحدٍ منهم. أعني، ليس من حقِّنا أنْ نعتقِدَ بشيءٍ بوصفِها حقيقةً لأنَّ كلَّ واحدٍ يقولُ كذا ما لمْ تكنْ لدينا أُسُسٌ جيِّدةٌ للاعتقادِ بأنَّ واحداً منْهُم على الأقلِّ لديه أداةٌ لمعرفةِ ما هو الحقيقة، ويتحدَّثُ بالحقيقةِ بقدرِ ما يعرِفُها. مع ذلك، الكثيرُ من الأُمَمِ والأجيالِ من البشَرِ تربَّوا داخلَ صندوق-الشَّاهد، فليس بمقدورِهِم أنْ يشْهدوا على شيءٍ لا يعرفوهُ. كلُّ فرْدٍ قَبِلَ عبارةً من شخصٍ ما آخرَ، دونَ أنْ يختبِرَ الأمرَ ويتحقَّقَ منه بنفْسِهِ، خارج نطاق المحكمة؛ كلمتُهُ لا قيمةَ لها على الإطلاق. ومتى نرْجِعُ على الأقلِّ إلى منشأِ الحقيقةِ وبدايةِ العبارة، سؤالانِ خطيرانِ يجبُ أنْ يُثارا بصدَدِ ذلك الذي كان أوَّلَ من ادَّعى: هل كان مُخطِئاً في التَّفكيرِ بأنَّه قد ظفَرَ بمعرفةٍ حول هذا الأمر، أمْ كان يكذِب؟[١]

(١) القانونُ الذي ينْبغي أنْ يُرْشِدَنا في مثلِ هذه الحالةِ هو بسيطٌ وواضحٌ بقدرٍ كافٍ: إنَّ شهادةَ المحيطين بنا بصفةٍ عامَّةٍ تواجِهُ الشُّروطَ نفْسَها التي تُواجِهُها شهادةُ كلّ واحدٍ منهم. أي ليس من حقِّنا أنْ نعتقِدَ بشيءٍ بوصفِهِ صادقاً لأنَّ كلَّ واحدٍ يقولُ الشَّيءَ نفسَهُ ما لمْ تكنْ لدينا أُسُسٌ قويَّةٌ للاعتقادِ بأنَّ واحداً منْهُم على الأقلِّ لديه أداةٌ لمعرفةِ الواقع كما هو، ويحكي عن الواقِعِ بقدرِ ما يعرِفُهُ. مع ذلك، الكثيرُ من الأُمَمِ والأجيالِ من البشَرِ، على مرِّ التَّاريخ،

هذا السُّؤالُ الأخيرُ هو مع الأسفِ سؤالٌ واقعيٌّ وعمليٌّ حتى بالنِّسبةِ لنا في هذا اليومِ وفي هذا البلد. ليستْ لدينا فرْصةٌ للذَّهابِ إلى لا ساليت[١]، أو إلى أفريقيا الوسطى، أو إلى منطقةِ لوردس[٢]، كأمثلةٍ

اعتادوا على أنْ لا يروْنَ الأمورَ إلا من منْظورِ الشَّاهد، وليس بمقدورِهِم أنْ يشْهدوا على شيءٍ لا يعرفوهُ.

كلُّ فرْدٍ قَبِلَ خبَراً من شخْصٍ آخرَ، دونَ أنْ يختبِرَ الأمرَ ويتحقَّقَ منه بنفْسِهِ، لن يُعتبرَ من النَّاحيةِ القضائيَّةِ شاهداً أبداً، وسيكونُ خارجَ المحكمة، وكلمتُهُ لا قيمةَ لها على الإطلاق. لكن متى يُفترَضُ أنْ نتعقَّبَ منشأَ الصِّدْقِ وأوَّلَ من أطلَقَ الخبر؟ سؤالانِ مهمَّان، فأوَّلَ من ادَّعى الخبرَ: هل كان مُخطِئاً في تفكيرِهِ وتوهَّمَ أنْ قد ظفَرَ بمعرفةٍ حولَ هذا الأمر، أمْ كان يكذِب؟

(١) إشارةٌ إلى منطقةِ لا ساليت La Salette، في فرنسا، التي ارْتبطتْ بظهورٍ مُدَّعى للسيِّدةِ العذراء مريم بتلك المنطقةِ في عام ١٨٤٦م، وكان أخبرَ عن هذا الظُّهور طفلان هما: ماكسيمين جيرود وميلاني كالفات. وفي ١٩ سبتمبر ١٨٥١م، وافقَ البابا بيوس التَّاسِع رسميًّاً على الصَّلواتِ العامَّةِ لسيِّدةِ لا ساليت. وفي ٢٤ أغسطس ١٨٥٢، أوصى البابا بيوس مرَّةً أخرى ببناءِ المذْبح في لا ساليت. وفي ٢١ أغسطس ١٨٧٩، منَحَ البابا ليو الثَّالث عشر رسمياً التَّتويجَ الكنسي لصورةِ العذراء مريم في كنيسةِ سيِّدةِ لا ساليت.

(٢) إشارةٌ إلى منطقةِ لورْدِس Lourdes، في فرنسا (قُرْب حدودها مع أسبانيا)، التي ارتبطتْ بظهورٍ مُدَّعى للسيِّدةِ العذراء مريم بتلك المنطقةِ في

على خُرافاتٍ غير أخلاقيَّة ومُخْزية. إنَّه فقط من الممكنِ جدَّاً لطفْلٍ أنْ يتربَّى في لندن يحيطُهُ جوٌّ من الاعتقاداتِ تتلائمُ فقط مع الهَمَج، والتي قامتْ في وقتِنا الحاضِر على الخِداعِ وتفشَّتْ عن طريقِ سُرْعةِ التَّصديق[1].

عام ١٨٥٨م. أوَّلُ الأحداث كان هو الظُّهورُ المُدَّعى في ١١ فبراير ١٨٥٨م، عندما أخبرَتْ برناديت سوبيروس، البالغة من العمر ١٤ سنة، والِدَتَها أنَّ "سيِّدةً" قد تحدَّثتْ إليها في مغارةِ ماسابيلا (التي تقعُ على بُعْدِ كيلومتر ونصْف من المدينة)، عندما كانت تجمَعُ الحطَبَ مع أُختِها وصديقِها. وادُّعِيَتْ ظهوراتٌ مشابهةٌ لـ "السيِّدةِ" في سبْعةَ عشَرَ مناسبة في تلك السَّنةِ، حتى تمَّ الكشْفُ عن ذروةِ سيِّدة الحمْلِ بلا دنَس. في ١٨ يناير ١٨٦٢، أذِنَ البابا بيوس التَّاسع بتكريمِ السيِّدة العذراء المقدَّسة في لورد. وفي ٣ يوليو ١٨٧٦م، منَحَ البابا نفسُهُ رسميَّاً التَّتويجَ الكنسي للصُّورةِ التي كانت في فناءٍ ما (هو الآن جزْءٌ من كنيسةِ اللُّورديَّة). وقد تمَّ نسْخُ صورة سيِّدة لورد على نطاقٍ واسعٍ وإعادةُ إنتاجِها في الأضرحةِ والمنازل.

(١) هذا السُّؤالُ الأخيرُ بصدَدِ أوَّلُ المدَّعين: هل أخطأَ وتوهَّمَ أنَّه قد ظفَرَ بمعرفةٍ؟ أمْ كان كاذِباً؟ هو سؤالٌ واقعيٌّ وعمليٌّ، مع الأسفِ، حتى في يومِنا هذا وفي بلَدِنا هذا، رغمَ التقدُّم العِلْمي الذي تمَّ إحرازُهُ حتى اليوم في هذا البلَد. ليستْ لدينا فرْصةٌ للذَّهابِ إلى مناطقَ من قبيل: لا ساليت الفرنسيَّة أو

الكذْبُ بمفردِهِ، إذن، كالتَّقليدِ يتمُّ تناقُلُهُ دون اختبارٍ من قِبَلِ الأجيالِ اللَّاحقة، دعونا نضَعُ في الاعتبارِ ذلك الذي تمَّ بناؤهُ بصدْقٍ خارِجَ إطار الخبْرة العامَّة للبشريَّة. هذا البناءُ العظيمُ هو لإرْشادِ أفكارِنا، ومن خلالِها لإرْشادِ أفعالِنا، وكلاهُما (الأفكار والأفعال) في العالَمِ الأخلاقي والمادِّي[1].

ففي العالَمِ الاخلاقي، على سبيلِ المثال، هي تُعطينا عموماً مفاهيمَ الصَّحَّة، العدْل، والحقيقة (الصِّدْق)، الإحسان، وما أشْبهَ ذلك. هذه

أفريقيا الوسطى أو لورْدِس الفرنسيَّة، والتي استفاضَتْ فيها إدِّعاءاتٌ كثيرةٌ حول ظهور السيِّدة العذراء مريم، لنرْصُدَ بنحوٍ مباشرٍ أمثلةً على خُرافاتٍ غير أخلاقيَّة ومُخْزية. يكفي لطفلٍ بريءٍ أنْ يتربَّى في لندن، في محيطٍ جوُّهُ العامُّ يعتقدُ بمثْلِ هذه الادِّعاءات - التي قامَتْ على الخِداعِ أو الوهمِ وتفشَّتْ عن طريقِ سُرْعةِ التَّصديق - ليُصبِحَ ضحيَّةً للخُرافاتِ التي لا يُصدِّقُ بها إلا الإنسانُ البدائي.

(١) إذن الكذِبُ بحدِّ ذاتِهِ، كالتَّقليدِ، يتمُّ تناقُلُهُ على ألسُنِ النَّاسِ من دونِ اختبارٍ وتدْقيقٍ من قِبَلِ الأجيالِ اللَّاحقة. لكن دعونا نضَعُ في الاعتبارِ ذلك البناء الذي تمَّ تشييدُهُ فعلاً خارِجَ إطار الخبْرة العامَّة للبشريَّة. هذا البناءُ العظيمُ يستهدِفُ إرْشادَ أفكارِنا، ومن خلالِ هذه الأفكار يتمُّ إرشادُ أفعالِنا، والأفكارُ والأفعالُ كلاهُما في العالَمِ الأخلاقي والمادِّي.

مُعطاةٌ كمفاهيم، وليست كعباراتٍ أو قضايا؛ هي استجابةٌ لغرائِزَ معيَّنة ومحدَّدة والتي هي بداخِلِنا بكُلِّ تأكيد، مع ذلك هي تأتي جاهزةٌ. مسألةُ أنَّ من الصَّحيحِ أنْ نكونَ محسنينَ هي خبْرةٌ شخصيَّةٌ مباشرةٌ؛ لأنَّ المرْءَ عندما ينكفئُ على ذاتِهِ يجدُ شيئاً، أكثرَ اتِّساعاً وأكثرَ أبديَّةً من شخصيَّتِهِ المنعزلة، التي تقولُ "أريدُ أنْ أفعَلَ ما هو صحيحٌ"، وأيضاً "أريدُ أنْ أفعَلَ الخيْرَ للنَّاسِ"، يُمكِنُهُ أنْ يتحقَّقَ من ذلك عن طريقِ الملاحظةِ المباشرة للغريزةِ الرَّاسخةِ التي يتَّفقُ فيها مع الآخر. وإنَّه لمِنْ واجبِهِ أنْ يتحقَّقَ من ذلكَ وكلِّ العباراتِ المُشابِهَة[1].

---

(١) على سبيلِ المثال، العالَمُ الاخلاقي يُعطينا عموماً مفاهيمَ الصَّواب، العدْل، والصِّدْق، الإحسان، وما أشْبهَ ذلك. هذه مُعطاةٌ كمفاهيم وتصوُّرات، وليست كعباراتٍ أو قضايا وتصديقات؛ هي استجابةٌ لغرائِزَ معيَّنة ومحدَّدة، وهي بداخِلِنا بكُلِّ تأكيد، مع ذلك هي تأتي ناجزةٌ وجاهزةٌ. مسألةُ أنَّ من الصّواب أنْ نكونَ محسنينَ مع النَّاس هي خبْرةٌ شخصيَّةٌ مباشرةٌ تأتي بالبداهة؛ لأنَّ المرْءَ عندما يعودُ إلى نفْسِهِ يجدُ شيئاً أكثرَ اتِّساعاً وأكثرَ أبديَّةً من شخصيَّتِهِ المنعزلة، يقولُ "أريدُ أنْ أفعَلَ ما هو صوابٌ"، وأيضاً "أريدُ أنْ أفعَلَ الخيْرَ للنَّاسِ". ويُمكِنُهُ أنْ يتحقَّقَ من هذا الشَّيءِ البديهي الذي تنطوي عليه ذاتُهُ

التَّقليدُ يقولُ أيضاً، في مكانٍ وزمانٍ مُحدَّد، الأفعالُ كذا وكذا هي عادلةٌ، صادقةٌ، ومحسِنةٌ. لأنَّه في كلِّ القواعدِ التي تكونُ من هذا القبيل البحثُ الإضافيُّ هو أمرٌ ضروريٌّ، طالما أنَّها في بعضِ الأحيان تكونُ متأسِّسةً عن طريقِ سُلْطةٍ، بخلافِ الحسِّ الأخلاقي المتأسِّس على الخبْرة. إلى وقتٍ قريب، التَّقليدُ الأخلاقيُّ في بلدِنا – وفي الحقيقةِ في أوربا بأسْرِها – يُعلِّمُنا بأنَّ من الإحسانِ أنْ نُعطيَ المالَ للمُحتاجِ دونَ تمييز. لكن التَّشكيكُ في هذه القاعدةِ، والبحْثُ فيها، أفضى بالمرْءِ إلى رؤيةِ أنَّ الإحسانَ الحقيقيَّ هو ذاكَ الذي يُساعِدُ الفرْدَ على القيامِ بالعمَلِ الذي يُناسِبُهُ أكثر، وليس ذاكَ الذي يُبْقيهِ ويُشجِّعُهُ على الكسَل؛ وأنْ تتجاهلَ هذا التَّمييزَ في الوقتِ الحالي يعني أنْ تُهيِّأَهُ للتَّملُّقِ والتَّعاسةِ في المستقبل. من خلالِ هذا الاختبار والنِّقاش لم تتمّ تنْقيةُ الممارسةِ فحسْب وجعلها أكثر إحساناً، بل إنَّ مفهومَ الإحسانِ بذاتِهِ أصبحَ أكثرَ اتِّساعاً وحكمةً. هنا يأتي الميراثُ الاجتماعيُّ العظيمُ الذي يتكوَّنُ من قسْمين: غريزةِ

عن طريقِ الملاحظةِ المباشرةِ للغريزةِ الرَّاسخةِ التي يتَّفقُ فيها مع الآخر. ومِنْ واجبِهِ أنْ يتَحقَّقَ من ذلكَ وكلِّ العباراتِ المُشابِهَة، حتى يُميِّزَ ما هو بديهي، عمَّا اكتسبَهُ بالتَّلْقين.

الإحسان، التي تجعلُ جانباً من طبيعتِنا - عندما تُهيمِنُ بنحوٍ مسْبقٍ - تتمنَّى الخيْرَ للنَّاسِ؛ والمفهومِ الفكري للإحسان، الذي يُمكِنُنا مقارنتُهُ مع أيِّ سُلُوكٍ مفترضٍ آخرَ متسائلين: "هل هذا إحسانٌ أو ليس بإحسانٍ؟". من خلالِ الاستمرار بالتَّساؤلِ والإجابة عن أسئلةٍ من هذا القبيلِ المفاهيمُ تنْمو من حيثُ السَّعةِ والتَّمييز، وتصبحُ الغريزةُ أكثرَ قوَّةً ونقاءً. لذا، يظهَرُ أنَّ الاستخدامَ الأعظَمَ للمفهوم، القسْمَ الفكري من الميراثِ، يُمكِّنُنا من طرْحِ الأسئلة؛ وهذا ما يجعلهُ ينْمو ويبْقى مستقيماً من خلالِ الأسئلة؛ وإنْ لم نستخدِمهُ لذلك الغرَضِ فسنفقِدهُ بالتَّدريجِ بنحوٍ كُلِّيّ، وستبْقى مجرَّدُ رُموزٍ من تعليماتٍ لا يمكنُ أنْ يُطلَقَ عليها بنحوٍ صحيحٍ "أخلاقيَّات" على الإطلاق[١].

(١) التَّقليدُ – الذي تمَّ تلقينُهُ لنا – يقولُ: في مكانٍ وزمانٍ مُحدَّدين، الأفعالُ كذا وكذا هي عادلةٌ، صادقةٌ، ومحسِنةٌ. لكن البحْثُ الإضافيُّ في كلِّ القواعدِ التي تكونُ من هذا القبيل هو أمرٌ ضروريٌّ، طالما أنَّ هذه القواعد تكونُ في بعضِ الأحيان متأسِّسةً عن طريقِ سُلْطةٍ، بخلافِ الحسِّ الأخلاقي المتأسِّس على الخبْرة.

على سبيل المثال، إلى وقتٍ قريب، التَّقليدُ الأخلاقيُّ في بلدِنا – بل في أوربا كلِّها – يقولُ لنا أنَّ من الإحسانِ أنْ نُعطيَ المالَ للمُحتاجِ دونَ تمييز.

لكن التَّشكيكُ في هذه القاعدةِ، والبحْثُ والتَّمحيص فيها، أفضى إلى الإيمانِ بأنَّ الإحسانَ الحقيقيَّ هو ذاكَ الذي يُساعِدُ الفرْدَ على القيامِ بالعمَلِ الذي يُناسِبُهُ أكثر، وليس ذاكَ الذي يُبْقيهِ ويُشجِّعُهُ على الكسَل. وتجاهلُ هذا التَّمييزَ حالياً يعني أنْ تُهيِّءَ الآخر للتَّملُّقِ والتَّعاسةِ في المستقبل.

من خلالِ هذا الاختبار والتَّقاش، لم تتمّ فلْترةُ الممارسةِ الأخلاقيَّة فقط، بل إنَّ مفهومَ الإحسانِ بذاتِهِ أصبحَ أكثرَ اتِّساعاً وحكمةً.

هنا يأتي الميراثُ الاجتماعيُّ العظيمُ الذي يتكوَّنُ من قسْمين:

١- غريزةِ الإحسان، التي تجعلُ جانباً من طبيعتِنا تتمنَّى الخيْرَ للنَّاسِ. وهي بمنزلةِ مقدِّمةٍ كبْرى في قياس.

٢- والمفهومِ الفكري للإحسان، الذي يُمكِنُنا مقارنتُهُ مع أيِّ سُلُوكٍ مفترضٍ آخرَ متسائلين: "هل هذا إحسانٌ أو ليس بإحسانٍ؟". وهو يدْعونا للتَّساؤلِ فيما إذا كان هذا المثالُ أو ذاكَ – من حياتِنا اليوميَّة – هو من مصاديقِ تلك المقدِّمة الكبْرى أو لا.

من خلالِ الاستمرار بالتَّساؤلِ والإجابة عن أسئلةٍ من هذا القبيل، تنمو المفاهيمُ من حيثُ السَّعةِ والتَّمييز، وتصبحُ الغريزةُ أكثرَ قوَّةً ونقاءً.

لذا، يظهَرُ أنَّ الاستخدامَ الحيوي للمفهوم (وهو يُمثِّلُ القسْمَ الفكري من الميراثِ)، يُمكِّنُنا من طرْحِ الأسئلة. وطرْحُ الأسئلةِ يزيدُ من نموِّ الميراث

اعتباراتٌ من هذا القبيلِ تنْطبِقُ حتى بنحوٍ أكثرَ جلاءً ووضوحاً، إنْ أمكنَ، على مخزونِ الاعتقادات والمفاهيم التي راكَمَها آباؤُنا لنا فيما يتعلَّقُ بالعالَمِ المادِّي. نحنُ جاهزونَ لكي نضْحكَ على قاعدةِ الإبْهام للاستراليِّ الذي يستمرُّ بربْطِ فأسِهِ الصَّغير إلى جانبِ مقْبَضِهِ، على الرَّغْمِ من أنَّ الفنِّيَّ في برمِنْغهام قد حفَرَ حُفْرةً لكي يتمكَّنَ من وضْعِ المقبضِ داخلَها. قامَ قومُهُ بربْطِ الفأسِ الصَّغير هكذا أجيالاً: فمن هو ذاكَ الذي ينْبغي أنْ يُنصِّبَ نفْسَهُ مُتصَدِّياً لحكمَتِهِم؟ لقد غرَقَ إلى درجةِ أنَّه لم يعُد بمقدورِهِ أنْ يفْعَلَ ما كانَ يجبُ القيامُ به في الماضي البعيد، وهو أنْ يُثيرَ تساؤلاً في الاستخدامِ المُتأسِّس، أو الإبداعِ أو تعلُّمِ شيءٍ أفضل. لكن هنا، في أوائلِ زمنِ المعرفة، حيثُ كان العلْمُ والفنُّ شيئاً واحداً، لا نجدُ إلا القاعدةَ البسيطةَ نفسَها التي يتمُّ تطبيقُها على أعلى وأعمقِ نموٍّ للأشجارِ الكونيَّة؛ من أسمى زهرة على رأسِ الفروع إلى أعمقِ الجُذورِ المخفيَّة؛ القاعدة، أعني أنَّ ما تمَّ تخزينُهُ ونقْلُهُ إلينا يداً بيدٍ

الفكري. وإنْ لمْ نستخدِم المفهومَ لذلك الغرَضِ، فسنفقِدُ الميراثَ الفكري بالتَّدريجِ بنحوٍ كامل، وسيبْقى مجرَّد مجموعة قوانين من أنظِمَةٍ لا يمكنُ أنْ يُطلَقَ عليه بشكلٍ دقيقٍ "أخلاقيَّات" أبداً.

يُستخدَمُ بنحوٍ صحيحٍ من قِبَلِ أولئكَ الذين يتصرَّفونَ كما يتصرَّفُ الصُّنَّاعُ، عندما خزَّنوهُ؛ أولئكَ الذين يستخْدِمونَهُ لإثارةِ أسئلةٍ إضافيَّةٍ؛ أولئكَ الذين يحاولونَ بصدْقٍ وتأنٍّي أنْ يجدوا الطَّريقةَ الصَّحيحةَ للنَّظَرِ إلى الأشياءِ وللتَّعامُلِ معها[١].

---

(١) اعتباراتٌ من هذا القبيلِ تنطبقُ حتى بنحوٍ أكثرَ وضوحاً، على مخزونِ الاعتقادات والمفاهيم التي راكَمَها آباؤُنا لنا فيما يتعلَّقُ بالعالَمِ المادّي.

نحنُ لا نتردَّدُ بالضَّحِكِ على قاعدةِ إصبَعِ الإبْهام لذلك الاستراليِّ، الذي كان يستمرُّ بربْطِ فأسِهِ الحديدي الصَّغير إلى جانبِ مقبضِهِ الخشبي، على الرَّغمِ من أنَّ الفنِّيَّ في برمِنْغهام قد حفَرَ في الفأسِ حفرةً لكي يتمكَّنَ الاستراليُّ من وضْعِ المقبضِ الخشبي داخلَها! إلا أنَّ قومَ ذلك الاسترالي قاموا بربْطِ الفأسِ الصَّغير هكذا أجيالاً: فمن يجرؤ على التصدِّي لحكمَتِهِم؟

لقد انهمَكَ ذلك الاستراليُّ في العمَلِ إلى درجةِ أنَّه لم يعُد قادراً على التفَّكيرِ فيما كان يجبُ القيامُ به في الماضي البعيد، وهو أنْ يُثيرَ تساؤلاً في صناعةِ وتركيبِ الفأس، أو الإبداعِ أو تعلُّمِ شيءٍ أفضل من مجرَّدِ ربْطِ الفأسِ الحديدي بالمقبضِ الخشبي.

لكن هنا، في أوائلِ زمنِ المعرفة، حيثُ كان العلْمُ والفنُّ شيئاً واحداً، لا نجدُ إلا القاعدةَ البسيطةَ نفْسَها التي يتمُّ تطبيقُها دائماً على أدقِّ تفاصيلِ شجرة

السُّؤال الذي يتمُّ طرْحُهُ بطريقةٍ صحيحةٍ هو فعلا نصْفُ الإجابةِ، كما قالَ جاكوبي؛ قد نُضيفُ أنَّ منْهجَ الحلّ هو النِّصفُ الآخر من الإجابة، وأنَّ النَّتيجةَ الواقعيَّةَ تُحسَبُ وكأنَّها لا شيءٌ في مقابلِ هذينِ الأمرين. على سبيلِ المثال، لنتكلَّمَ عن التلِغْراف (البرْقيَّة)، حيثُ أنَّ النَّظريَّةَ والممارسةَ، تطوَّرَ كُلٌّ منْهُما لسنواتٍ على نحوٍ حُرٍّ، هما منْسوجانِ بشكلٍ مدْهشٍ لخدْمةِ النَّاس. أوم Ohm وجَدَ أنَّ قوَّةَ التَّيار الكهربائي تتناسبُ بنحوٍ مباشرٍ مع قوَّةِ البطَّاريَّة التي تُنْتِجُها، وبنحوٍ عكسيٍّ بالنِّسبةِ إلى طولِ السِّلْكِ المارّ فيه (فرْقُ الجُهْد الكهربائي بين طرفي ناقل معدني يتناسبُ طرْديَّاً مع شدَّةِ التَّيار الكهربائي المارّ فيه). يُسمَّى هذا قانونُ أوم: لكن النَّتيجةُ، التي اعتُبِرَت كعبارةٍ لا بدَّ أنْ تُصدَّق، ليستْ هي الجزْء القيِّم منه. فإنَّ النِّصفَ الأوَّلَ من السُّؤال: ما هي العلاقةُ المفيدةُ بين هذه الكمِّيَّات؟ إنَّ تمَّ وضْعُ السُّؤال على هذا النَّحو، فهو يستبطنُ مفهومَ قوَّة التيَّار، وقوَّة البطَّاريَّة، ككميَّاتٍ يمكنُ قياسُها ومقارنَتُها؛ فهي توحي

المعرفة، أعني أنَّ ما تمَّ تخزينُهُ ونقْلُهُ إلينا يداً بيدٍ يُستخدَمُ بنحوٍ صحيحٍ من قِبَلِ أولئكَ الذين يتصرَّفونَ كما يتصرَّفُ الصُّنَّاعُ.

بوضوحٍ بأنَّ هذه هي الأشياءُ التي لا بدَّ أنْ تكونَ مُسْتحضرةً في دراسةِ التَّيَّاراتِ الكهربائيَّة. النِّصفُ الثَّاني هو منْهجُ البحْثِ (التَّحقيق)؛ كيف يمكنُ قياسُ هذه الكمِّيَّات، ما هي الأدواتُ المطلوبةُ للتَّجرِبةِ، وكيف يمكنُ استخدامُها؟ الطَّالبُ الذي يبدأُ بالتعلُّمِ حول الكهرباء لا يُطلَبُ منْهُ أنْ يُصدِّقَ بقانونِ أوم: بل يتمُّ إفهامُهُ السُّؤال، ووضْعُهُ عند الأدوات، ليتعلَّمَ التَّحقُّقَ منْهُ. يتعلَّمُ القيامَ بأشياءٍ، لا ليظُنَّ أنَّه يعرفُ الأشياءَ، بل ليستخدِمَ الأدوات ويُثيرَ الأسئلة، لا ليقبْلَ بعبارةٍ تقليديَّة. السُّؤالُ الذي يتطلَّبُ عبقريَّاً لكي يسألهُ بنحوٍ صحيحٍ قد تمَّت الإجابةُ عنه من قِبَلِ مبتدئ. لو ضاعَ قانونُ أوم فجأةً ونَسِيَهُ جميعُ النَّاسِ، فإنَّ السُّؤالَ ومنْهجَ الحلِّ بقِي، فالنَّتيجةُ يمكنُ إعادةُ اكتشافِها في غضونِ ساعة. لكن النَّتيجةُ بذاتِها، إنْ صارَتْ معروفةً للنَّاسِ الذين ليس بمقدورِهِم أنْ يستوعبوا قيمةَ السُّؤال أو طريقةَ (أدوات) حلِّهِ، فستكونُ (النَّتيجةُ) كساعةٍ في يدٍ همجيٍّ (متوحِّشٍ) يتخبَّطُ في التَّعاطي معها، أو كباخرةٍ حديديَّةٍ يشتغلُ عليها مهندسونَ أسبان[١].

(١) ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ الجمعة: ٥.

إذن فيما يتعلَّقُ بالتَّقليدِ المُقدَّسِ للبشريَّةِ، نتعلَّمُ أنَّه يتكوَّنُ، لا من قضايا أو عباراتٍ لا بدَّ أنْ تُقبَلَ أو يُعتقَدَ بها على أساسِ سُلْطةِ التَّقليد، وإنَّما يتكوَّنُ من أسئلةٍ مثارةٍ بطريقةٍ صحيحة، من مفاهيمَ تُمكِّنُنا من إثارةِ أسئلةٍ إضافيَّة، ومن مناهجَ في الإجابةِ عن الأسئلة. إنَّ قيمةَ هذه الأشياء كلّها تعتمدُ على كونِها تحتَ الاختبار (الفحص) يوماً بعد يوم. إنَّ قُدْسيَّةَ الوديعةَ الثَّمينةَ تفرِضُ علينا واجِبَ ومسئوليَّةَ اختبارِها، تنْقيتِها وتوسِعَتِها إلى أقصى ما في وُسْعِنا. إنَّه ذلك الذي يستفيدُ من نتائِجِها لكبْتِ شكوكِهِ الخاصَّة، أو لإعاقةِ الآخرينَ عن البحْثِ (التَّحقُّق)، هو المذْنِبُ بتدنيسِ المُقدَّساتِ تدنيساً لنْ تتمكَّن قرونٌ من الزَّمنِ من تطْهيرِهِ. عندما يرْفعُ العاملون ومثيرو التَّساؤلات الصَّادقونَ والشُّجعانَ بناءَ نسيجِ الحقيقة المعروفة إلى مجْدٍ لم يكُنْ بمقدورِ هذا الجيلِ أنْ يأمَلَهُ أو يتخيَّلَهُ، إلى ذلك المعْبدِ النَّقيِّ والمُقدَّسِ، قد لا يكونُ لأحدِهِم نصيبٌ أو حصَّةٌ، بل اسْمُهُ وعملُهُ قد يُطوى في ظُلْمةِ النِّسيانِ إلى الأبد.

ثالثاً: حدودُ الاستدلال

التَّساؤلُ حول الحالات التي قد نعتَقِدُ بها والتي تتجاوزُ خبْرتَنا، هو كبيرٌ جدَّاً وحسَّاسٌ، يمتدُّ إلى مدى المنْهجِ العِلْمي ككُلٍّ، ويتطلَّبُ زيادةً معتدٌّ بها في تطبيقِهِ قبلَ أنْ يتمَّ الإجابةُ عنْهُ مع أيِّ شيءٍ يُقرِّبهُ من الكمال. لكن احدى القواعد، التي تعتمدُ على عتبةِ الموضوع، من البساطةِ الشَّديدة ولها أهميَّةٌ عمليَّةٌ واسعة، يمكنُ التطرُّقُ إليها هنا وتثبيتُ أساسِها.

قليلٌ من التَّأمُّلِ سيُرينا أنَّ كلَّ اعتقادٍ، حتى أبسَطَها وأكثرَها أساسيَّةً، يتجاوزُ الخبْرةَ حينما يتمُّ التَّعاطي معه على أنَّه موجِّهٌ لأفعالِنا. الطِّفْلُ الذي تعرَّضَ للاحتراقِ يهابُ النَّارَ، لأنَّه يعتقدُ أنَّ النَّارَ ستُحرِقُ اليومَ كما أحرقَتْ بالأمس؛ لكن هذا الاعتقادُ يتجاوزُ الخبْرة، ويَفترِضُ أنَّ نارَ اليوم غيرُ المعروفة هي كنَارِ الأمسِ المعروفة. حتى الاعتقادَ بأنَّ الطِّفلَ قد تعرَّضَ للاحتراقِ بالأمسِ يتجاوزُ الخبْرةَ الحاليَّة، الذي يتضمَّنُ فقط ذاكرةَ الاحتراق، وليس

الاحتراقَ بذاتِهِ؛ لذا يفترِضُ أنَّ هذه الذَّاكرةَ جديرةٌ بالثِّقةِ، على الرَّغم من أنَّنا نعرِفُ بأنَّ الذَّاكرةَ قد تكونُ مخطئةً في كثيرٍ من الأحيان. لكن إنْ تمَّ استخدامُها كمُوجِّهٍ للفعلِ، وكمؤشِّرٍ لما سيقَعُ في المستقبل، فيجبُ أنْ نفترِضَ شيئاً ما حول المستقبل، أعني أنَّ هذا سيكونُ متَّسقاً مع افتراضِ أنَّ الاحتراقَ قد حدَثَ بالأمسِ فعلاً؛ والذي يتجاوزُ الخبْرةَ[1]. حتى أنَّ "الأنا" الأساسيَّةَ، التي لا

(١) عندما نتأمل قليلاً سنرى أنَّ كلَّ اعتقادٍ، مهما كان بسيطاً وأساسياً، هو يتجاوزُ الخبْرةَ إذا ما تمَّ التَّعاطي معه كموجِّهٍ لأفعالِنا. خذ على سبيل المثال، الطِّفْل الذي تعرَّضَ للاحتراقِ يوماً ما، ستجِدُهُ يَهابُ النَّارَ...لماذا؟ لأنَّه يعتقدُ أنَّ النَّارَ قد تُحرِقُهُ اليومَ كما أحرقتْهُ بالأمس؛ لكن هذا الاعتقادُ يتجاوزُ الخبْرةَ الحاليَّة، لأنَّهُ يَفترِضُ أنَّ نارَ اليومِ التي لم يخْبُرْها بعد هي مثلُ نَارِ الأمسِ التي أحرقتْهُ. بل حتى الاعتقادَ بأنَّ الطِّفلَ قد تعرَّضَ للاحتراقِ بالأمسِ يتجاوزُ الخبرةَ الحاليَّة! لماذا؟ لأنَّهُ لا يتضمَّنُ إلا ذكريات عن الاحتراق، وليس الاحتراقَ بذاتِهِ؛ وهو في اعتقادِهِ هذا يفترِضُ أنَّ هذه الذَّاكرةَ جديرةٌ بالثِّقةِ، على الرَّغْم من أنَّنا نعرِفُ بأنَّ الذَّاكرةَ قد تكونُ مخطئةً في كثيرٍ من الأحيان. لكن إنْ تمَّ استخدامُ الاعتقاد كمُوجِّهٍ للفعْلِ، وكمؤشِّرٍ لما سيقَعُ في المستقبل، فهنا لا بدَّ أنْ نفترِضَ شيئاً ما حول المستقبل، أي أنَّ هذا الافتراضَ الجديد لا بدَّ أنْ يكونَ متَّسقاً مع افتراضِ أنَّ الاحتراقَ قد حدَثَ

يمكنُ الشَّكُّ فيها، ليستْ مرْشداً للفعْلِ حتى تتبلور تلك "الأنا" إلى "أنا سوف"، والتي تتجاوزُ الخبْرةَ. لذا، فإنَّ التَّساؤُلَ ليس "هل بإمكانِنا أنْ نعتقِدَ بما يتجاوزُ الخبْرةَ؟" لأنَّ هذا مستبطَنٌ في طبيعةِ الاعتقاد بذاتِهِ؛ وإنَّما "إلى أيِّ درجةٍ وبأيِّ طريقٍ يمكنُ أنْ نُوسِّعَ خبرَتَنا في تشكيلِ اعتقاداتِنا؟"[1].

وثمَّةَ إجابة، في قمَّةِ البساطةِ والشُّموليَّة، يمكنُ طرْحُها عن طريقِ المثالِ السَّابق: خوفُ الطِّفْلِ الذي تعرَّضَ للاحتراق. قد نتجاوزُ

بالأمسِ فعلاً؛ وهذا الافتراضُ الجديد يتجاوزُ الخبْرةَ...لماذا؟ لأنَّه مجرَّد ذكريات عن الاحتراق.

(١) حتى الـ "الأنا" التي يسْتشعِرُها كلُّ واحدٍ منَّا، والتي لا يمكنُ الشَّكُّ فيها، ليستْ مرْشداً للفعْلِ حتى تتجلَّى بوصفِها ذاتاً مشدودةً للمستقبل، وتُعبِّرُ عن نفْسِها بـ "أنا سوف"، بنحوٍ يسْتبطنُ تجاوزاً للخبْرةَ. لذا، فإنَّ سؤالَنا يُفترَضُ أنْ لا يكون "هل بإمكانِنا أنْ نعتقِدَ بما يتجاوزُ الخبرةَ؟" لأنَّ هذا التَّجاوز مسْتبطَنٌ في طبيعةِ الاعتقاد طالما أُخِذَ كمُوجِّهٍ للمستقبل، وإنَّما يُفترَضُ أنْ يكونَ السُّؤالُ هكذا: "إلى أيِّ درجةٍ وبأيِّ سبيلٍ نُوسِّعُ خبْرَتَنا لنُضيفَ إليها عندما نُشكِّلُ اعتقاداتَنا؟".

الخبْرةَ من خلالِ افتراض أنَّ ما لا نعرِفُهُ يشْبَهُ ما نعرِفُهُ؛ أو بكلماتٍ أُخرى، قد نُوسِّعُ خبْرتَنا (نُضيفُ إليها) افتراض إطِّراد الطَّبيعة[١]. ما هو هذا الإطِّراد بالدِّقَّة، كيف نُنَمِّي معرفتَنا به من جيلٍ إلى جيل، هذه هي الأسئلةُ التي تركناها في الوقتِ الحالي، لكونِنا اكتفينا باختبارِ (فحْص) حالتينِ قد تُساعِدانِ في تبسيطِ طبيعةِ القانون.

من ملاحظاتٍ معيَّنةٍ تمَّ القيامُ بها من خلالِ مِنْظار، نستنتجُ وجودَ هيدروجين في الشَّمْس. وبالتَّظَرِ في مِنْظارٍ لحظةَ شروقِ الشَّمْس، نرى خطوطاً مضيئةً محدَّدةً ومعيَّنة: والتَّجارِبُ التي تمَّ القيامُ بها على أبدانِنا على الأرضِ علَّمَتْنا أنَّه حينما ترى هذه الخطوطَ المضيئةَ فإنَّ الهيدروجين هو مصْدَرُها. نفترضُ أنَّ الخطوطَ المضيئةَ المجهولةَ في الشَّمْسِ تشْبَهُ الخطوطَ المضيئةَ المعروفةَ في المختبر، وأنَّ ذلك الهيدروجين في الشَّمْسِ يسْلُكُ كالهيدروجين على الأرضِ عندما يكونُ تحتَ ظُروفٍ مشابهة.

---

(١) الإطِّراد هو التَّكرُّر والتَّتابع على نحوٍ واحد. فمثلاً الشَّمْسُ تُشْرِقُ كلَّ يومٍ باطِّراد، والنَّارُ تُحْرِقُ باطِّراد، والإنسانُ يموتُ بإطِّراد...وهكذا.

ولكن ألَسْنا نثِقُ بمِنْظارِنا بنحوٍ مبالَغٍ به؟ بالتَّأكيد، عندما وجدْناهُ جديراً بالثِّقةِ في الموادِّ الأرْضيَّةِ، حيثُ يمكنُ للإنسانِ أنْ يتحقَّقَ من مُعطَياتِهِ، فنحنُ مُبرَّرينَ في أنْ نقْبَلَ بشهادَتِهِ في حالاتٍ مشابهةٍ أُخرى؛ لكن ليس عندما يُقدِّمُ لنا معلوماتٍ حول أشياءٍ عن الشَّمْس، عندما لا يمكنُ للإنسانِ أنْ يتحقَّقَ مباشرةً من شهادَتِهِ؟

بالتَّأكيد، نريدُ أنْ نعرِفَ أكثَرَ بعضَ الشَّيءِ قبلَ أنْ يكونَ هذا الاستدلالُ مُبرَّراً؛ ولحُسْنِ الحظِّ فإنَّنا نعرِفُ هذا. المِنْظارُ يشْهَدُ على الشَّيءِ نفْسِهِ في الحالتين؛ أعني أنَّ ارتداداتَ الضَّوءِ بنِسْبةٍ معيَّنةٍ تكونُ مُرْسلةً من خلالِهِ. إنَّ بناءَهُ يكونُ بنحوٍ إنْ كان خطئاً حول هذا في حالةٍ واحدة، فسيكونُ خطأً في الأخرى. عندما نأتي لنتفحَّصَ الموضوع، نجدُ أنَّنا قد افترَضْنا فعلاً أنَّ موضوعَ الشَّمْسِ يشْبهُ موضوعَ الأرْض، مُكوَّنٌ من عددٍ معيَّنٍ من الموادِّ المُتميِّزة؛ كلٌّ منها عندما تكونُ حارَّةً جدَّاً، فإنَّ لها نسْبةً متميِّزةً من التموُّجِ (التذبْذُب)، يمكنُ من خلالِها تشخيصُها وتمييزُها عن البقيَّة. لكن هذا هو النَّوعُ من الافتراضِ نكونُ مُبرَّرينَ في استخدامِهِ عند نُضيفُهُ إلى خبْرتِنا. إنَّه افتراضُ الإطِّرادِ في الطَّبيعةِ، ويمكنُ

التَّأكُّدُ منه فقط من خلالِ المقارنةِ مع افتراضاتٍ كثيرةٍ مشابهةٍ لا بدَّ أنْ نُقدِّمَها في حالاتٍ أخرى من هذا القبيل.

لكن الاعتقادُ بوجودِ هيدروجين في الشَّمْسِ هل هو اعتقادٌ صادقٌ (مطابق للواقع)؟ هل سيُساعِدُ في إرْشادِ الفعْلِ البشري إرْشاداً صحيحاً؟

بالتَّأكيد لا، لو تمَّ التَّسليمُ به على أُسُسٍ واهيةٍ، ومن دونِ شيءٍ من الفهْمِ للعمليَّةِ التي يَسيرُ عليها. لكن عندما تُؤخَذُ هذه العمليَّةُ كأساسٍ للاعتقاد، يصبحُ الأمرُ جِدِّياً جدَّاً وعمليَّاً. لأنَّه إنْ لم يكن ثمَّةَ هيدروجين في الشَّمْسِ، فإنَّ المِنْظارَ – أعني أداة قياس نِسَبِ التموُّج (التذبْذُب) – يجبُ أنْ يكونَ مُرْشداً غيرُ مؤكَّدٍ في تشخيصِ اختلافِ الموادِّ؛ ومن ثمَّ ينْبغي عدمُ استخدامِهِ في التَّحليلِ الكيميائي – في الاختبار، على سبيلِ المثال – لتوفيرِ العظيمِ من الوقت، المتاعب، والمال. حيثيَّةُ القبول بالمِنْظارِ كمنْهجٍ جديرٍ بالثِّقةِ أغنانا ليس فقط بمعادِنَ جديدة، والذي هو أمرٌ عظيم، بل بعمليَّاتٍ جديدةٍ من البحْث، والذي هو أمرٌ أعظم.

مثالٌ آخر، دعونا نأخُذُ بعينِ الاعتبار الطَّريقةَ التي من خلالِها نستدِلُّ على حقيقةِ حدَثٍ تاريخيٍّ – قُلْ حصار سيراكيوز في الحرْبِ البيلوبونيسيَّة. خبرَتُنا هي في وجودِ مخطوطاتٍ يُقالُ أنَّها بنفْسِها مخطوطاتٌ لتاريخِ ثوسيديدس؛ وفي مخطوطاتٍ أُخرى يذْكُرُها مؤرِّخونَ متأخِّرون، تمَّ وصْفُهُ على أنَّه يعيشُ أثناءَ الحرْب، وأنَّ الكُتُبَ التي يُفترَضُ أنَّها ترْجِعُ إلى زمنِ إحياءِ التَّعليم، تقولُ لنا كيفَ أنَّ هذه المخطوطات قد تمَّ المحافظةُ عليها ومن ثمَّ اكتسابُها. ونجدُ أيضاً أنَّ الرِّجالَ، كقاعدةٍ، لا يعْمَدونَ إلى تأليفِ الكُتُبِ والتَّواريخ دونَ حافزٍ خاصٍّ؛ نحنُ نفترضُ ذلك بالنِّسبةِ إلى رجالِ الماضي كالرِّجالِ في الحاضر؛ ونحنُ نُلاحِظُ في هذه الحالةِ أنَّه لم يكن ثمَّةَ حافز. وهذا يعني، أنَّنا نُضيفُ ذلك إلى خبْرَتِنا على افتراضِ الإطِّراد في شخصيَّاتِ الرِّجال. وذلك لأنَّ معرفتَنا بهذا الاطِّرادِ أقلُّ اكتمالاً ودقَّةً بكثيرٍ من معرفتِنا التي ظفرْنا بها من الفيزياء، الاستدلالاتُ من النَّوعِ التَّاريخي هي أكثرُ تزعْزُعاً وأقلُّ دقَّةً من تلك الاستدلالاتِ التي نجِدُها في العلومِ الأخرى.

لكن إنْ كان ثمَّةَ أيّ سببٍ خاصٍّ للتَّشكيكِ في شخصيَّاتِ الأفرادِ الذين كتبوا ونقلوا كُتُباً معيَّنةً، فإنَّ الحالةَ تصبحُ مختلفةً (متغيِّرة).

إنْ كان ثمَّةَ مجموعة من الوثائقِ تُعطي أدلَّةً داخليَّةً على أنَّه قد تمَّ إنتاجُها بين أُناسٍ قاموا بتزويرِ كُتُبٍ بأسماءِ آخرين، وأنَّهُم، في وصْفِهِم للأحداثِ، قد قاموا بطمْسِ تلك الأشياء التي لا تُلائِمُهُم، بينما ضخَّموا الأشياءَ التي تُلائِمُهُم؛ أولئك لم يرْتكبوا هذه الجرائمَ فحسْب، بل قاموا بتمجيدِها كأدلَّةٍ على التَّواضُعِ (الإذلال) والحماسةِ (التَّعصُّب)؛ إذن يجبُ أنْ نقولَ أنَّه لا يمكنُ تأسيسُ استدلالٍ تاريخيٍّ صادقٍ على أساسِ وثائقَ من هذا القبيل، وإنَّما مجرَّدُ تخمينٍ غير مُرْضي[١].

(١) **أقول**: أتَّفق مع كليفورد في تشكيكِهِ في التَّواريخ عموماً، لكن ليس إلى هذه الدَّرجةِ التي يدَّعيها. فهناك استثناءات، وأحداث، وبعض التَّفاصيل، التي يمكنُ انتزاعُها من مصادِرَ متعارضة الاتِّجاه، لا مصْلحةَ لها في ذِكْرِ بعض المعلومات. كما أنَّ بعضَ تلك الأحداث والتَّفاصيل تحقَّقَ فيها التَّواتُر، والتَّشكيكُ بها لا يكونُ إلا ضرْباً من الوسوسةِ التي يتفاداها العُقلاءُ عادةً. خُذْ على سبيلِ المثال، القرآنُ، بما يحويه من معطياتٍ تاريخيَّة. هذه الوثيقةُ يمكنُ سرْدُ سلْسلةٍ مفصَّلةٍ من القرائنِ والشَّواهدِ الدَّالة على سلامتِه من التَّحريفِ والتَّزوير، حتى قبْلَ الإيمان بأنَّه صادرٌ من الله. هذا الأمرَ بحثْتُهُ وشرحتُهُ بالتَّفصيلِ في كتابي محطَّات في تاريخ القرآن.

لذا يُمكِنُنا أنْ نُضيفَ إلى خبْرَتِنا الافتراضُ باطِّرادِ الطَّبيعة؛ يُمكِنُنا أنْ نملأَ الصُّورةَ التي لدينا بما كانَ وما سيكونُ، كما تُعطينا الخبْرةُ، بطريقةٍ تجعلُ الكُلَّ متَّسِقاً مع هذا الاطِّراد. والاستدْلالُ المبرْهَنُ العمليُّ – الذي يُعطينا الحقَّ بأنْ نعتَقِدَ بنتيجتِهِ – هو واضحٌ يُبيِّنُ أنَّه ليس ثمَّةَ طريقة أخرى يمكنُ من خلالِها الاحتفاظُ بإطِّرادِ الطَّبيعةِ غير صِدْق هذه النَّتيجة.

لذا، لا دليلَ يمكنُ أنْ يُبرِّرَ اعتقادَنا بصدْقِ التَّصريح (العبارة) المُعارِض (المُناقِض) لـ، والخارج عن، إطِّرادِ الطَّبيعة. لو أنَّ خبْرتَنا كانت بنحوٍ لا يُمكِنُها أنْ تملأَ الاتِّساقَ مع الإطِّراد، فكلُّ ما يحِقُّ لنا استنتاجُهُ هو أنَّ هناك خطأً ما في مكانٍ ما؛ لكن إمكانيَّةُ الاستدلالِ تكونُ قد تلاشَتْ؛ فيجبُ أنْ نتَّكِئَ على خبْرتِنا، ولا نتجاوزَها أبداً. لو وقَعَ حدَثٌ بالفعْلِ لم يكنْ جُزْءاً من الاطِّرادِ في الطَّبيعةِ، فسيكونُ له خاصيَّتينِ: لا دليلَ يُمكِنُهُ أنْ يُعطي الحقَّ لأيٍّ منَّا بأنْ نعتَقِدَ به باستثناءِ أولئكَ الذين كانوا قد خبَرُوهُ؛ ولا استدْلالَ جديرٌ بالاعتقادِ يُمكِنُهُ أنْ يتأسَّسَ عليه على الإطلاق.

هل نحنُ إذن مقيَّدونَ بالاعتقادِ بأنَّ الطَّبيعةَ مطّردةٌ بنحوٍ مطْلقٍ وشامل؟ بالطَّبْع كلا؛ ليس لدينا الحقّ بأنْ نعتَقِدَ بأيِّ شيءٍ من هذا القبيل. إنَّ القاعدةَ تقولُ لنا فقط بأنَّه في تشكيلِ الاعتقادات التي تتجاوزُ خبْرتَنا، يُمكِنُنا أنْ نفترِضَ أنَّ الطَّبيعةَ مطَّردةٌ عمليًّاً على حدِّ عِلْمِنا. ضمْنَ نطاق الفعْل والتَّحقُّق (البحْث) البشري، يُمكِنُنا أنْ نُشكِّلَ، بمساعدةِ هذا الافتراض، اعتقاداتٍ واقعيَّةٍ؛ ما وراءَ ذلك، فقط تلك الافتراضات التي تخدِمُ في إثارةِ أسئلة أكثرَ دقَّة.

والخلاصةُ:

قد نعتقدُ بما يتجاوز خبْرتَنا، فقط عندما تكونُ مستدلَّةً من الخبْرةِ عن طريقِ الافتراض بأنَّ ما لا نعرِفُهُ يشْبهُ ما نعرِفُهُ.

قد نعتقدُ بتصريح (بعبارةٍ) شخصٍ آخرَ، عندما يكونُ ثمَّةَ أساسٍ معقولٍ لافتراضِ أنَّه يعرِفُ الموضوعَ الذي يتحدَّثُ عنه، وأنَّه يتكلَّمُ بالحقيقةِ (الصِّدْق) بقدرِ معرفتِهِ بها.

إنَّه من الخطأِ في كلِّ الحالات الاعتقاد بأدِلَّةٍ غير كافية؛ وحيثُما كان ثمَّةَ مجالٍ للبدْءِ بافتراضِ الشَّكِّ وللبحْث، فـ(ليس) هناك ما هو أسوأُ من البدْءِ بافتراضِ الاعتقاد.

(ملحق)

إرادة الاعتقاد (عند وليم جيمس)

من أبرَزِ من تصدَّي للرَّدِّ على وِلْيَم كليفورد، الفيلسوفُ وعالِمُ النَّفْس الأمريكي وليم جيمس William James (١٨٤٢- ١٩١٠) في محاضرتِهِ "إرادةُ الاعتقاد" The Will To Belief (١٨٩٧)، وفكرتُهُ الأساسيَّةُ في غايةِ البساطة؛ يمكنُ تلخيصُها على النَّحوِ التَّالي:

في حالاتٍ معيَّنة، عندما يكونُ كُلًّاً من الاعتقادِ والشَّكِّ في الفرضيَّاتِ الحيَّةِ أمرينِ ممكنين، فإنَّ احتمالَ الوصول إلى الحقيقةِ بالاعتقادِ يكونُ (عمليًّاً) أرْجحُ من احتمالِ الوصول إلى الحقيقةِ بالتوقُّفِ والشَّكِّ. وإنْ كنْتَ في الاعتقادِ مُعرَّضاً للوقوعِ في الخطأ، فإنَّكَ إنْ اخترْتَ الوقوفَ والشَّكَ تكونُ على خطَرٍ آخر، وهو خطر فُقدانِ الحقيقة. لذا فإنَّ إرادةَ الاعتقاد مثمرةٌ عمليًّاً في الوصولِ إلى الحقيقة.

أما اللَّاأدري، فهو مسكونٌ بهاجسِ الخوفِ من الوقوعِ في اعتقادٍ باطل، وكراهيةِ اكتشاف أنَّه كان مخدوعاً، فهو عبْدٌ لهذا الخوفِ وتلك الكراهية. في المقابل، يرى جيمس أنَّ الشَّجاعةَ تقتضي

الاعتقادَ بما دلَّتْ عليه الأدلَّةُ حتى لو لمْ تكنْ كافيةً، بشرْطِ تصحيحِ الاعتقاد فيما لو تبيَّنَ خطؤهُ.

الشُّروط الثَّلاثة للفرضيَّات المتنافسة:

لكن هل ثمَّة شروط لا بدَّ أنْ تستوفيها الفرضيَّات حتى تدخُلَ إلى حلَبَةِ المنافسة فيما بينها؟

الجواب: نعم، يضَعُ جيمس ثلاثةَ شروط لأيَّةِ فرضيَّةٍ hypothesis حتى تكونَ منافسةً، وهي أنْ تكونَ حيَّةً live، اضطراريَّةً forced، ومهمَّةً momentous. وإليكَ توضيحُ ذلك.

١ - حياةُ الفرضيَّات المتنافسة:

يقولُ جيمس أنَّ "الاختيارَ الحيَّ هو كلُّ اختيارٍ بين فرضيَّتينِ، كلٌّ منهما حيٌّ. فإذا ما قلْتُ لأحدِكُم مثلاً: "كُنْ صوفيَّاً أو مسْلِماً"، فإنَّه قد يُعتبرُ هذا التَّخييرُ تخييراً ميِّتاً، لأنَّ كلَّ واحدةٍ من القضيَّتينِ المُخيَّرِ بينهُما قد يبدو له غيرُ ممكنة الصِّدْق. ولكن إذا قُلْتُ له: "كُنْ لا أدْريَّاً أو مسيحيَّاً"، فإنَّ الأمرَ بالعكسِ، لأنَّ كلَّ واحدةٍ من

القضيَّتينِ المُخيَّرِ بينهُما قد تبدو محتملةَ الصِّدْقَ عندَهُ، ولو احتمالاً بعيداً، بسببِ ما درَجَ عليه من ثقافات"[١].

ويؤكِّدُ جيمس على أنَّ وصْفَ الفرضيَّةِ بالحياةِ أو الموت هو وصفٌ ذاتيٌّ، لا موضوعي؛ ففرضيَّةُ المهدي (المنتظر) هي فرضيَّةٌ حيَّةٌ بالنِّسبةِ لثقافةِ العربي (ولو لم يعتقد بها)، لأنَّها تقَعُ ضمْنَ المُمكناتِ الذِّهنيَّةِ بالنَّسبةِ إليه، لكنَّها ليست كذلك بالنِّسبةِ لنا[٢]. "ومن هذا يتبيَّنُ أنَّ كُلًّا من حياةِ القضيَّةِ الفرضيَّة وموتِها ليس وصفاً ذاتيًّا لها، ولكنَّه وصفٌ إضافيٌّ بالنِّسبةِ للفرْدِ المُفكِّرِ فيها. ومقياسُ حياتِها أو موتِها هو رغبةُ المرْءِ في أنْ يفعلَ شيئاً نحوها. والحدُّ الأعلى لحياتِها هو

---

(١) وليم جيمس، إرادة الاعتقاد، ضمن كتاب العقل والدين، ترجمة د. محمود حب الله، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، مع بعض التصرف، ص٦- ٧.

(٢) **أقول**: من الطَّبيعي أنْ لا تكون فرضيَّةُ المهدي (المنتظر) حيَّةً بالنِّسبةِ إليهم؛ لأنَّهُم بالأساس لا يؤمنونَ بنُبوَّةِ النَّبيِّ محمَّد ﷺ. وإلا لو آمنوا بنُبوَّتِهِ ﷺ لانبعثَت الحياةُ في هذه الفرضيَّةِ على الفور، بمجرَّد أنْ يعلموا أنَّه هو ﷺ من أكَّدَ عليها.

في الإصْرارِ على الفعْل. وذلك، من ناحيةٍ عمليَّةٍ، هو الاعتقاد. وكلَّما وُجِدَتْ إرادةُ الفعْلِ عند الإنسان، وُجِدَ عندَهُ ميلٌ نحو الاعتقاد"[١].

٢ - الاختيار الاضْطراري:

ويقصدُ جيمس بالاختيارِ الاضْطراري أنْ نكونَ في وضْعٍ نضْطرُّ فيه لاتِّخاذِ موقفٍ تجاهَ الفرضيَّة، بالقبولِ أو الرَّفض، بمعنى أنَّه لا يمكنُ تفادي اتِّخاذ قرار بشأنِها. فإذا ما قيلَ لنا: "إما أنْ تخرُجَ إلى الخَلاءِ ومعك مظلَّة، وإما أنْ تخرُجَ من غيرِ مظلَّة". فإنَّ هذا الموقفَ لا يفرضُ علينا اختياراً حقيقيًّا، لأنه ليس اضْطراريًّا. إذْ يمكنُ أنْ نتجنَّبَهُ avoidable ونبْقى في المبْنى دون أنْ نخرُجَ إلى الخَلاءِ أصلاً[٢].

فالشَّرطُ الثَّاني إذن هو أنْ يكون الاختيارُ بين الفرضيَّاتِ اختياراً اضْطراريًّا.

---

(١) وليم جيمس، إرادة الاعتقاد، ص٦.

(٢) وليم جيمس، إرادة الاعتقاد، ص٧.

٣ - أهميَّةُ المحتمل:

يقولُ جيمس: "وأخيراً، إذا كان معنا الدُّكتور نانْسين (أحدُ العلماء المشْهورين في علْمِ الحيوان، وكان شغوفاً بالرِّحلاتِ الكشْفيَّة)، وعرَضْتُ عليه أنْ يُصاحِبَني في رحلَةٍ إلى القُطْبِ الشَّمالي، فإنَّ التَّخييرَ المُقدَّم له يكونُ تخييراً خطيرَ الشَّأن. لأنَّه قد يكونُ عرْضاً لا يمكنُ أنْ يتكرَّرَ بالنِّسبةِ إليه. ولا شكَّ أنَّ كلَّ من يرْفضُ أنْ ينتهِزَ الفرْصةَ الوحيدةَ حين تُهيَّأ له، فإنَّهُ يفقِدُ ثمرَتَها كما لو حاولَ ثمَّ أخفق.

ولكن إذا لم تكُنْ الفرْصةُ وحيدةً في بابِها، أو كان ما يُخاطِرُ به قليلَ الأهميَّة، أو كان القرارُ ممكنَ النَّقْضِ إذا لم يكنْ موفَّقاً، فإنَّ الخيارَ لا يكونُ مهمَّاً.

ويوجدُ كثيرٌ من هذا النَّوعِ في الحياةِ العمليَّةِ. فالشَّرْطُ الثَّابتُ والأخيرُ هو أنْ يكونَ الاختيارُ ذا أهميَّة كبيرة بالنِّسبةِ لنا"[١].

---

(١) وليم جيمس، إرادة الاعتقاد، ص٧- ٨.

الاعتقاد من زاوية نفْسيَّة:

ثمَّ يتحدَّثُ جيمس عن الاعتقادِ من زاويةٍ نفْسيَّةٍ، ليتوقَّفَ عند تأثيرِ الإرادة في تشكيلِ الاعتقاد، ربَّما حتى في الاعتقادِ الذي يُتوهَّمُ أنَّه تشكَّلَ نتيجةَ جُهْدٍ عقليٍّ خالص، فيقول: "هنا أجدُ نفْسي مضْطرَّاً لأنْ أقولَ إنَّه يُخيَّلُ إلينا، عند التَّأمُّلِ، أنَّ اعتقادَنا في بعضِ المسائلِ التي آمنَّا بها أثرٌ لفعْلِ طبائعِنا الوجدانيَّةِ والاختياريَّة، وأنَّ اعتقادَنا في بعضٍ آخرَ منها أثرٌ لمجهوداتِنا العقليَّة، وليس لطبائعِنا الوجدانيَّة والاختياريَّة أثرٌ فيها. ذلك النَّوعُ الأخير هو الذي أُحِبُّ أنْ أبحثَ فيه أوَّلاً.

فما هو المرادُ بتأثيرِ الإرادةِ في الاعتقاد؟ أوليس يبدو مُحالاً أنْ نتحدَّثَ عن إمكانِ تعديلِ آرائِنا ومعتقداتِنا بمجرَّدِ المشيئةِ والإرادة؟ وهل يمكنُ لإرادتِنا أنْ تُساعِدَ أو تشُلَّ قوَّتَنا التَّفكيريَّةَ على إدْراكِ الصِّدْق؟ وهل يُمكِنُنا أنْ نعتَقِدَ، لأنَّنا أرَدْنا ذلك، أنَّ وجودَ أبراهام لينكولِن لم يكن إلا خرافة، وأنَّ رسومَهُ في مجلَّةِ مَكْ كلور McClure's Magazine هي رسومٌ لشخْصٍ آخر؟ وهل يمكنُ أنْ نعتَقِدَ، بأيِّ محاولةٍ من محاولاتِ الإرادةِ أو بأيَّةِ رغبةٍ قويَّةٍ، أنَّنا

أصحَّاءَ ومتنقِّلونَ من مكانٍ إلى آخر، إذا كُنَّا في الواقعِ طريحي الفراش نشكو من مرضِ الرُّوماتيزم؟ وهل يُمكِنُنا أنْ نعتَقِدَ أنَّ الورقةَ الماليَّةَ، التي معنا والتي قيمتُها الفعْليَّةُ دولاران، يجبُ أنْ تكونَ قيمتُها مائة دولار؟ لا شكَّ أنَّنا قادرون على أنْ نتحدَّثَ بذلك، ولكنَّا عاجزون عجزاً مطْلقاً على أنْ نعتَقِدَ به"[١].

لذا، "فالتَّحدُّثُ عن الاعتقادِ بأنَّه من عملِ الإرادةِ يبدو، إذن، من إحدى وجهاتِ النَّظَر، نوعاً من الحماقةِ. ومن وجهةِ نظَرٍ أخرى، يبدو أكثرَ من حماقة، إذ يبدو خطيئةً ورذيلة. فحينما يتأمَّلُ المرْءُ في صرْحِ العُلُومِ الطَّبيعيَّةِ الشَّامخ، ويرى كيف شُيِّدَ؛ ويُدْرِكَ ما قُبِرَ تحتَ أساسِهِ من حياةِ آلافٍ مؤلَّفةٍ من أشخاصٍ لم يكونوا ذوي أغراضٍ فرْديَّةٍ أو مصالحَ شخصيَّة، ويُدْرِكُ ما كان هناك من صبْرٍ وتأنٍّ، وما كان هنالكَ من متاعبَ وغُصَصٍ تُجُرِّعَتْ برضاً وقبول، ثمَّ ما كان هنالكَ من خضوعٍ وإذعانٍ للحقائقِ الخارجيَّةِ من قوانينَ باردة، ويرى كلَّ هذه الأشياء التي دخلَتْ في لبِناتِهِ وكِلْسِهِ، ثمَّ يرى كيف أنَّه يقِفُ في جلالِهِ الرَّحيبِ مُجرَّداً عن التَّحيُّزِ وغير مختلفٍ

(١) وليم جيمس، إرادة الاعتقاد، ص٨- ٩.

باختلافِ الأفراد، فإنَّه يُدْرِكُ السِّرَّ في أنَّ بعضَ من يأتي مزْهُوَّاً ومعجباً بنفْسِهِ من ضعفاءِ العقولِ ومُدَّعياً أنَّه قد حلَّ كلَّ المشاكلِ بأحلامِهِ الفرْديَّةِ وخيالاتِهِ، يبدو مجنوناً ومحتقراً. فهل نعجَبُ، إذن، إذا رأينا هؤلاء الذين تربَّوا في خشونةِ المدارسِ العِلْميَّةِ الوعِرةِ يحتقرون مثلَ هذا النَّوعِ من الذَّاتيَّة، ولا يعيرونَهُ اهتماماً، وإنَّ قواعدَ الإخلاصِ (للمنْهجِ العِلْمي) التي ترعْرعَتْ في مثلِ هذه المدارسِ العلميَّةِ لتقفُ كلُّها صفَّاً واحداً في وجهِ هذه الذَّاتية"....يقولُ كليفورد: "....إنَّه من الخطأِ، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وبالنِّسبةِ لكلِّ فرْدٍ، أنْ يعتقدَ من غيرِ وجود أدلَّةٍ كافية"[١].

للعقْل العملي والانفعالات دور واقعي في الاعتقاد:

لكن جيمس يؤكِّدُ على أنَّ هذا الموقِفَ وإنْ كان يُعبِّرُ عن طموحٍ حميدٍ، إلا أنَّ الواقعَ يؤكِّدُ دائماً على عدمِ إمكانيَّة التَّحرُّر من تأثيرِ الإرادةِ والرَّغبةِ بنحوٍ تامّ، بل لا يصُحُّ - من النَّاحيةِ العقلانيَّةِ - التَّشدُّدُ في هذا المجال.

---

(١) وليم جيمس، إرادة الاعتقاد، ص١١- ١٣.

يقولُ جيمس مُعلِّقاً على كلامِ كليفورد: "كُلُّ هذا يبدو سليماً، ولو صيغَ كما صنَعَ كليفورد، في عباراتٍ تدُلُّ على انفعالٍ نفْسيٍّ شديد. إذ أنَّ كُلّاً من الإرادةِ الحرَّةِ والرَّغبةِ البسيطةِ يبدو غير ضروري في مسائلِ الاعتقاد، كوضْعِ عجلةٍ خامسةٍ للعربة.

ولكن إذا افترَضَ أحدٌ بعد ذلكَ، أنَّ البصيرةَ العقليَّةَ هي وحدَها التي تبْقى بعد استبْعادِ كلّ من الرَّغبةِ والإرادةِ والاختيار الوجداني، أو أنَّ العقلَ (النَّظريَّ) المحْض هو الذي يُقرِّرُ وحدَهُ اعتقاداتَنا، فإنَّه يكونُ متجاهلاً كلَّ ما يُواجِهُهُ من حقائقَ واقعيَّة.

إنَّ الذي لا يمكنُ لإرادتِنا أنْ ترُدَّ إليه الحياةَ ثانيةً هو الفرضيَّات الميِّتة. ولكن الذي جعلَها ميِّتة بالنِّسبةِ لنا ليس، في كثيرٍ من الحالاتِ، إلا أفعالاً اختياريَّةً سابقة، ولكن من نوعٍ مُخالفٍ لتلك الفرضيَّات. ولسْتُ أقصُدُ عندما أتحدَّثُ عن "الطَّبيعةِ المختارةِ" الإرادات المُتدبِّرة فحسْب التي قد أوجدَتْ فينا من عاداتِ الاعتقاد ما لا نقدِرُ على التَّخلُّصِ منه الآن، ولكنِّي أقصدُ كلَّ عناصرِ الاعتقاد من خوفٍ وأمل، ومن تعصُّبٍ وانفعال، ومن تقليدٍ ومشاركة، ومن كلِّ ما يُحدِّدُ حالاتنا وطبقاتنا. إنَّنا في الواقعِ نجدُ أنفُسَنا معتَقِدينَ، ولكنَّنا لا نكادُ نُدْرِكُ كيفَ؟ ولماذا؟ ويُسمِّي

بَلْفور Balfour كلَّ الأسباب العقليَّة، التي تجعلُ الفرضيَّةَ ممكنةً أو غير ممكنة، وحيَّةً أو ميِّتةً، بالنِّسبةِ لنا، "سُلْطة" authority. فلا شكَّ أنَّا نؤمنُ بالجواهرِ المادِّيَّةِ وبنظريَّةِ حفْظِ القوى، وبالدِّيمقراطيَّةِ وبضرورةِ التَّقدُّم، وبالبروتستانْتِيَّةِ في المسيحيَّة، وبوجوبِ الجهادِ في سبيلِ "نظريَّةِ مونرو Monroe الخالدة" (= أمريكا للإمريكيِّين). نؤمنُ بكُلِّ هذه لأسبابٍ لا تستحِقُّ أنْ تُسمَّى أسباباً. ولا تتَّضِحُ لنا حقيقةَ هذه الموضوعات اتِّضاحَها لمنْ لا يؤمنُ بها. وقد يكونُ عندَهُ من الأسبابِ ما يُبرِّرُ عدمَ إيمانِهِ بها؛ وأمَّا نحنُ فليستْ البصيرةُ هي التي تدْفعُنا للاعتقاد، ولكن التَّعصُّب للآراءِ هو الذي يُنمِّي هذه الأشياءَ ويُغذِّيها، وهو الذي يُضيئُ ما كان مُظلِماً من خزائنِ اعتقاداتنا....ومن الحقِّ أنْ يُقالَ إنَّ عقيدتَنا هي اعتقادٌ في عقيدةِ شخْصٍ آخر، وذلك هو الشَّأنُ غالباً حتى في أخطَرِ الموضوعات. فإيمانُنا بالصِّدْقِ، مثلاً، بأنَّ هناك صِدْقاً، وبأنَّه وُجِدَ ليُدْرِكَهُ العقْلُ، ووُجِدَ العقْلُ ليُدْرِكَهُ، أيُّ شيءٍ هو إنْ لمْ يكنْ عملاً وجدانيَّاً للرَّغبةِ تُشجِّعُنا عليه النُّظُمُ الاجتماعيَّة؟! إنَّنا نرْغبُ في الصِّدقِ، ونرْغبُ في أنْ نعتَقِدَ أنَّ تجارِبَنا ودراساتنا وبحوثنا تُقرِّبُنا منه شيئاً فشيئاً، ولذلكَ نقْرَعُ الحُجَّةَ بالحُجَّةِ. ولكن إذا ما سألنا أحدُ

الشَّاكِّينَ من اللَّا أدريِّينَ قائلاً: كيف نعرِفُ كلَّ ذلك؟ فهل يجدُ منْطِقُنا جواباً؟ لا! إنَّه لا يَحيرُ جواباً لأنَّها ليست إلا إرادةٌ ضدَّ إرادةٍ أخرى، فنحنُ نميلُ إلى حياةٍ فيها شيءٌ من الثِّقةِ ومبنيَّةٌ على بعضِ الفرضيَّات، أما هو فلا يرْغبُ في ذلك.

وإنا لنرْفضُ في غالَبِ الحالات أنْ نعتَقِدَ في كلِّ ما ليس لنا إليه حاجة من حقائقَ ونظريَّات. الانفعالاتُ الكونيَّةُ لكليفورد لم تجِد فائدةً عمليَّةً في الشُعورِ المسيحي. هَكْسلي هاجَمَ الأساقفةَ لأنَّه لم يجِد لنظامِهِم الكهنوتي فائدةً في المنْهاجِ الذي وضَعَهُ للحياة. وأما نيومن فقد ارْتأى التَّقيضَ من ذلك، فاعتنقَ المسيحيَّةَ ووجدَ أسباباً جمَّةً تدْعوهُ للبقاءِ هناك، إذ أنَّ نظامَ الكهنوت عندَهُ حاجةٌ عضويَّةٌ؛ وهو سرورٌ وانشراح....

من هذا يتَّضحُ أنَّ لطبيعتِنا اللَّاعقليَّة (كالانفعالات) أثراً في اعتقاداتِنا، وأنَّ هنالك من الميولِ الوجدانيَّةِ والإراديَّةِ ما يأتي قبْلَ الاعتقاد، وهنالك منْها ما يأتي بعدَهُ؛ وهذه الميولُ الأخيرةُ هي التي يمكنُ أنْ يُقالَ فيها إنَّها جاءَتْ متأخِّرةً عن أوانِها وأنَّها عديمةُ الجدوى لذلكَ في الاعتقاد؛ ولكنَّها لا تُعتبرُ متأخِّرةً هذا التَّأخُّر إذا كانت آخذةً الاتِّجاهَ نفْسَهُ الذي أخذتْهُ الميولُ السَّابقة. فليست حجَّةُ

باسكال، إذن، بالضَّعيفةِ أو عديمةِ الجدوى ولكنَّها حجَّةٌ مُفحِمة، وهي آخرُ خطوة نحتاجُ إليها لتكملُ عقائدُنا في الصَّلواتِ وفي ماءِ المعموديَّة. وهكذا فإنَّ الأمرَ ليس بالسَّهلِ الهيِّنِ كما قد يُتصوَّر، وإنَّ المنطقَ والبصيرةَ النقيَّةَ، مهما قد يفعلا من النَّاحيةِ النَّموذجيَّةِ، ليسا الشَّيئينِ الوحيدينِ اللذين يُوجِدانِ في الواقعِ اعتقاداتَنا"[١].

تأثير الإرادة في الاعتقاد هل هو جدير باللَّوم؟

هل علينا أنْ نلومَ أنفُسَنا لأنَّ الإرادةَ والطَّبائعَ الوجدانيَّة والانفعالات لها تأثيرٌ ما على اعتقاداتِنا؟ يقول جيمس: "لنا الآن، أنْ نسألَ، بعدَ أنْ عرفنا ما في تلك الحالة من هوَسٍ واضْطراب، ونقول: أهيَ حالةٌ يُلامُ عليها أو يُرْثى لها، أو أنَّها بالعكسِ يجبُ أنْ نتعاطى معها كعُنْصرٍ اعتياديٍّ في عمليَّاتِنا الذِّهنيَّة؟

الأطروحةُ التي أُدافعُ عنها، تقولُ باختصار: أنَّ طبائِعَنا الوجدانيَّة لا يحقُّ لها أنْ تختارَ فحسْب، بل لا بدَّ لها من أنْ تختارَ من بين قضيَّتينِ أو قضايا، كلَّما كان التَّخييرُ تخييراً حقيقيَّاً، ولا تتمكَّنُ فيه الأدلَّةُ

(١) وليم جيمس، إرادة الاعتقاد، ص١٣- ١٦.

العقليَّةُ وحدَها من الوصولِ إلى قرارٍ حاسِمٍ، لأنَّ القولَ في مثْلِ هذه الحالة "لا تفْصِلُ في الأمرِ، بل دعهُ محلَّاً للنَّظَرِ والبحْث"، هو نفْسُهُ حكمٌ وجدانيٌّ شبيهٌ بالحُكمِ الإيجابيِّ أو السَّلْبي، ومصحوبٌ بالمخاطرةِ نفْسِها في إضاعةِ الحقيقة"[١].

اليقين تجريبيٌّ لا مطلق:

يُنبِّهُ جيمس على أنَّ اليقينَ الذي نستهدِفُهُ في هذا المقام هو يقينٌ تجريبيٌّ بسيط، وليس يقيناً مطلقاً مركَّباً. يقولُ في هذا المجال: "نحنُ مُسلِّمونَ ببعضِ القضايا، فنؤمنُ مثلاً بأنَّ هناك حقيقةً أو صِدْقاً، وبأنَّ عقولَنا تقدِرُ على أنْ تصِلَ إليها وأنْ تُدْرِكَها؛ وأما الشَّاكُّ فلا يفترِضُ شيئاً من هذا القبيل. ونحنُ، لهذا نفترِقُ منه عند هذا المفترق.

---

(١) وليم جيمس، إرادة الاعتقاد، ص١٦.

ولكن الاعتقادُ في وجودِ الصِّدْقِ وفي أنَّ عقولَنا يمكنُ أنْ تُدْرِكَهُ يمكنُ أنْ يكونَ على نحوين: طريقُ المذْهبِ التَّجريبي، وطريقُ المذْهبِ المطْلق.

والفرْقُ بينهما أنَّه بينما يرى أرْبابُ المذْهبِ المطْلق أنَّه لا يُمكِنُنا الوصولُ إلى الحقيقةِ والصِّدْقِ فحسْب، بل يُمكِنُنا أنْ نعرِفَ أنَّنا وصلْنا إليهِما حين نصلُ إليهِما، يرى أرْبابُ المذْهبِ التَّجريبي أنَّه يُمكِنُنا أنْ نُدرِكَهُما ولكن لا يُمكِنُنا أنْ نعرِفَ يقيناً متى وصلْنا إليهِما. فالمعرفة شيءٌ، ومعرفةُ أنَّنا نعرفُ شيءٌ آخر. لهذا يمكنُ التمسُّكُ بأنَّ الأوَّلَ منْهُما ممكنٌ دونَ الثَّاني، وهذا هو ما ذهَبَ إليه أرْبابُ المذْهب التَّجريبي...

وإذا نظرْنا إلى تاريخِ الفكرِ الطَّويل، وجدْنا أنَّ الغلَبَةَ كانت للمذْهبِ التَّجريبي في العلوم، وأنَّها كانت للمذْهبِ المطْلقِ في الفلْسفة....وقد يكونُ من الحقِّ أنْ يُقالَ أنَّ أعاظِمَ رجال المذْهب التَّجريبي ليسوا تجريبيِّينَ إلا من ناحيةٍ نظريَّةٍ فحسْب، فإذا ما تُرِكوا لغرائزِهِم وطبائِعِهم فإنَّهُم يعتقدونَ ويتيقَّنونَ كما يفعلُ البابا نفْسُهُ. وليس لهذا النَّوعِ الذي يُحدِّثُ عنه كليفورد وأتباعُهُ من عدمِ الكفايةِ حين يقولون: "إنَّه خطيئةٌ أنْ تعتقِدَ في المسيحيَّةِ معتمداً على

أدِلَّةٍ غير كافية" من وجود. فالأدِلَّةُ عندَهُم كافيةٌ كفايةً مطْلقة، ولكنَّها كافيةٌ في النَّاحيةِ الأخرى المضادَّة للمسيحيَّةِ فحسْب. فهم يؤمنون بخلافِ ما تراهُ المسيحيَّةُ من نظْمٍ إيماناً لا تردُّدَ فيه ولا شكّ، وكلُّ تخييرٍ عندَهُ بعد ذلك تخييرٌ ميِّت: فالمسيحيَّةُ فرضيَّةٌ ميِّتةٌ غيرُ محتملةِ الصِّدْقِ عندَهُم من أوَّلِ الأمر"[1].

لماذا يُناصِرُ جيمس المذْهبَ التَّجريبي؟

عند دراستِهِ للاعتقاد، لماذا يُناصِرُ جيمس المذْهبَ التَّجريبيَّ؟ لِمَ لمْ يُناصِر المذْهبَ المطْلق؟ يقولُ جيمس: "إذا كُنَّا بالغريزةِ من رجالِ المذْهب المطْلق، فما الذي يجبُ أنْ نفعلَهُ، ونحنُ فلاسفةٌ، إزاءَ هذه الحقيقة (حقيقة تأثير الإرادة في الاعتقاد)؛ هل نقبَلُها ونُدافِعُ عنها؟ أمْ ينْبغي أنْ نعتبرَها حالةَ ضعْفٍ في طبيعتِنا يجبُ أنْ نُعالِجَ أنفُسَنا منها بقدرِ الإمكان؟

---

(١) وليم جيمس، إرادة الاعتقاد، ص١٦- ١٨.

إنَّني أعتقدُ مخلصاً أنَّ الطَّريقَ الأخيرَ هو الطَّريقُ الوحيدُ الذي يجبُ أنْ يسلُكَهُ رجالُ العقْلِ والتَّفكير، فليس هناك من شكٍّ في أنَّ الأدلَّةَ الموضوعيَّةَ objective evidence واليقينَ مُثُلٌ عُلْيا طيِّبة، ولكن على أيِّ ضوء؟ وفي أيِّ مكانٍ خياليٍّ نجِدُها؟ لذلك ارتضيْتُ، فيما يتعلَّقُ بنظريَّةِ المعرفة، المذْهبَ التَّجريبيَّ، وآمنْتُ بنظريَّةٍ عمليَّة، وهي أنَّه يجبُ علينا أنْ نسيرَ في تجارِبِنا ونمضى في تفكيرِنا حول هذه التَّجارِب، لأنَّ أفكارَنا وآراءَنا لا تتطوَّرُ وتتدرَّجُ نحو الكمالِ إلا بهذا السَّبيل؛ ولكن أنْ تُصِرَّ على أنَّ نظريَّةً من النَّظريَّات – أيَّ نظريَّةٍ كانت – حقٌّ لا يقبَلُ الإبطالَ أو الشَّكَّ، فذلك على ما أعتقدُ خطأٌ عظيم؛ وإنِّي أعتقدُ أنَّ تاريخَ الفلْسفةِ يُناصِرُني في هذا الرَّأي. فليس هناك من اليقينِ الذي لا يعتريه الشَّكّ إلا حقيقة واحدة، وهي تلك الحقيقة التي لم تقدِر فلْسفةُ الشَّكِّ نفسُها أنْ تهدِمَها، ألا وهي وجودُ ظاهرةِ الشُّعور. وتلك هي النُّقطةُ الجرْداءُ التي تبدأُ منها المعرفة؛ وهي اعترافٌ بموضوعٍ يتفلْسَفُ الإنسانُ حولَهُ....إنَّنا لا نجدُ من بين القضايا التي اعتُبِرَت يقينيَّة من ناحيةٍ موضوعيَّةٍ ببعضِ العلماء - مع استثناءِ قضايا المقارنة الذِّهنيَّة، مثل ٢ + ٢ = ٤، وهي القضايا التي لا تُخْبِرنا شيئاً

بذاتِها عن الحقيقةِ الواقعيَّة - ما لم يعتبر كاذِباً أو محتملَ الكذِب ببعضٍ آخرَ من العلماء...

ولم يتَّفق الفلاسفةُ في وقتٍ ما على معيارٍ واحدٍ واقعيٍّ، تُختبَرُ به حقيقةُ ما هو في الواقعِ حقٌّ. فيجعلُهُ بعضُ العلماءِ شيئاً خارجيَّاً مغايراً للشُّعورِ العقلي، ويرى أنَّه الوحيُ والإلهام، أو إجماعُ الأمَّةِ، أو الغرائزُ النَّفْسيَّة، أو التَّجارُبُ المنظَّمةُ للجماعة. بينما يرى آخرونَ أنَّ لحظةَ الإدراكِ هي معيارُ نفْسِها، فيرى ديكارت مثلاً أنَّ المعيارَ هو وضوحُ الفكرةِ وتميُّزها بنفْسِها، ويرى (توماس) ريد أنَّه الحسُّ المشترك (الفهْمُ العامّ) common sense؛ ويرى كانط أنَّ صُوَرَ الحُكْمِ التَّركيبي قَبْليَّة a priori. ويذكُرُ آخرون معاييرَ أخرى مثل عدم تصوُّر النَّقيض أو الضِّد، وكون الشَّيء ممَّا يمكنُ التَّحقُّق منه حسِّيَّاً..إلخ. وإنَّ ما سُبِّحَ بحمْدِهِ من الأدِلَّةِ الموضوعيَّةِ لم يبْدُ يوماً ما منتصراً في الميْدان؛ فهو لا يزالُ رغبةً أو أملاً، إنْ دلَّ على شيءٍ فإنَّما يدُلُّ على أنَّ حياتَنا التَّفكيريَّةَ ذاتُ آمالٍ لا نهائيَّة...عقيدةُ المرْءِ في أنَّ الأدِلَّةَ التي يستعمِلُها هي من نوعٍ موضوعيٍّ، ليست في الواقعِ إلا عقيدةٌ ذاتيَّةٌ أخرى، تُضافُ إلى مجموعةِ ما عندَهُ من عقائِدَ ذاتيَّة.

ولقد كان كثيرٌ من النُّظُمِ الفكريَّةِ المتناقضةِ نتيجةً (ثمرةً) لما يُسمَّى بالأدلَّةِ الموضوعيَّةِ وباليقينِ المطْلق. فنجدُ القولَ بأنَّ العالَمَ عقلانيٌّ كُلِّيّاً وجزْئيّاً، وبأنَّ وجودَهُ ليس إلا حقيقة واقعيَّة لا تُعلَّل؛ وبأنَّ هناك إلهاً شخصيّاً، وبأنَّه لا يمكنُ تصوُّر إلهٍ شخصي؛ ونرى من يقولُ هنالِكَ عالَمٌ مادِّيٌّ زائدٌ على العالَمِ العقليِّ ويُمكِنُ معرفتُهُ، ومن يقولُ لا يعرِفُ العقْلُ إلا أفكارَهُ وآرائَهُ؛ ونسْمعُ القولَ بأنَّ الأحكامَ الخُلُقيَّةَ موجودةٌ، والقولَ بأنَّ الأحكامَ الخُلُقيَّةَ ليستْ إلا نتيجةً للرَّغبات؛ ونسْمعُ بأنَّ هنالكَ وحدةً عقْليَّةً مستمرَّةً في كلِّ فرْدٍ من الأفراد، ولكنَّا نسْمعُ أيضاً أنْ ليس هناك إلا حالاتٌ متغيِّرةٌ للعقْل؛ وأنَّ هناك سلسلةً لا نهائيَّةً من الأسباب، وأنَّ هنالك سبباً مطلقاً لا يسْبقهُ شيءٌ؛ وأنَّ هناك ضرورةً أبديَّةً، وأنَّه لا شيءَ بل مشيئةٌ واختيار؛ وأنَّ هناك قصْداً وغرَضاً، وأنَّه لا يوجدُ قصْدٌ ولا غرَض؛ وأنَّ الأوَّلَ واحدٌ، وأنَّه متعدِّدٌ؛ وأنَّ الوجودَ وحدةٌ مستمرَّة، وأنَّه ليس كذلك...وكان هذا كلُّهُ نتيجةً (ثمرةً) لفلْسفةٍ تدَّعي أنَّها وجدَتْ الأدلَّةَ الموضوعيَّة...

ولكن يجبُ أنْ يُلاحظَ أنَّنا، كتجريبيِّينَ، لا نترُكُ البحْثَ، أو نفقِدُ الأملَ في الوصولِ إلى الصِّدْقِ وإلى الحقيقة، لأنَّا قد تركنا نظريَّةَ

الأدِلَّة الموضوعيَّة. فلا نزالُ نؤمنُ بوجودِهِما، ونعتقدُ بأنَّنا، بالاستمرارِ في التَّجارِبِ وفي التَّفكيرِ فيها، نتدرَّجُ دائماً في القُرْبِ منهُما والرُّقيِّ إليهِما. ونقطةُ المفارقةِ بيننا وبين الرِّجالِ المدرسيِّين، هي في الطَّريقِ الذي نسْلُكُه. فهم يعتبرونَ المبادئَ والأصولَ والفكر، وأمَّا نحنُ فنعتبرُ النَّتائجَ والنِّهايات. وما له الحكْمُ والفصْلُ في الموضوعِ هو نتيجتُهُ وما الذي يؤدِّي إليهِ، لا ما نشأَ عنه"[1].

تجنُّب الخطأ لا يعني الاعتقاد بالحق:

يؤكِّدُ جيمس بعد ذلك على نقطةٍ مهمَّةٍ، وهي أنَّ تجنُّبَ الباطلِ لا يعني إصابةَ الحقّ، فكم من متجنِّبٍ لباطلٍ وقعَ في باطلٍ آخر، أو وقفَ بعيداً ولم يظْفَر بالحقِّ.

يقول: "بقيَتْ الآن مسألةٌ قصيرةٌ ولكنَّها مهمَّةٌ....نحنُ نهدِفُ، في جانبِ المعرفة، نحو معرفةِ الصَّواب ونحو تجنُّبِ الخطأ. ولكن معرفةُ الصَّواب وتجنُّب الخطأ أمرانِ متمايزان، ولا يدُلَّانِ على معنى

---

(١) وليم جيمس، إرادة الاعتقاد، ص١٨- ٢١.

واحد. فقد يحدُثُ أنَّنا عندما نؤمنُ بصحَّةِ (أ) نَنْجو عرَضاً من الوقوعِ في الخطأِ الذي هو الإيمانُ بصحَّةِ (ب). ولكن يندُرُ أنْ يؤدِّيَ عدمُ الإيمانِ بصحَّةِ (ب) إلى الإيمانِ الضَّروري بصحَّةِ (أ). إذ أنَّه من الممكنِ، حين نَنْجو من الإيمانِ بصحَّةِ (ب)، أنْ نقعَ في خطأٍ آخر، وهو الإيمانُ بصحَّةِ (ج) أو (د) مثلاً، وقد لا نصلُ إلى إيمانٍ بصحَّةِ شيءٍ ما.

"اعتقِد في الحقِّ"، و"تجنَّبَ الباطل"، أمرانِ مختلفان مادَّةً؛ وباختيارِ واحدٍ منهُما نرْسِمُ لنا طريقاً في الحياةِ تُباينُ الطَّريقَ النَّاشىءَ عن اختيارِ الأمرِ الآخر. فقد تكونُ مهمَّتُنا الأولى تتبُّع ما هو حقٌّ، ويكونُ تجنُّب الخطأ أمراً عرضيَّاً وثانويَّاً. وقد نعكِسُ الأمرَ، فنهدِفُ نحوَ تجنُّب الخطأ، ونترُكَ الصَّوابَ للفُرَصِ والمصادفات. ويحُثُّنا كليفورد في رسالتِهِ التي اقتبَسْتُها من قبلُ على تتبُّع هذا الطَّريقِ الأخير، فيقول: لا تعتقدُ شيئاً ودَعْ عقْلَكَ في شكٍّ دائم؛ فهذا خيْرٌ لكَ من أنْ تعتَقِدَ اعتقاداً ناشئاً عن ما لا يكفي من الأدلَّةِ؛ إذ قد يُعرِّضُكَ هذا الوضْعُ لاعتقادِ ما هو كاذبٌ.

ولكن قد ترى أنتَ أنَّ التعرُّضَ للوقوعِ في الخطأِ ليس إلا شيئاً لا يُذكَر بجانبِ السَّعادةِ الإيجابيَّةِ الناشئةِ عن المعرفةِ الحقَّة، وتُفضِّلَ

أنْ تُخدَعَ وتُغشَّ مراراً في بحثِكَ عن الحقيقةِ وأنْ تُخطِىءَ في الحُكْمِ، على تأخيرِ الحُكْمِ وتأجيلِ ما قد يسْنحُ من فرْصةِ معرفةِ الحقيقة إلى أجلٍ غير مسمَّى.

ولسْتُ أتَّفِقُ مع كليفورد هنا، فلا بدَّ لنا من أنْ نتذكَّرَ أنَّ شعورَنا بواجبِنا نحوَ ما هو صوابٌ وما هو خطأٌ ليس في جميع الحالات إلا مظهراً من مظاهرِ حياتِنا الوجدانيَّة؛ فعقولُنا، من النَّاحيةِ البيولوجيَّةِ الصِّرْفة، مستعدَّةٌ لأنْ تنظُرَ إلى كلٍّ من الصَّادقِ والكاذِب، وإنَّ كلَّ من يقول: "البقاءُ بلا اعتقادٍ خيرٌ من الاعتقادِ الكاذِب"، لا يُظهِرُ بذلك إلا خوفَهُ التَّفْسي، وكُرْهَهُ الشَّديد لأنْ يكونَ مخدوعاً. فقد يكونُ ذلك المرْءُ ناقداً لكثيرٍ من رغباتِهِ وميولِهِ، ولكنَّه عبْدٌ مطيعٌ لهذا الميْلِ ولهذا الخوف. فلا يتخيَّلنَّ شاكٌّ فيما لهذا الخوفِ من سُلْطانٍ وقوَّةٍ متحكِّمةٍ في النَّفْس. وإنَّني أيضاً أكرَهُ أنْ أكونَ مخدوعاً وأخافُهُ؛ ولكنَّني مع ذلكَ أعتقدُ أنَّ شيئاً أدْهى وأمَرَّ من الكونِ مخدوعاً قد يحدُثُ للمرْءِ في هذا العالَم. لذلك يُخيَّلُ لي أنَّ كليفورد لم يكن على حقٍّ فيما ذهبَ إليه، وأنَّ قولَهُ يشْبهُ قولَ القائدِ لجُنْدِهِ: "أنْ تظلُّوا بعيدينَ عن المعركةِ خيرٌ لكم من أنْ تُعرِّضوا أنفُسَكُم للجِراح"! ولكن ليس هذا هو طريقُ النَّصْرِ على الأعداءِ أو على الطَّبيعة،

وليستْ أخطاؤنا من هذا النَّوعِ المُرْعِب. وما دُمْنا متأكِّدينَ من أنَّنا عُرْضةً للخطأِ والغلَطِ في هذا العالَم، على الرَّغمِ من كلِّ حيطةٍ وحذر، فإنَّه من الخيرِ لنا أنْ نُواجِهَهُ بشيءٍ من الدَّعَةِ والرَّشاقة، بدَلَ ذلك الحزْم المتطرِّف والشِّدَّة المتناهية. وتلك هي أكثرُ الحالات مناسبةً للفلْسفةِ التَّجريبيَّة"[١].

أهمية الإرادة في الاعتقاد:

وأخيراً يشْرَعُ جيمس في صُلْبِ الموضوع، فيتساءل عن ضرورةِ الحسْمِ في الاعتقادِ بالقبولِ أو الرَّفض، في العُلُومِ الطَّبيعية، والمسائلِ الأخلاقيَّة، والاعتقاداتِ الدِّينيَّة. ليُؤكِّدَ على أنَّ الحسْمَ في الأوَّلِ (من الناحيةِ النَّظريَّة) ليس ضروريَّاً غالباً، بخلافِ الحال في الثَّاني والثَّالث. وإليكَ التَّفصيل.

---

(١) وليم جيمس، إرادة الاعتقاد، ص٢١- ٢٣.

الحسْمُ ليس ضرورياًّ غالباً في العلوم الطَّبيعية:

فيما يتعلَّق بالعُلُومِ الطَّبيعيَّة، وبالتَّحديدِ في ضرورةِ الحسْمِ بقبولِ أو رفضِ النَّظريَّاتِ العلْميَّة، يقولُ جيمس: "والآن، وبعد تلك المقدِّماتِ الطَّويلة، يحقُّ لنا أنْ ندْخُلَ في الموضوع، فنقول: قد عرَفْنا سابقاً أنَّ طبائعَنا الوجدانيَّةَ ليستْ مؤثِّرَة، في الواقع ونفسِ الأمر، في بعضِ آرائِنا فحسْب، ولكنَّها قد تكونُ ضروريَّةَ التَّأثير، وقد تكونُ هي العاملُ الوحيدُ الذي يُوجِّهُنا نحو هذه الآراء.

قد يرى بعضُكُم خطراً كامنا فيما أقولُ ويُخالِفُني فيه. بيْدَ أنَّه يجبُ عليكم أنْ تعترفوا معيَ مبدئيَّاً بضرورةِ وجودِ مرْحلتينِ من الوجدانِ والميول: فلا بدَّ أنْ تعترفوا بأنَّه يجبُ أنْ نُفكِّرَ لِئلَّا نُخدَع، ويجبُ أنْ نُفكِّرَ لنظفرَ بالصِّدْق. ولنا أنْ نعتبرَ بعد ذلكَ أنَّ خيرَ الطُّرُق للوصولِ إلى هذينِ الإنجازينِ النَّموذجيَّيْنِ أنْ لا نفترضَ خطوةً وجدانيَّةً أخرى وغير هاتينِ الخطوتين.

إنَّني أقبلُ هذا التَّقييد، ولكن في حدودِ ما تسْمحُ به الحقائقُ الواقعيَّة. فكلَّما كان التَّخييرُ بين إدراكِ الصَّوابِ وعدَمِهِ تخييراً غيرَ خطيرِ الشَّأن، كان لنا أنْ نُضيعَ فرْصةَ إدراكِهِ، ونُنْجي بذلك أنفُسَنا

من احتمالِ الاعتقادِ فيما هو خاطئٌ، ولا نعتقدُ حتى نعثُرَ على الأدلَّةِ الموضوعيَّةِ اليقينيَّة. وذلك هو الشَّأنُ غالباً في المسائلِ العِلْميَّة. وليستْ الحاجةُ إلى الفعلِ، في كثيرٍ من المسائلِ الإنسانيَّةِ العامة، شديدةَ المساسِ دائماً بحيث تجعل الاعتقاد ولو في الكاذِبِ خيْراً من عدَمِ الاعتقادِ ومن انتظارِ الأدلَّةِ الموضوعيَّة.

وأما محاكِمُ القضاءِ مثلاً، فالأمرُ فيها بالعكسِ، لأنَّ الحاجةَ تدعو إلى العَمَلِ، وواجبُ المحكمةِ أنْ تفصِلَ في الأمْرِ مستندةً إلى خيْرِ ما يُمكنُ من الأدلَّةِ وقتَ الحُكْمِ. ولقد أخبرني أحدُ القُضاةِ النَّابهين أنَّ المهمَّ في كثيرٍ من حالاتِ القضاء أنْ تفرُغَ منها بسُرْعةٍ على ضوءِ أيِّ مبدأٍ مقبول وتنتقلَ إلى غيرِها. ولكنَّنا، في تعامُلِنا مع الطَّبيعةِ الموضوعيَّةِ، مؤرِّخونَ recorders لا موجِدُونَ makers للحقيقةِ، ولذلك كان الفصْلُ فيها، لمجرَّدِ الرَّغبةِ في الانتهاءِ منها بسُرْعةٍ والانتقالُ إلى غيرِها، عملاً غير مناسب.

وبما أنَّ حقائقَ العالَم المادِّي لا تتغيَّر بتغيُّرِ العصورِ والأشخاص، ويندُرُ أنْ تمُسَّ الحاجةُ إلى التَّسرُّعِ في الحُكْمِ عليها والفصْلِ فيها، لم يكن هناك مبرِّرٌ للخوفِ من أنْ يكونَ المرْءُ مخدوعاً في اعتقادِهِ في نظريَّةٍ لم تتَّضِح بعد. فالتَّخييراتُ في هذه المسائلِ وأمثالِها

تخييراتٌ غيرُ خطيرةِ الشَّأن، ولا تكادُ تكونُ فرضيَّاتُها حيَّةً بالنِّسبةِ لنا نحنُ المشاهدون، والتَّخييرُ بين الاعتقادِ في الصَّادقِ والاعتقادِ في الكاذِبِ ليس، لذلك، من النَّوعِ الضَّروريِّ المُلْزِم. فنظرةُ الشَّكِّ هي هنا النَّظْرَةُ الحكيمةُ ما دامَ المرْءُ متجنِّباً الغلط. فليس هناك ضرورة مثلاً، تجعلُ المرْءَ يؤمنُ بوجودِ مادَّةٍ يتكوَّنُ منها العقلُ الإنساني، أو يحكُمُ بأنَّه لا وجودَ لتلكَ المادَّة، أو يعتقدُ أنَّ هناك ارتباطاً عِلِّيَّاً بين الحالاتِ العقْليَّةِ أو لا يعتَقِدُ ذلك، لأنَّه ليس من بين هذه الفرضيَّاتِ وأمثالِها ما هو مُلْزِمٌ لنا....

وإنَّني أتحدَّثُ هنا، طبْعاً، من وجهةِ نظَرِ الحُكْمِ العقْليِّ المحض. وأما وجهةُ نظر الاكتشافِ العِلْمي، فإنَّها لا توصي بذلكَ الحياد. إذ لا مِراءَ في أنَّ العلْمَ كان أقلَّ تقدُّماً ممَّا هو عليه الآن لو لم تلْعب رغباتُ الأفرادِ وميولُهُم دوراً مهمَّاً في محاولةِ البرْهنةِ على عقائِدِهِم...وكما يقولُ باسكال: "للقلْبِ ميولٌ واتِّجاهاتٌ لا يعرفُ العقْلُ دواعيها وبواعِثَها"....ولكن على الرَّغْمِ من كلِّ ذلك، دعْنا الآن نتَّفقُ على أنَّ غايتَنا المُثْلى، في كلِّ حالةٍ ليس التَّخييرُ فيها تخييراً لازماً، هي الحكْمُ العقْليُّ المجرَّدُ من الهوى والميولِ وعن

الفرضيَّاتِ المرْغوب فيها، حتى تتهيَّأَ لنا، كما يُقال، فرْصةَ تجنُّب الغشّ والخداع"[١].

هذا فيما يتعلَّق بالعُلُومِ الطَّبيعيَّة.

الموضوعات الأخلاقيَّة لا تحتمل التَّأجيل:

لكن ماذا عن المسائلِ الأخلاقيَّة؟ هل من الضَّروري أنْ نحسِمَ أمرَنا ونتَّخِذَ من موضوعاتِها موقفاً جازماً دونَ تأجيل؟

يقولُ جيمس: "وأما الموضوعاتُ الأخلاقيَّة فإنَّها، على ما يبدو، مسائلُ لا تحتملُ التَّأجيلِ حتى يأتيَ الدَّليلُ الحسِّي. فليستْ تلك المسائل متعلِّقةً بما يوجَدُ حِسَّاً، ولكنَّها متعلَّقةٌ بما هو حسَنٌ good، أو بما يكونُ حسَناً على فرْضِ وجودِهِ. ولا يُحدِّثُنا العلْمُ إلا عن الموجودِ بالفعل، وأما في مقارنةِ القِيَم - قِيَم ما يوجد وما لا يوجد - فلا بدَّ لنا من الرُّجوعِ إلى ما سمَّاهُ باسكال: القلْب، لا إلى العِلْم. وإنَّ العلْمَ نفْسَهُ ليستفتي قلْبَهُ عندما يضَعُ قاعدَتَهُ من أنَّ

---

(١) وليم جيمس، إرادة الاعتقاد، ص٢٣- ٢٦.

الخيْرَ الأعلى للإنسانِ هو تأكيدُ ما هو حقٌّ وتصحيحُ ما هو خاطئٌ من الاعتقاد....

فالإرادةُ نفْسُها هي التي تفصِلُ في أسئلةٍ مثل: هل نعتَقِدُ في المسائلِ الخُلُقيَّةِ أو لا نعتَقِد؟ وهل نحنُ على صوابٍ أو على خطأٍ فيما اخترْناهُ من مسائل؟ ومثل: هل توصَفُ الأشياءُ في ذاتِها بأنَّها خيْرٌ أو شرٌّ؟ أو أنَّ الخيْريَّةَ والشرِّيةَ أوصافٌ نسْبيَّة؟ فكيف يتأتَّى للعقْلِ المحضِ أنْ يفصِلَ هنا في الأمر؟ وإذا لم يُرِد قلْبُكَ حقيقةً خُلُقيَّةً، فسوف لا يجعلُكَ عقْلُكَ تؤمِنُ بواحدةٍ من الحقائقِ الخُلُقيَّة....ومن البيِّنِ أنَّه لا تُمكِنُ البرْهنةُ منطقيّاً على الشَّكِ الأخلاقي، لا نفياً ولا إثباتاً، كما أنَّها لا تُمكِنُ كذلك بالنِّسبةِ للشَّكِّ العقْلي. ولكن عندما نؤمنُ بأنَّ هناك حقيقةً، فإنَّا نفعلُ ذلكَ وتمسَّكُ به بكُلِّ ما فينا من قوَّةٍ طبيعيَّةٍ، مستعدِّينَ لتحمُّلِ النَّتائجِ أيًّا كان نوعُها. وكذلك يفعلُ الشَّاكُّ، فإنَّه يتمسَّكُ بشكِّهِ بكُلِّ ما فيه من قوَّةٍ طبيعيَّةٍ، مستعداً لتحمُّلِ النَّتائجَ كذلك. ولكن أيُّ الطَّرفينِ أكثرُ حكمةً وسداداً؟ علْمُ ذلك عند ربِّي فقط.

والآن لندَعَ هذه المسائل العامَّة من الحُسْنِ جانباً، ولنرْجِع إلى جزْئيَّاتٍ ومسائلَ فرْديَّة منه، إلى مسائلَ ترجِعُ إلى العلاقاتِ الشَّخصيَّةِ أو إلى الرَّوابطِ العقليَّةِ بين فرْدٍ وآخر.

فمثلاً، هل تُحِبُّني أو لا؟ وسواءٌ أكنْتَ تعتَمِدُ في التَّقديرِ على الحالاتِ الكثيرةِ التي لا أُصِرُّ فيها على رأيي عندما نتمارى، بل أتنازلُ ولو قليلاً وأقابِلُكَ في منتصَفِ الطَّريق، أولا تعتمِدُ على ذلك، فإنِّي راغبٌ في أنْ أفترِضَ أنَّكَ تُحِبُّني لا محالة، وإنِّي لذلكَ واثقٌ بكَ وكبيرُ الأملِ فيك. فإيماني السَّابقُ من جانبي في أنَّكَ تُحِبُّني هو في مثلِ هذه الحالات ما يجلُبُ محبَّتَكَ لي. ولكنْ، إذا وقفْتُ بعيداً عنْكَ، ورفضْتُ أنْ أتقدَّمَ نحوَكَ خطوةً ما، حتى تُبرْهِنَ لي مادِّيَّاً، وتُقدِّمُ لي ما يدُلُّ دلالةً قاطعةً على الحُبِّ، كما يقولُ رِجالُ المذْهبِ المطلق، فسوف لا يأتي الحُبُّ أبداً. فهل تملَّكَ إنسانٌ قلْبَ امرأةٍ بمجرَّدِ إصرارِهِ على أنَّها لا بدَّ أنْ تُبرْهِنَ أوَّلاً على حُبِّها إيَّاهُ؟ إنَّ من ينتظِرَ ذلك، يكونُ غيرُ مؤمنٍ بأنَّ طبيعةَ المرأةِ تأباهُ. فالرَّغبةُ في نوعٍ معيَّنٍ من الحقيقةِ، هي التي تُوجِدُ هناك ذلك النَّوع المعيَّن منها. وإنَّ الشَّأنَ لكذلكَ في كثيرٍ من الحالاتِ الأخرى؛ فمن الذي يحظى بالوظائفِ والتَّرقياتِ وينالُ الإحسانَ والمساعدةَ إلا هؤلاء الذين تلْعَبُ هذه

الأشياءُ في حياتِهِم دورَ الفرضيَّاتِ الممكنة؟ وكلُّ من أعرَضَ عنْها ورآها غيرُ ممكنةٍ بالنِّسبةِ له، فإنَّه يُضحِّي بكثيرٍ من الأشياءِ قبْلَها، ويُخاطِرُ بها قبْلَ أنْ توجد. فكأنَّ الاعتقادَ نفْسَهُ ذو أثرٍ إيجابيٍّ في إيجادِ موضوعِهِ.....

ولا يمكنُ أنْ توجدَ حكومةٌ، أو يُنظَّمَ جيشٌ، أو يقومَ عملٌ تجاريٌّ، أو تسيرَ سفينةٌ، أو تنتظِمَ كُلِّيَّةٌ، أو تعملَ جماعةٌ رياضيَّةٌ، إلا على هذا الأساس. وبدونِهِ لا يمكنُ أنْ يوجدَ شيءٌ، بل لا توجدُ محاولةٌ أيضاً. وقد تُنْهَبُ القاطرةُ كلُّها (ولو كان كلُّ فرْدٍ فيها شجاعاً) بعددٍ قليلٍ من قُطَّاعِ الطُّرُقِ، لأنَّهُم يثِقُ بعضُهُم ببعضٍ، في حين أنَّ كلَّ واحدٍ من المسافرينَ قد يخشى أنْ يُقْتَلَ، إذا قاوَمَ، قبْلَ أنْ يأتي الآخرون لمُناصَرَتِهِ. ولكن إذا ما اعتقَدَ كلٌّ منَّا أنَّ الرُّكَّابَ سينْهضونَ معه وسيُناصرونَهُ، فإنَّ كلَّ فرْدٍ ينْهَضُ في الحال، ولا توجدُ بعد ذلكَ محاولةٌ يُقصَدُ بها نهْبُ القاطرات. فهنالكَ، إذن، بعضُ الحالاتِ التي لا يُمكِنُ أنْ يتحقَّقَ فيها فعْلٌ إلا إذا كان مسْبوقاً بإيمانٍ بأنَّه سيتحقَّق. وبما أنَّ الإيمانَ في حقيقةٍ ما تُساعِدُ على إيجادِ تلك الحقيقة، فإنَّه يكونُ من عدمِ الاتِّزانِ في المنطقِ أنْ تقولَ إنَّ

الإيمانَ، الذي يسْبِقُ وجودُهُ الأدلَّةَ العلْميَّة، ليس إلا "أحطّ مراحلِ السُّقوط الأخلاقي"[١].

ماذا عن الاعتقادات الدِّينيَّة؟

وأخيراً، ينتهي جيمس إلى النُّقطةِ المركزيَّةِ من صُلْبِ الموضوع، أعني الاعتقادات الدِّينيَّة. ماذا عنها؟ هل تنْطبقُ القواعدُ السَّابقةُ عليها؟ هل الحسْمُ بشأنِها يحتملُ التَّأجيل؟ هل العقلانيَّةُ العمليَّةُ تقضي بأنْ نبْقى لاأدريِّين إلى أنْ تكتملَ الأدلَّةُ وتصبحُ كافيةً؟

يقولُ جيمس: "قد يُقالُ إنَّ هذه مسائلَ غيرُ مهمَّة ولا شأنَ لها بالمسائلِ الكبرى، مثل مسائل العقائد الدِّينيَّة، فلا يصحُّ أنْ تُقاسَ بها. وهذا يدْفعُنا إلى أنْ نتحدَّثَ عن هذه المسائلِ العاليةِ الدِّينيَّة. بيْدَ أنَّه لمَّا كانت الأدْيانُ تختلفُ اختلافاً كبيراً في الجزْئيَّاتِ وفي التَّفاصيل، كان لزاماً علينا أنْ نتحدَّثَ عنها في عمومِها، فنتحدَّثُ عن أجناسِها وأصولِها فحسْب.

فنقولُ أوَّلاً: ما الذي نقصدهُ حين نتحدَّثُ عن الفرضيَّاتِ الدِّينيَّة؟ فنحنُ نعلَمُ أنَّ العلْمَ يتحدَّثُ عن الموجودِ بالفعْل (ما هو كائن)، وأنَّ

---

(١) وليم جيمس، إرادة الاعتقاد، ص٢٦- ٢٩.

الأخلاقَ تتحدَّثُ عمَّا حقَّهُ أنْ يوجد (ما ينْبغي أو يجب أنْ يكون)، فما الذي يتحدَّثُ عنه الدِّينُ على وجهٍ عام؟ وجوابُ هذا أنَّ الأدْيانَ تتحدَّثُ عن شيئينِ جوهريَّين.

فيقولُ الدِّين أوَّلاً: خيْرُ الموجوداتِ هو أكثرُها أبديَّةً، وأعمُّها مدْلولاً، وأطولُها بقاءً. أو كما يقولُ تشارلز سيكريتان: "الكامِلُ هو الخالِدُ". وتلك، ولا شكَّ، عبارةٌ مناسبةٌ للتَّعبيرِ عن القضيَّةِ الدِّينيَّة، ولكن لا يمكنُ التَّحقُّق منها تحقُّقاً عِلْميَّاً على الإطلاق.

ويقولُ الدِّينُ ثانياً: إنَّه من الخيْرِ لنا في حياتِنا هذه، وفي الحيواتِ الأخرى، أنْ نُؤمِنَ بصِدْقِ القضيَّةِ الأولى....

لا شكَّ أنَّ الدِينَ يُقدِّمُ نفْسَهُ لنا، أوَّلاً، على أنَّه أمرٌ خطيرُ الشَّأنِ. لأنَّه افترضَ أنَّنا سنجني من وراءِ اتِّباعِهِ خيْراً كثيراً نحتاجُ إليه في حياتِنا، وسنخْسَرُ بالإعراضِ عنْهُ ذلك الخيْرَ الحيوي. ويُقدِّمُ الدِّينُ نفْسَهُ ثانياً، على أنَّه تخييرٌ مُلْزِمٌ ضروريٌّ، لأنَّ ذلكَ الخيْرَ الحيويَّ مرْتبطٌ به ومتوقِّفٌ عليه. فلا يُمكِنُنا أنْ نتخلَّصَ من المشكلةِ ببقائِنا في حالةِ شكٍّ وتردُّدٍ، مرْتقبينَ ذلك اليومَ الذي تأتي فيه أدلَّةٌ أكثرَ وضوحاً وأقوى إلزاماً. فعلى الرَّغْمِ من أنَّ تلك الحالةَ (البقاءَ في شكٍّ) تُجنِّبُنا الوقوعَ في الخطأِ على فرْضِ أنَّ الدِّينَ ليس بحقٍّ، فإنَّها

تُفقِدُنا ذلك الخيْرَ الحيويَّ على فرْضِ أنَّه حقٌّ فُقداناً يقينيَّاً كما لو فصَلْنا في الأمرِ وقرَّرْنا عدمَ الاعتقاد. ويكونُ مثَلُنا في ذلكَ مثَلَ رجُلٍ تردَّدَ في خطبةِ امرأةٍ لأنَّه ليس عندَهُ من الأدلَّةِ اليقينيَّةِ ما يجعلهُ يعتقدُ أنَّها ستكونُ زوجةً مثاليَّةً إذا ما تزوَّجَها. إنَّ رجُلاً هذا شأنُهُ، يُباعِدُ بين نفْسِهِ وبين التَّزوُّجِ بتلك المرأةِ المحتمل أنْ تكون زوجةً مثاليَّة، بُعْداً حقيقيَّاً لا يقِلُّ عنه في حالةِ ما إذا تزوَّجَ بامرأةٍ أخرى.

فالموقفُ الشُّكوكي (اللَّاأدْري)، إذن، ليس تجنُّباً للاختيار، وإنَّما هو اختيارٌ مصحوبٌ بنوعٍ خاصٍّ من المخاطرةِ والغرَر. وإنَّ لسانَ حال رافض الاعتقاد في مثلِ هذه الحالةِ، يقول إنَّ المخاطرةَ التي قد ينشأُ منها عدمُ الوصولِ إلى الحقيقةِ أحقُّ بالاتِّباعِ من التمسُّكِ برأيٍ يحتمِلُ الخطأَ. فهو مخاطرٌ مخاطرةً إيجابيَّةً لا تقِلُّ عن مخاطرةِ المُعتقِدِ نفْسِهِ؛ إنَّه مخاطرٌ بالفرضيَّاتِ الدِّينيَّةِ من أجلِ مخاوفِهِ، كما أنَّ المُعتقِدَ مخاطرٌ بكلِّ شيءٍ من أجلِ الفرضيَّاتِ الدِّينيَّةِ وأملِهِ في صحَّتِها. فالقولُ بأنَّ الشَّكَّ في الفرضيَّاتِ الدِّينيَّةِ هو واجِبُنا حتى نكتشِفَ "أدلَّةً كافيةً" تُثْبِتُ صحَّتَها، هو بمنزلةِ القول بأنَّ الاستجابةَ لمخاوِفِنا fear من كونِ الفرضيَّاتِ الدِّينيَّةِ خطأٌ أوْلى

وأحكَمَ من الاستجابةِ لآمالِنا hope في صحَّتِها. فليستْ المسألةُ، إذن، مسألة القوَّة العاقِلة ضدَّ الميول، ولكنَّها القوَّة العاقِلة مع أحدِ الميول ضدَّها (الأمل) مع ميْلٍ آخر (الخوف). وأيُّ دليلٍ يُبرْهِنُ على أنَّ أحدَ الميْلينِ أكثرَ حكمةً وعقلاً؟ إنَّه خِداعٌ في مقابلِ خداع، وليس هناك من بُرْهانٍ على أنَّ الخِداعَ النَّاشيءَ من الأملِ هو أسوأُ من الخداعِ النَّاشيءِ من الخوف....

وعلى هذا الأساس أقولُ: إذا كان الدِّينُ حقّاً، ولم تكن أدَّلتُهُ كافيةً، فإنَّني لا أرْغبُ أنْ أُضيِّعَ الفرْصةَ الوحيدةَ التي قد تجعلُني في الجانبِ المنتصر. وتعتمدُ تلك الفرْصةُ، طبْعاً، على رغبتي في المخاطرةِ وفي العمَلِ على افتراضِ أنَّ ميولي النَّفْسيَّةَ التي تنْظُرُ إلى العالَمِ نظرةً دينيَّةً ميولٌ ملْهِمةٌ وحقَّة.

كلُّ هذا على فرْضِ أنَّها قد تكونُ في الواقعِ حقّاً وملْهِمة، وعلى فرْضِ أنَّ الدِّيَن، حتى بالنِّسبةِ لنا نحنُ الباحثينَ فيه، فرْضٌ حيٌّ ويمكنُ أنْ يكونَ حقّاً....

لو أنَّ رجُلاً وُجِدَ بين جماعةٍ لم يتقرَّب إليها بنوعٍ ما من أنواعِ التَّقرُّبِ، وطلَبَ دليلاً على كلِّ ما يُقالُ، ولم يقْبَل منها شيئاً بدونِ دليل، فإنَّه، بلا مِراءٍ، سوف يُباعِدُ بين نفْسِهِ، بفظاظَتِهِ وخشونَتِهِ

هذه، وبين كلِّ جزاءٍ اجتماعيٍّ يمكنُ أنْ ينالَهُ من كانت له روحُ الثِّقةِ والتَّصديق. وكذلك الشَّأنُ هنا، فكلٌّ يتمسَّكُ بذلك المنْطقِ الخشَنِ، ويُحاوِلُ أنْ يُصوِّرَ الإلهَ وكأنَّه يسْتجدي منه، طوعاً أو كرْهاً، الاعترافَ به، فإنَّه قد يُضيعُ بذلك فرْصَتَهُ الوحيدة التي يمكنُ من خلالِها أنْ يتعرَّفَ بها على الإله.....

التَّجارِبُ المريرةُ تجعلُني أخشى أنْ يكونَ بينكم من لا يزالُ مُصِرَّاً على عدمِ الاعتراف بأنَّ لنا الحقَّ في أنْ نعتَقِدَ فيما نشاءُ من الفرضيَّاتِ ما دامَ فيه من الحيويَّةِ ما يُغْري إرادَتَنا بذلك. إذا كان الأمرُ كذلكَ، فقد يكونُ سببُهُ أنَّكُم تركتُم وجهةَ النَّظَرِ العامَّة، وفكَّرْتُم (قد يكونُ من غيرِ قصْد) في نوعٍ خاصٍّ من الفرضيَّاتِ الدِّينيَّةِ التي ترونَها ضرْباً من المحال. فقد تُطبِّقونَ نظريَّةَ الحرِّيَّةَ في "اعتقادِ ما تُريد" على حالاتٍ من الخرافات، وقد يكونُ الإيمانُ الذي تُفكِّرونَ فيه هو الإيمانُ الذي يُعرِّفُهُ بعضُ الصِّغارِ من أطفالِ المدارس بقولِهِ "الإيمانُ هو عندما تعتَقِدُ في شيءٍ تعرِفُ أنَّه ليس بحقٍّ". إذا كان هذا هو السَّببُ، فليس عندي ما أقول إلا أنَّه سوءُ فهْمٍ. إذ أنَّ الحرِّيَّةَ في الاعتقادِ لا تشمل إلا الاختيارات الحيَّة التي لا يقدِرُ العقْلُ على أنْ يفصِلَ فيها وحدَهُ....

وإنَّني لا أتردَّدُ هنا في أنْ أقولَ أنَّني عندما أُنْعِمُ النَّظرَ في المسائلِ الدِّينيَّة، وعندما أتدبَّر كلَّ الاحتمالاتِ النَّظريَّة والعمليَّة التي تتضمَّنُها، فإنَّه يبدو لي أنَّ ذلك الطَّلبَ الذي يرى أنَّه يجبُ علينا أنْ نضَعَ كابحاً أمامَ قلوبِنا، وغرائزِنا، وشجاعتِنا، وننتظِرَ - ونتصرَّفَ أثناءَ ذلك على فرْضِ أنَّ الفرضيَّاتَ الدِّينيَّةَ غيرُ حقَّةٍ - حتى يأتي يومَ الفصْلِ، أو حتى يأتي اليومُ الذي تجِدُ فيه عقولُنا وحواسُّنا في تضامُنِها أدلَّةً كافيةً، ليس إلا أغرَبَ تمثالٍ queerest idol صُنِعَ في كهْفِ الفلْسفة...

وإذا فضَّلَ امرؤٌ أنْ يُعرِضَ عن اللهِ وعن المستقبل، فليس يقدِرُ أحدٌ على منْعِهِ؛ ولا يقدِرُ أحدٌ أنْ يُبيِّنَ له قطْعاً أنَّه مخطئٌ. وإذا ما رأى العكْسَ، ثمَّ تصرَّفَ حسبَ ما رأى، فلسْتُ أظُنُّ أنَّ أحداً يقدِرُ أنْ يُبرْهِنَ على أنَّه خاطئٌ. وكلُّ امرئٍ، يفعلُ حسبَ ما يظُنُّهُ حسَناً، وإنْ أخطأَ فعلى نفْسِهِ....

ونحنُ واقفونَ على طريقٍ في جبْلٍ محصورٍ بين عاصفةٍ من الثُّلُوجِ من ناحية، وبين ضبابٍ كثيفٍ من ناحيةٍ أخرى، ويظْهَرُ لنا أحياناً من بين ثنايا هذا الظَّلام شعاعٌ ضئيلٌ، فيُبيِّنُ لنا طُرُقاً قد تكونُ مضلِّلةً وغيرَ هادية. فإذا وقفْنا ولم نتحرَّك، فسيقتُلُنا البرْدُ. وإنْ

أخذْنا الطَّريقَ المعوَّجَ، فقد تتقطَّعُ منا الأوْصالُ. ونحنُ لا نعلَمُ يقيناً إذا كان هناك طريقٌ مستقيمٌ. فما الذي يلْزم أنْ نفعلَهُ؟ فلنكُنْ أقوياءَ بواسل، ولنفعَل ما نراهُ حسَناً، ولنرْجُ أنْ نُدْرِكَ ما هو حسَنٌ، ثمَّ لنتقبَّلَ كلَّ ما يأتي به الدَّهرُ. وإذا كان الموتُ هو النِّهايةُ الحتْميَّةُ، فسوف لا نُواجِهُ ميتةً خيْراً من هذه الميتة"[١].

(١) وليم جيمس، إرادة الاعتقاد، ص٢٩- ٣٥.

الفهرس

مقدمة ٥

أخلاقيَّات الاعتقاد بقلم وِلْيَم كليفورد ٢١

أولا: واجبُ التَّحقُّق (مسئوليَّةُ التثبُّت) ٢٣

ثانياً: وزْنُ السُّلْطة ٦٩

ثالثاً: حدودُ الاستدلال ١٤٩

(ملحق) ١٦١

إرادة الاعتقاد (عند وليم جيمس) ١٦٣

الشُّروط الثَّلاثة للفرضيَّات المتنافسة: ١٦٤

١ - حياةُ الفرضيَّات المتنافسة: ١٦٤

٢ - الاختيار الاضْطراري: ١٦٦

٣ - أهميَّةُ المحتمل: ١٦٧

الاعتقاد من زاوية نفْسيَّة: ١٦٨

للعقْل العملي والانفعالات دور واقعي في الاعتقاد: ١٧٠

تأثير الإرادة في الاعتقاد هل هو جدير باللَّوم؟ ١٧٤

اليقين تجريبيٌّ لا مطلق: ١٧٥

لماذا يُناصِرُ جيمس المذْهبَ التَّجريبي؟ ١٧٧

تجنُّب الخطأ لا يعني الاعتقاد بالحق: ١٨١

أهمية الإرادة في الاعتقاد:..... ١٨٤
الحسْمُ ليس ضروريًّا غالباً في العلوم الطَّبيعية:..... ١٨٥
الموضوعات الأخلاقيَّة لا تحتمل التَّأجيل:..... ١٨٨
ماذا عن الاعتقادات الدِّينيَّة؟..... ١٩٢
الفهرس..... ١٩٩